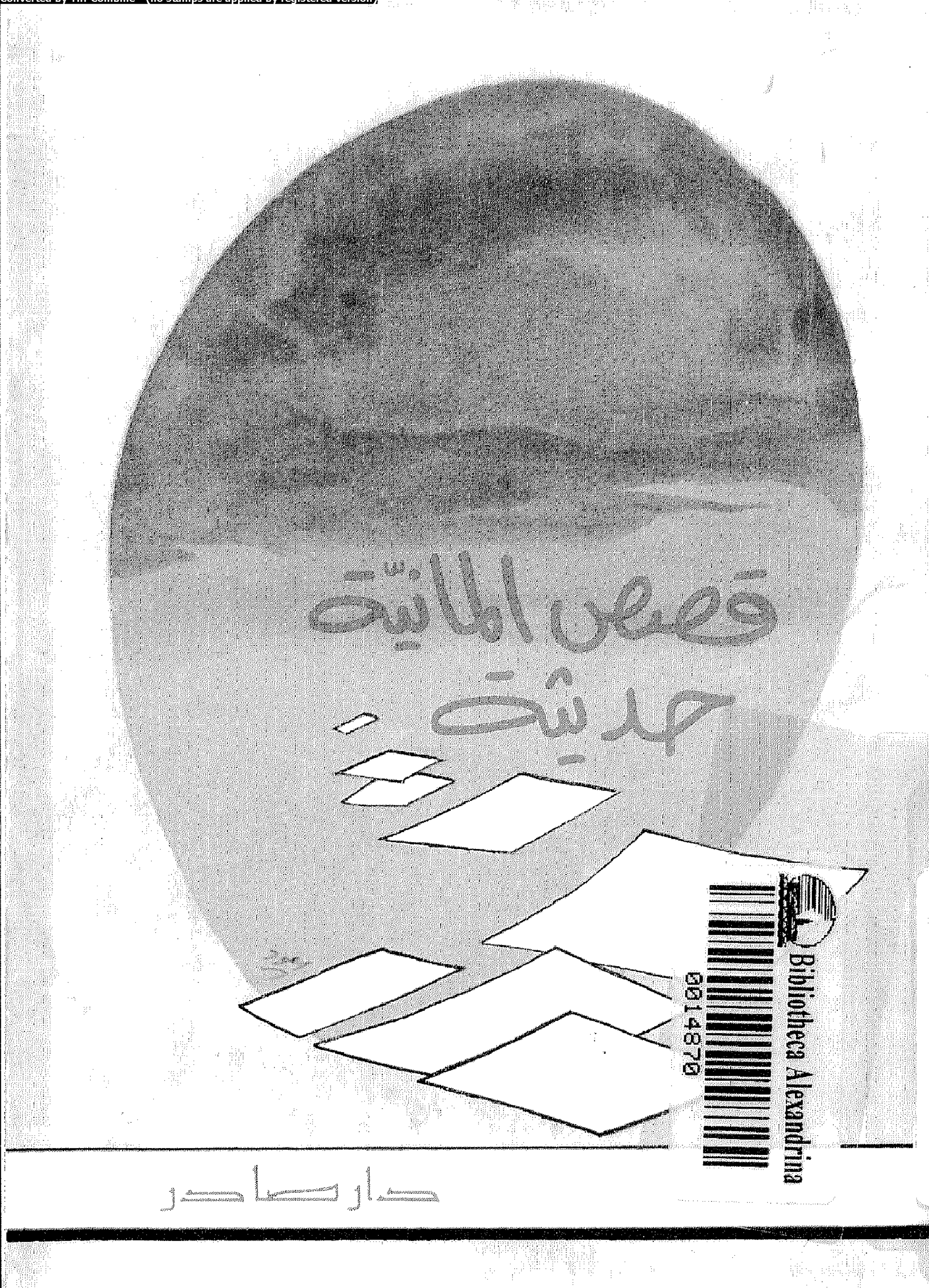
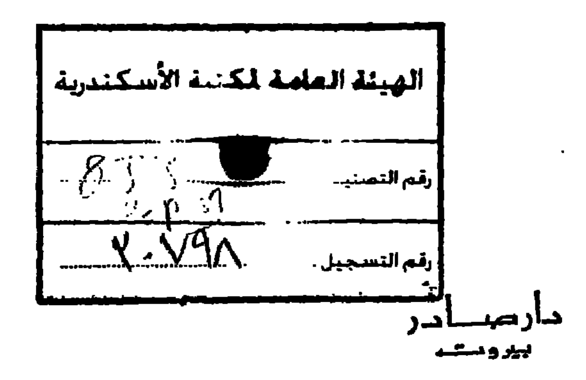

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)
قصص ألمانية
حديثة
Bibliotheca Alexandrina
0014870
دار صادر



قصص ألمانية حديثة



قصص ألمانية حديثة



دار صادر
بيروت

هذا الكتاب هو ثمرة المجهود المشترك
الذي تمّ بين
دار صادر في بيروت ، لبنان
ودار هورست أردمن في هرن ألب ، ألمانيا
وفي مدينة بال في سويسرا

اختار هذه المجموعة من القصص السيدة سيغريد كاله
بالاشتراك مع فؤاد رفقة
وذلك من كتاب
« قصص ألمانية خلال العشرين سنة الأخيرة » ،
الذي أشرف على صدوره فولفجانج لنكنبوخر .

أما الترجمة من الألمانية إلى العربية
فقد قام بها كلّ من مصطفى ماهر ،
وفؤاد رفقة ، ومجدي يوسف .

١٩٦٦

من مقالة

هل الأدب الألماني المعاصر أدب ملتزم ؟

بقلم سيغريد كاله

في عام ١٩٤٥ لم تكن ألمانيا وحدها قد تحوّلت إلى أنقاض ، وإنّما كذلك اللغة الألمانيّة . فكلمات كـ « الشعب » والفضاء الحيوي ، والوطن ، والدم ، والشرف ، والتربية ، والواجب ، والعناية الإلهيّة ، والتضحية ، والنظام » لاقت من ضروب التشويه في العهد النازي ما يدفع الألماني المعاصر إلى التردّد قبل أن يتفوّه بها . أمّا « الأدب الألماني » فلم يعُد له من وجود . إذ ما إن اعتلى هتلر سلطان الحكم في عام ١٩٣٣ حتّى هاجر القسم الأعظم من الأدباء الألمان ، الذين كان من بينهم عمالقة مشاهير ، مثل : توماس مان ، وبرتولد برشت ، وألفريد دوبلين ، وروبرت موزيل ، وستيفان تسفايج ،

وإرنست توللر ، وكورت توخولسكي ، وهاينريش مان ، وليون فويشتفانجر ، وفرانتس فرفل ، إلى خارج ألمانيا . ولم يستطع معظم هؤلاء أن يتابع اشتغاله بالأدب في الخارج . وبعضهم آثر الانتحار . أمّا الذين واصلوا العيش منهم فلاذوا بالشعر يتغنّون فيه بالطبيعة والوطن ، على غير التزام ، أو عثروا على مخرج هروبي في كتابة الرواية التاريخيّة ، أو في الصمت المطبق . وأحياناً كان يسقط بعضهم في قبضة النازي فلا يتركهم إلاّ أمواتاً . وكم من غيرهم ماشى التيار ، وتصنّع العمى بينما كان أصحاب السلطان يحرقون على الملإ صفوة ما قدم الأدب الألماني من أعمال ، ويفرضون أدباً جديداً يحمل شارة « الدم والأرض » ، أدباً لا يُقرأ اليوم في ألمانيا ولا يُطبع . وفي عام ١٩٤٥ كان الأدب الألماني قد هبط إلى قرار الصفر . أو هكذا ارتآه أولئك الذين أرادوا آنذاك أن يبدأوا الكتابة من جديد – في ألمانيا . وفي تلك السنة (١٩٤٥) ظهرت قصيدة للشاعر « جونتر آيش » Günter Eich ، كثيراً ما تُردّد اليوم كنموذج للواقع المعوز ، الذي حاول البعض أن يبدأ الكتابة فيه . وعنوان هذه القصيدة :

جَرْدٌ **Inventur**

هذي قلنسوتي

وهذا معطفي . . .

وأدوات حلاقتي
في كيس من كتّان .
وعلبة أطعمة محفوظة :
هي طبقي ، وهي كوبي
وعلى صفيحها الأبيض
جعلت اسمي محفوراً . . .

« لم يكن هدف أولئك الذين بدأوا الكتابة (آنذاك) أن يصبحوا أدباء . وإنّما كانوا يكتبون لأنّه لم يكن لهم سوى ذلك من منفذ . كانوا يكتبون عن هزّة عنيفة وغضب متفجّر . كانوا يكتبون لأن تجارب الحرب الأليمة فرضت عليهم درسها . كانوا يكتبون ليحذروا . . . » دون هذه الكلمات « فولف ديتريش شنوره » Wolfdietrich Schnurre الذي قدم بقصته التي ألّفها عام ١٩٤٧ تحت عنوان : « كان يجب أن نقاوم » عملاً كلاسيكيّاً من أعمال ما يدعى بأدب الحرب والأنقاض . كانت شعارات تلك الفترة : « أبداً لا حرب بعد الآن » ، « وإلاّ فبدوني » . إلاّ أن واقع السياسة أراد غير ما أرادوا : فحالاً « أنشئت » قوات الدفاع (في جمهوريّة ألمانيا الاتحاديّة) وجيش الشعب (في جمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة) ، وحالاً راحت الحرب الباردة توسع الشقة ما بين شطري ألمانيا . وسرعان ما حلّ الرخاء وساد النسيان .

إن كاتباً كـ « فولفجانج بورشرت »[١] لم يكن بحاجة إلى أن يختبر هذا التطوّر ، فقد مات بعد الحرب بعامين فقط ، متأثراً بما لاقاه في عهد الجستابو من تعذيب . أما « هاينريش بُلْ »[٢] فقدّر له أن يرى كلّ هذا الذي صار من جديد ، وإن لم يستطع أن يتغلّب في أعماق نفسه على مرارة الواقع ، رغم ما أصابه شخصيّاً من شهرة واسعة . واليوم أمسى — بُلْ — جندي الحرب الماضية الذي صوّر تفاهتها وتفاهة كلّ حرب في قصصه : « كان القطار في موعده » (١٩٤٩) و « أين كنت يا آدم ؟ » (١٩٥١) ناقداً لاذعاً لمجتمع ألمانيا الغربيّة . وهو يوجه من خلال روايتيه : « مجاميع صمت الدكتور مرقص » (١٩٥٨) و « آراء مهرج » (١٩٦٣) أشد النقد إلى مواطنيه الذين سرعان ما تنكروا للمبادىء التي قطعوها على أنفسهم في أعقاب الحرب الأخيرة .

لسنا نبدأ هنا على سبيل المصادفة بـ « هاينريش بل » و « فولفجانج بورشرت » فقد كانا بمثابة نقطة انطلاق في

---

١ ترجم له مترجم هذا المقال معظم أعماله إلى العربية ، منها مسرحية « أمام الباب » التي صدرت عن دار نشر مكتبة الحياة (بيروت) ، ومجموعة من القصص والأشعار أذيع بعضها من البرنامج الثاني بالقاهرة ونشر البعض الآخر ضمن دراسات صدرت في مختلف الصحف العربية (راجع أيضاً : تجربة الحرب في أدب بورشرت بعدد ٣ من فكر وفن) .

٢ اقرأ له قصة : « وجهي الحزين » في عدد ٢ من فكر وفن .

الأدب الألماني المعاصر . وفي ذلك يقول الأديب « شنوره » : « حقّاً تغيّرت ألمانيا ، ولكن ليس على النحو الذي ابتغاه لها أدب هذين الرائدين . تغيّرت وكأن هذا الأدب أبداً لم يوجد . . . » ولا يعني « شنوره » بذلك أن يدلل على عدم جدوى الأدب الملتزم ، وإنّما هو يريد أن يثبت العكس : أن يقول إنّه ربّما كان من المجدي حقّاً لو التزم أدب بلاده بين الفينة والأخرى بموقف انطلاقه بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧ .

لم تكن ألمانيا بعد الحرب بحاجة إلى هذا السؤال : هل على الأديب أن يلتزم ؟ . . فقد كانت الإجابة في وضوح الشمس . . . أولم يسهم الأدب الألماني التقليدي بتجريده وفلسفته وبعده عن الواقع الاجتماعي ، بل ابتعاد المثقّفين الألمان عن السياسة ، في تيسير الغفلة التي صعد هتلر من خلالها إلى الحكم ؟ — كان هذا رأي الكاتبين : « هانس — فرنر ريشتر » و « ألفريد آندرش » عندما قاما بتأسيس مجلّة ألمانيّة ذات اتجاه أدبي ملتزم في معسكر اعتقال أمريكي . كان عنوانها : « النداء » ، وبرنامجها السياسي أوضح من نزعتها الأدبيّة . فقد نادت بالوحدة الأوروبيّة ، وناهضت الستالينية ، والتزمت بروح اشتراكيّة ديمقراطيّة ، واستبعدت بل رفضت أن يكون وقوع الحرب ذنباً ألمانيّاً جماعيّاً . ولم تلبث « النداء »

أن احتجبت بعد أن امتدّ نقدها إلى قوات الاحتلال . . . ومع ذلك لم يتفرّق محرّروها وإنّما عادوا ليلتقوا ثانية في عام ١٩٤٧ ، ويقرأوا على بعضهم ما ألّفوا من أعمال أدبيّة ، ثمّ يتناولوها بالنقد والتقييم . من هنا ولدت « جماعة ٤٧ » . وتتابع لقاء أفرادها مرّة في كلّ عام . كما انضمّ إليها في كلّ مرّة أعضاء جدد ، وظهرت فيها اتجاهات جديدة في التكنيك الأدبي . ولم يمضِ عليها عشرة أعوام حتّى كانت أضواء الشهرة قد بلغتها . وهي في خيال حسادها ومعارضيها تجسم أبعاداً أسطوريّة ، وكأنّها « هيدرا » التي تحتكر سوق الأدب وتضع أشكاله في ألمانيا . أمّا هي فليست في الواقع سوى جماعة من الأصدقاء ، يتجدّد لقاؤهم مرّة كلّ عام بدعوة من « هانس — فرنر ريشتر » إلى ندوة أدبيّة . وفي هذه الندوة يقرأ أحد أدبائها مقطوعة له لم تُنشر بعد . ثمّ ينتقدها الحاضرون جميعاً بينما لا يملك هو أن يدافع عن نفسه . فقط عليه أن ينصت . ومن اجتاز هذا الامتحان حاز على اعتراف أدب العصر به . وقد انضمّ خلال الأعوام الأخيرة نقاد ألمان كبار إلى هذه الجماعة ، نذكر من بينهم الأستاذين الجامعيين « هانس ماير » Hans Mayer و « فالتر ينز » Walter Jens . غير أنّه عادة لا تقلّ سرعة البديهة وعمق النظرة الناقدة عند أعضاء الجماعة ، من الأدباء غير المشتغلين أصلاً بالنقد ، عن تحليل وتشخيص

هذين الأستاذين . ولا شكّ أن هذا التنوّع في « جماعة ٤٧ » يحافظ على حيويتها ويقيها الاندفاع في اتجاه واحد أو الجمود في قالب معين . والمناقشات التي تجري فيها لا تدور لمجرد النقاش ، كما أنها لا تصدر أحكاماً عامّة ولا تمثل وجهة نظر واحدة ، بل إن آراءها متباينة بقدر تباين أعضائها .

إن هذه الجماعة — على حد قول رائدها « ريشتر » — ليست إلاّ بديلاً لمقاهي برلين الأدبيّة ، للحياة الفكريّة في عاصمة لم يعد لها — بهذا المعنى — وجود في ألمانيا . إن الأدباء الألمان يعيشون اليوم متفرّقين في أنحاء أوروبا كافة ، والحياة الثقافيّة في العالم الناطق بالألمانيّة لم تعد مركزة في مكان بالذات . أين يمكن أن يتمّ اللقاء إذن ؟

وتقدم « جماعة ٤٧ » جائزة يُنظر إليها بعين الإكبار ، وهي التي شهرت من بين من شهرت « هاينريش بل » ، و « جونتر جراس » ، و « انجبورج باخمان » . ولئن كان الأدب الألماني المعاصر قد بدأ يستحوذ من جديد على اهتمام القارىء العالمي ، حتى قيل إنّه « أهم أدب أوروبي » — أهم على الأقل من الأدبين الفرنسي والإنجليزي — في الوقت الحاضر ، فإن ذلك يرجع فيما يرجع إلى ما لـ « جماعة ٤٧ » من تكامل أخلاقي وسياسي . وفي ذلك يقول الأستاذ الدكتور « فالتر ينز » : « ليس في مقدور أحد سبق له أن سار — ككاتب — في

ركاب هتلر أو ستالين ، أو كان رقيباً على الأدب في حلّة حمراء أو سوداء أو بنّيّة[1] ، أن ينتمي إلى هذه الجماعة . وإنّه من الواضح أن السمة الوحيدة التي يشترك اليوم فيها جميع أفراد « جماعة ٤٧ » هي مناهضة كلّ إساءة لاستعمال الحقوق والواجبات الديمقراطيّة . » وقد أسهم هذا الاتجاه بالذات في جلب اهتمام واحترام العالم — شرقاً وغرباً — للأدب الألماني بعد الحرب ، وعلى رأسه « جماعة ٤٧ » .

ما هي المصادر التي كان يتعين على الرعيل الجديد من أدباء ما بعد الحرب في ألمانيا أن يستقي منها توجيهه الأدبي ؟ إن مجرّد الالتزام ليس كافياً . أمّا الاتصال بحركة الأدب الألماني التي سمّيت بـ « العصريّة » أثناء العشرينيات فلم يكن في أول الأمر متيسراً لا سيما وأنّه لم يوجد من بين أدباء تلك الحركة من كان في استطاعته أن يقيم هذه الصلة . ولكن الأدب لا ينشأ في فراغ ! والرايخ الثالث كان يمثل ريفاً فكريّاً مغلقاً على ذاته ، لا يسمح للآداب الأوروبيّة والأمريكية الكبرى أن تنفذ إليه . والآن أصبح في الإمكان التعرّف على هذه « المحرمات » ولم تلبث دار نشر « روفولت » — الألمانية — التي حصلت عام ١٩٤٦ على إجازة العمل من قوات الاحتلال ،

---

١ يرمز اللون الأحمر إلى الشيوعية والأسود إلى الكاثوليكية والكنيسة بوجه عام والبنّي إلى الزي النازي .

أن راحت تطبع كتباً رخيصة على ورق متواضع بحجم صفحات الجرائد . وبدأت بنشر التراجم .

ولعلّ الترجمات من أهم المساهمات التي يمكن أن تقدم في ميدان الأدب حتى يظلّ على صلة دائمة بالتيارات الفكريّة الكبرى في العالم ، وحتى يتقي شر التقوقع والانغلاق على ذاته . وما يصدق هنا على ألمانيا يصدق على سواها من الأقطار — كان أدباء الرعيل الجديد من الألمان على وعي تام بهذه الحقيقة ، فراحوا يسهمون على مرّ الأعوام لتعويض ما فات عليهم وعلى جيلهم في هذا المضمار ، خلال الاثنتي عشرة سنة للحكم النازي . وكم كانت متعة القارىء الألماني بعد الحرب وهو يطالع « همنجواي » أو « كامي » ! وقد قرأ « هاينريش بل » أعمال الكتّاب الأمريكيّين ، ونلحظ من تصفح أعماله أنّه يدين بالكثير لـ « فوكنر » و « سالينجر » . وتعاون كذلك مع زوجه « أنيماري بل » على ترجمة الكثير من الأعمال الأدبيّة الأمريكيّة والإيرلنديّة إلى الألمانيّة — مساهمة لها أهميتها في إثراء الأدب الألماني ! — وإذا ما طالعنا « فولفجانج كويبن » Wolfgang Koeppen في روايته الفنيّة التي تدور أحداثها في ميونيخ أثناء احتلال الأمريكيّين لها : « حمام بين الحشائش » (١٩٥١) تبيّنّا بوضوح أثر « دون باسوس » Don Passos و « فوكنر » عليه . وكذا تأثّر غيره من رعيل أدب ما بعد

الحرب في ألمانيا بالواقعيّة الجديدة الإيطاليّة ، وإن ظلّ همنجواي عظيم التأثير على الكثير من تلك البراعم الأدبيّة في الخمسينيات . كانت القصة القصيرة والطويلة تمثل آنذاك الصيغة المفضلة في الأدب الألماني . ولكن شكلاً جديداً ، له إمكانياته الفنيّة ، دخل الميدان : التمثيليّة الإذاعيّة . ويؤرخ لمولد هذا الشكل الجديد في ألمانيا بإذاعة تمثيليّة « أحلام » (١٩٥١) للأديب « جونتر آيش » Günter Eich . هذا ، بالرغم من أنّه كان قد سبق أن أذيعت مسرحيّة « أمام الباب » — عام ١٩٤٧ — لفولفجانج بورشرت غير أنّها كانت العمل الأخير لهذا الشاعر الذي ودّع الحياة في السادسة والعشرين . أمّا « جونتر آيش » فتمكن من أن يكسب مقوّمات جديدة للتمثيليّة الإذاعيّة الألمانيّة في الخمسينيات . وعلى خشبة « مسرح اللامكان » — مسرح التمثيليّة الإذاعيّة — عثرت كلّ من « إلزه آيشنجر » Ilse Aichinger و « انجبورج باخمان » Ingeborg Bachmann على وسائط موهبتهما الشعريّة .

وحوالي عام ١٩٥٠ عادت إلى ألمانيا من المنفى دار نشر « فيشر » Fischer Verlag ، فكان أوّل عمل بدأت بإصداره هو : « القضيّة » لفرانتس كافكا (١٩٥١) . وفي نفس الوقت كتب أديب شاب — لم يلبث أن ذاعت شهرته — رسالة لنيل الدكتوراه في الأدب عن كافكا . أمّا اسم هذا

الأديب الشاب « مارتن فالزر » Martin Walser . وكلّ من هذين الحادثين خطير الأهميّة بالنسبة لتطوّر الأدب الألماني المعاصر . فالأمر إذن يتعلّق هنا بكاتب من براغ ، لغته الأم هي الألمانيّة ، أمّا هو فبدا وكأنّه أحسّ منذ مطلع هذا القرن بأهم تجارب ما بعد الحرب الأخيرة : بالقلق والضياع . وهو مؤلّف كلاسيكي وعصري لأقصى حدّ في نفس الوقت . ولم يكن قد سمع أحد عنه في ألمانيا طيلة الحكم النازي . إنّه فرانتس كافكا ، الذي أصبح نبيّاً للأدب الألماني الحديث ، مثلما يلعب اليوم نفس الدور بالنسبة للأدباء الشبّان في الاتحاد السوفيتي . والآن بدأ هذا الأدب الجديد في تفجير حدود الواقعيّة . وكان قد بدأ بالفعل بعض الكتّاب الشبان في تجديد الصيغة الأدبيّة . ومن ذلك أن تناول « أرنو شميت » Arno Schmidt في كتابه « التنين » (١٩٤٩) مأساة الحرب بالوصف على نحو شبيه بأسلوب « جويس » J. Joyce ، بينما لم يأبه إطلاقاً بأن يفهمه قراؤه أو لا يفهموه . و « شميت » ضد الالتزام على طول الخط ، يحتقر البشر ويتمنى لو استطاع أن يرى ظهر البسيطة دون إنسان واحد .

حدث أمر شبيه في الشعر في نفس الوقت . فقد بدأ يظهر على البساطة الجديدة ، التي قدمها لنا « جونتر آيش » وسرعان ما راح يعمقها ، لون شعري جديد غير ملتزم يدعى

« شعر الفرّاش » (هانس ماجنوس إنتسنسبرجر) يضج بالألم العميق الضائع في عالم ما بعد الحرب . ثمّ ظهر ديوان شعري في عام ١٩٤٨ كان له أثره البالغ في تطوير القصيدة الألمانيّة ، مثلما أحدث كافكا ثورة في النثر الحديث . كان ديوان « جوتفريد بن » Gottfried Benn : « قصائد ستاتيكيّة » . لقد أيّد هذا الشاعر هتلر في عام ١٩٣٣ واضطرّ أن يدفع ثمن فعلته في عام ١٩٣٥ . وبعد الحرب لم يكن في نظر الشعراء الألمان سوى خائن . أمّا وقد ظهر له هذا الديوان الجديد ذو القيمة الشعريّة الرفيعة ، فقد أدّى ذلك إلى أن غفر له ماضيه . ليس إذن « بشعر الفراش » ، وإنّما — على حد قول « إنتسنسبرجر » — « بآخر كبار ممثلي اليمين الألماني » كانت بداية عثور الشعر الألماني على نفسه ، وجسارته على معالجة اللغة واستخدام الاستعارات . وفي عام ١٩٥٢ قرأ شاعر وشاعرة بعض قصائدهما في ندوة « جماعة ٤٧ » . هو : باول تسيلان Paul Celan وهي : أنجبورج باخمان Ingeborg Bachmann . وكلاهما يمتاز شعره بالجدة والكثافة واللغة التصويريّة الجريئة . وفي العام التالي ظهر لتسيلان ديوانه الأوّل : « خشخاش وذاكرة » ، الذي مهد لحقبة جديدة في الشعر الألماني المعاصر . أمّا « باخمان » فلم يكن ديوانها الشهير الذي أصدرته عام ١٩٥٣ تحت عنوان : « زمن

ممهول » سوى بداية إنتاج أدبي غزير . وهي عندما تصوغ عباراتها الشعريّة لا يكاد أن يصدق أحد « أن النظم يحدث خارج الموقف التاريخي » . فهي إذن شاعرة ملتزمة من جيل ما بعد الحرب . ومن جيلها أيضاً « إلزه آيشنجر » ، التي حصلت هذا العام على جائزة « جماعة ٤٧ » .

وهنالك شعار جديد ينادي بالنثر العلمي ، الذي يمثله الكاتب « ألكساندر كلوجه » مؤلف رواية عن ستالنجراد تحت عنوان : « وصف مجزرة » . والأديب هنا لا يروي ولا يعلق على شيء وإنّما يقدّم مجرّد تحقيقات ، وسجلات ، وكشوفات ، وتطوّر الأحداث كلّ يوم . ولعلّه كان في الإمكان أن يؤلّف هذه الرواية نازي أو شيوعي أو مراقب محايد . فالكاتب نفسه لا يعبر عن رأيه . وفي هذا اللون الجديد من الأدب تكمن خطورة التفسير — من جانب القارىء — على أكثر من محمل . وينتمي اليوم عدد كبير من الكتّاب الذين ولدوا في الثلاثينيات والأربعينيات إلى هذه المدرسة : مدرسة الأدب الموضوعي الذي يطرح الأسئلة ولا يجيب عليها . وبذا يتحوّل العمل الأدبي إلى بحث علمي . ومن بين كتّاب هذه المدرسة نجد « بيتر بيخسيل » Peter Bichsel السويسري الأصل ، حيث حصل في عام ١٩٦٤ على جائزة « جماعة ٤٧ » لقاء رواياته المختصرة ، التي تركز مضمون قصة

طويلة فيما لا يزيد عن خمسين سطراً . وقد تعلم كتّاب النثر هذا الاختصار الشكلي على شاعر هو « هلموت هايسنبوتل » Helmut Heissenbüttel ، باحث اللغة وعالم النحو بين الشعراء . الذي تمكن أن يطلق على قصائده المركزة « علم لغة ملتزم » أو « أكروباتيات لغويّة » .

هل انعدم الأمل إذن من أن تمضي آخر مراحل الأدب الألماني في اتجاه اجتماعي ؟ (بالمعنى الذي يذهب إليه جيل ما بعد الحرب) . إن الحائز على جائزة « هرمان هسه » هذا العام — هربرت فشته — يفسح فرصة للأمل في هذا المضمار . وهو يعبر عن « رقة جديدة » جديرة بالاهتمام . إلاّ أن الكاتب الوحيد في ألمانيا الغربيّة الذي يعنى بصورة جديّة بالصناعة والعمال الصناعيّين هو « ماكس فون دير جرون » ، الذي كان يعمل من قبل عاملاً بأحد المناجم في منطقة الرور . وتدلّ عناوين قصصه على الموضوع الذي يتمركز حوله أدبه : « مجلس إدارة المصنع » و « الخطأ والنار » الخ . وهو في القصة الأخيرة يعرض عاملاً يدويّاً ذا اختصاص شامل ، يحسّ بعد غلق المنجم الذي يعمل فيه بمرارة الهبوط فجأة إلى عامل بسيط . وينتقل عن طريق منطقة لتعبئة الحديد إلى ميدان اقتصاديات البناء ، ولكنه هنا أيضاً لا يعثر على الوضع الذي يبحث عنه . ثمّ نراه مرتدياً معطفاً أبيض في مصنع

كهربائي أوتوماتيكي . وهنا يصف « فون دير جرون » عدم الإقبال بصفة عامّة على الأعمال الأوتوماتيكيّة ، التي تمضي بواسطة « السير » المتحرّك . وكيف ينمو الظن وعدم الطمأنينة في نفس العامل تجاه رؤسائه الحريصين على تحقيق الإنتاج في المواعيد المطلوبة ، وعدم رضاه عن أعضاء مجلس إدارة المصنع لتحولهم إلى بيروقراطيّين لا يعرفون غير طأطأة الرأس علامة الإيجاب ، وقبل هذا وذاك سخطه على ما يميز المجتمع الصناعي العصري من تكالب على جنى الربح والراحة . ــ إن هذا المجال لا يُطرق في العادة إلاّ من أدباء ألمانيا الشرقيّة . . .

ويشير « فالترينز » إلى أن شخصيات الروايات التي تصدر في ألمانيا الغربيّة تبدو وكأنّها في حالة انتهاء من العمل بصفة مستمرّة . إذ لا يقابلها المرء أبداً أثناء تأدية واجبها ، فهي دائماً في وضع استثنائي . وعلى النقيض من ذلك نجد الناس في أدب الاشتراكيّة الواقعيّة بألمانيا الشرقيّة . فهم دائماً يعملون ، بينما لا يحسّون بالوحدة أو الشقاء ، ولا تساورهم أفكار السوء . وإنّما هم يعملون ويكدحون ، يعملون ويكدحون ، ومن وقت لآخر يمارسون الحبّ ، ويسلكون بصورة صحيحة أو خاطئة ــ حسب قواعد الأخلاق المعترف بها ــ ولكنهم نادراً ما يتصرّفون تلقائيّاً أو بعشوائيّة ــ ولعلّه لم يوجد أي فارق كبير بعد الحرب بفترة قصيرة بين الأدباء

الشيوعيّين والغربيّين الألمان ، إلاّ أنّه كلّما ابتعد شقّا ألمانيا بالقوّة عن بعضهما ، ابتعدت آدابهما . ففي ألمانيا الشرقيّة يكاد ألاّ يوجد سوى الأدب العمالي ، وفي ألمانيا الغربيّة تكاد ألاّ تعثر على هذا النوع من الأدب . ولعلّ النثر في ألمانيا الشرقيّة يبعث على الملل إلاّ في حالات استثنائيّة ، نظراً لخضوع الكاتب هناك لاتحاد الأدباء الذي لا يترك له مجالاً كافياً من الحريّة في التأليف . أمّا أولئك الذين يستطيعون دائماً أن يفلتوا من الرقابة فهم الشعراء . ومن هنا كانت ألمانيا الشرقيّة تزخر بشعراء مجيدين من أمثال « بيتر هوخل » Peter Huchel و «يوهانس بوبروفسكي » Johannes Bobrowski و « فولف بيرمان » Wolf Biermann . وقد تردّد أن نوعاً آخر من عدم الحريّة يتهدّد الأديب في ألمانيا الغربيّة : فهو يُعتبر جزءاً من السوق التجاريّة الضخمة للأدب ، التي تبلغ ذروتها كلّ عام – على مستوى دولي – في معرض الكتاب بفرانكفورت . فالناشر يتعجّل المؤلّف ، ويتطلّب منه أن ينتهي من وضع نصوصه « حتى الخريف » . ويقع الكاتب تحت الضغط الاقتصادي ، وربّما صار يتخذ من الكتابة مهنة للعيش بطريقة أو أخرى .

لئن كان الجيل الأخير من الأدباء الألمان الغربيّين لا يكلف بالأدب ولا يُقبل على الالتزام ، فقد عادت الرواية لتنقلب

إلى النقيض . ففي عام ١٩٤٧ عاد برتولد برشت من المنفى إلى سويسرا . وهناك تتلمذ له في المسرح « ماكس فريش » Max Frisch و « فريدريش دورنمات » Friedrich Dürrenmatt.

وفي عام ١٩٤٨ مضى برشت إلى برلين الشرقيّة حيث أسّس فيها فرقته الشهيرة ، وجذب إليه عدداً كبيراً من المعجبين بفنّه والمتتلمذين على يديه . ومن أهم تلامذته هناك بيتر هاكس Peter Hacks الذي ألّف مقطوعة ساخرة سلميّة حول الجيش البروسي ، عنوانها : « معركة لوبوزيتس » ، وذلك في عام ١٩٥٦ حين كان الأدباء في ألمانيا الغربيّة قد كفّوا عن كتابة المقطوعات السلميّة .

يقول ناقد ألماني — هو « يواخيم كايزر » — إن أفضل مسرحيّة عن ماضي ألمانيا لم تُكتب بقلم ألماني ، وإنّما بريشة فرنسي ، وهي رواية : « مساجين آلتونا » لسارتر . وقد ألّف « مارتن فالزر » مسرحيتيه : « شجر بلوط وأرانب من أنقرة » و « الإوز الأسود » حول قضايا هامّة تتعلّق بعصر هتلر . إلاّ أنّه اختار صيغة فنيّة تجعل المشاهد يقول في نفسه : « إن كلّ ما في الرواية من اختلاق المؤلّف . فما من كلمة فيها تنطبق على الواقع ! » وفي اتجاه أقرب إلى التحقيق الصحفي تجاسر « رولف هوخهوت » Rolf Hochhut على اتّهام البابا والفاتيكان بالتحالف مع هتلر ، والإسهام بذلك

في تمادي الظلم الذي أوقعه النظام النازي على ضحاياه . وعنوان هذه المسرحيّة التي لاقت في ألمانيا أكبر نجاح على خشبة المسرح منذ الحرب الأخيرة : « النائب » . وقد ظلّت هذه الرواية لفترة طويلة موضوعاً للنقاش ، وتعرض صاحبها للإقبال والإعراض معاً في معظم البقاع الناطقة بالألمانيّة .

وفي عام ١٩٦٣ ظهرت على المسارح الألمانيّة رواية لكاتب معاصر نابه هو « بيتر فايس » Peter Weiss فأحدثت دويّاً هائلاً . وعنوان هذه المسرحيّة « مارات / ساد » حيث تدور أحداثها في الثورة الفرنسيّة ويقوم الصراع بين ممثل الفردية المتطرفة « دي ساد » وممثل الثورة « مارات » بأسلوب تغريبي رائع . وقد ظهر بعد ذلك لـ « فايس » عدد آخر من المسرحيات ، مثل « الاستقصاء » التي تدور حول محاكمات « آوشفيتس » . ولعلّ هذه المسرحيّة قد أسهمت في تعريف الجيل الأخير من الشباب الألماني بقطعة من تاريخ الوحشيّة في العصر النازي .

هل الأدب الألماني المعاصر أدب ملتزم ؟

نعم هو ملتزم في معظمه ، ولكن التزامه مرتبط بالحقيقة الإنسانيّة وحدها . وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على « هاينريش بُل »، و « آندرش »، و « شنوره »، و « ريشتر »، و « آيش » و « هلدسهايمر » . والتزام هؤلاء الكتّاب المحدثين غير متصل

بعقيدة معيّنة أو حزب بالذات ، وإنّما هم يرفعون مشاعل أقلامهم ليحذروا ويهيبوا بالضمائر والقلوب أن تتفتّح وتستيقظ ، بينما يرفضون أن يُنظر إليهم من خلال مذهب أو اتجاه عقائدي معيّن .

ـ وقد سبق أن قال « شنوره » : « إن أهمّ شيء بالنسبة للألماني ليس هو شعوره بالذنب والخطيئة (من جراء خوضه الحرب الأخيرة) ، وإنّما ما يصنع من هذا الشعور » . ونحن نستطيع أن نحور هذه الجملة الأخيرة فنقول بدورنا : إن أهمّ أمر بالنسبة للألماني ليس هو الالتزام ، وإنّما الالتزام ــ بأي شيء ؟ أمّا الأدباء الشبان فربّما صاغوا عبارتنا المحورة لنص « شنوره » صياغة جديدة : « إن أهم ما يشغل الألماني هو عدم الالتزام » . ذلك أن أولئك العائدين من الحرب الأخيرة ، من جنود وكتّاب ، يقصرون الآن التزامهم على أمر واحد ، يعلمون أنّهم به لا يحيدون عن وجه الحقّ : يلتزمون بالنزعة الإنسانيّة الخالصة .

ترجمة : مجدي يوسف

عندما انتهت الحرب

بقلم هاينريش بل

كان النهار قد بدأ يطلع عندما بلغنا الحدود الألمانيّة : كان هناك إلى اليسار نهر واسع ، وإلى اليمين غابة يستطيع الناظر إلى أطرافها أن يقدر مدى عمقها . وساد الهدوء عربة القطار ، وسار القطار بطيئاً يتجاوز أرصفة أُعدت على عجل وبدت كالثوب المرتق ، ويتجاوز دوراً خرقتها الطلقات النارية . ويتجاوز أعمدة البرق المحطمة . وخلع الصغير القابع إلى جواري نظارته وراح ينظفها بعناية .

وهمس إليّ : « رباه ! هل لديك أدنى فكرة عن المكان الذي نحن فيه ؟ »

فقلت له : « نعم . هذا النهر الذي رأيته لتوّك ، يسمى عندنا نهر « الراين » ، وهذه الغابة التي تراها عن يمينك اسمها « رايشستالد » — وهذه هي مدينة « كليفه » . »

« هل أنت من هنا ؟ »

« لا » . كان ثقيل الظلّ ، ظل طوال الليل يحدّثني بصوته الرفيع حتى كدت أجن ، ويحكي لي أنّه قرأ سرّاً برشت وتوخولسكي وفالتر بنيامين وبروست وكارل كراوس ، وأنّه يريد أن يدرس علم الاجتماع وعلم اللاهوت أيضاً ، وأنّه يريد أن يسهم في منح ألمانيا نظاماً جديداً . فلمّا وصلنا عند الفجر إلى « نيمفيجن » ووقف القطار وقال بعضهم إن هذه هي الحدود الألمانيّة ، راح يسأل متردّداً هل هناك من يريد أن يعطيه خيطاً لقاء عقبين من أعقاب السجائر ، ولمّا لم يجبه أحد عرضت عليه أن أنتزع من باقي الرمز العسكري المثبت عليها والذي كما أظن كانوا يسمّونه « المرآة » وأن يحوله إلى خيط أخضر ؛ فخلعت الثوب ورحت أنظر إليه وهو يفصل منه هذه الأجزاء بعناية مستعملاً قطعة من الصفيح ، ثمّ وهو يكرّ خيطها . وبدأ فعلاً يخيط لنفسه بروازاً حول الجزء الممتد من الرقبة إلى الكتف علامة على رتبته العسكرية كضابط مبتدىء . فسألت هل يصح أن نرد اشتغاله بالحياكة على هذا النحو إلى تأثير برشت وتوخولسكي وبنيامين وكارل كراوس ، أم هل هو من تأثير خفي ليونجر ، دفعه إلى إعادة مركزه العسكري باستعمال سلاح دويمرلنج ؟ فاحمرّ خجلاً وقال إنّه انتهى من يونجر وإنّه صفّى معه

حسابه . فلمّا دخل القطار بنا كليفه قطع عمليّة الحياكة وقعد بجواري وفي يده سلاح دويمرلنج .

وقال : « لا يخطر ببالي شيء في كليفه . هل يخطر ببالك أنت شيء ؟ »

فأجبت : « نعم . لوهنجرين ، وماركة المارجرين « بجعة الرباط الأزرق » والأميرة أنّه فون كليف إحدى زوجات هاينريش الثامن » .

فقال : « أصبت . لوهنجرين . ولكنّا كنّا نأكل في البيت ماركة زانيللا من المارجرين . ألا تريد عقبي السجائر ؟ »

فأجبت : « لا . خذهما معك إلى أبيك . وأرجو أن يصفعك عندما تدخل البيت وعلى كتفك هذا الشريط » .

فقال : « أنت لا تفهم هذا الموضوع . بروسيا ، كلايست ، فرنكفورت على نهر الأودر ، الأمير فون هومبورج ، برلين » .

عندئذ قلت له : « هه ، ولكن كليفه كانت بروسية منذ وقت مبكر — وهناك في مكان ما من الناحية الأخرى من الراين مدينة صغيرة اسمها فيزل » .

فقال : « رباه ! هذا صحيح . طبعاً ، منها شيلي » .

ثمّ قلت له : « الحقيقة أن البروسيين لم يتجاوزوا نهر الراين أبداً تجاوزاً تامّاً . كلّ ما في الأمر أنّهم كانوا يمسكون

برأس جسور : بون وكوبلنتس » .

فقال : « بروسيا » .

وقلت : « بلومبرج . هل تريد خيطاً ؟ » فاحمرّ خجلاً وصمت .

* * *

سار القطار بطيئاً ، واندفع الجميع إلى باب العربة المفتوح ونظروا إلى كليفه . كان هناك حرّاس إنجليز في المحطة يتصفون باللين والصلابة ، بالاستهتار واليقظة في وقت واحد . أمّا نحن فكنّا لا نزال أسرى . وكانت هناك في الشارع لافتة كُتب عليها : إلى كولن . قلعة لوهنجرين فوق المرتفع بين الأشجار الخريفيّة ، أكتوبر في منطقة الراين السفلى ، سماء هولنديّة . بنات العم في كسانتن ، العمات في كيفيلير ، اللهجة ذات المدات . همسات المهربين في الحانات . مواكب مارتن ، أرغفة على هيئة الإنسان ، كرنفال بروبجل . وكان كلّ مكان يفوح برائحة فطائر البرنتن حتّى وإن لم يكن به فطائر البرنتن .

وقال الصغير بجواري : « بل افهم مقصدي » .

فقلت له : « دعني ولا تزعجني » . حقيقة أنّه لم يكن رجلاً ولكنه كان في طريقه ليصبح رجلاً عمّا قريب ، ولذلك كرهته . وقبع غاضباً يحوك الغرز الأخيرة في شريطه .

ولم أحسّ نحوه حتّى بمجرّد التعاطف : كان يدسّ بإبهامه الدامي بلا مهارة الإبرة في قماش سترته الزرقاء، سترته التابعة لسلاح الطيران ، وكان زجاج نظارته مغبشاً حتّى إنّني لم أستطع أن أتبيّن هل كان يبكي حقّاً أم هل بدا لي فقط كأنّه يبكي . كذلك كنت أوشك على البكاء : بعد ساعتين أو ثلاث ساعات على الأكثر كنّا سنصل إلى كولن ، إلى مكان غير بعيد من تلك التي تزوّجتها ولم يرن صوتها بنغمة الزواج قط .

وأقبلت امرأة فجأة من وراء مخازن البضاعة ، وقبل أن يتنبه الحراس ، كانت قد وصلت إلى عربتنا وأخرجت من طيات قماش أزرق كان معها شيئاً حسبته في أوّل الأمر طفلاً : أخرجت خبزاً . وقدمت الخبز إليّ فأخذته . كان ثقيلاً . وترنحت لحظة حتّى كدت أسقط من القطار المتأهب للسير . كان الرغيف أسمر اللون ، لا يزال ساخناً . وأردت أن أصيح « شكراً ! شكراً ! » ولكن الكلمة لاحت لي سخيفة. وكان القطار قد أسرع السير ، فبقيت راكعاً على ركبتي والرغيف الثقيل على ذراعي . ولست أعرف حتّى اليوم شيئاً عن هذه المرأة أكثر من أنّها كانت تحمل إيشارباً غامقاً وأنّها كانت متقدّمة في السن .

فلمّا نهضت والرغيف على ذراعي ، كان السكون قد

زاد في العربة عن ذي قبل . وكان الجميع ينظرون إلى الرغيف ، الذي زاد من فعل نظراتهم إليه ثقلاً . كنت أعرف هذه العيون وكنت أعرف الأفواه المتصلة بهذه العيون ، وكنت قد فكرت شهوراً في الحد الفاصل بين الكره والاحتقار فلم أعرفه . قسمت الناس حيناً إلى حائكين وغير حائكين عندما نقلنا من معسكر أمريكي (كان حمل الشارات العسكريّة فيه ممنوعاً) إلى معسكر إنجليزي (كان حمل الشارات العسكريّة فيه مباحاً) ، وكان هناك رباط تعاطف يربطني بغير الحائكين إلى أن تبينت أنّهم لم يكن لهم رتب حتّى يحوكوا شاراتها إلى أكتافهم . بل إن أحدهم وهو « أجلهشت » حاول أن يعقد محكمة شرفيّة أو ما يشبه ذلك لتجرّدني من صفتي كألماني (وكنت أتمنّى لو جردتني هذه المحكمة التي لم تنعقد قط ، من صفتي كألماني فعلاً) . أمّا الشيء الذي لم يعرفوه ، فهو أنّني لم أكن أكرههم ، سواء كانوا نازيّين أو غير نازيّين ، بسبب أعمال الحياكة أو بسبب الآراء السياسيّة ، وإنّما كنت أكرههم لأنّهم كانوا رجالاً من جنس أولئك الذين كان عليّ أن أعيش معهم ستّ سنوات . كانت كلمة رجل وكلمة غبي توشكان أن تعبرا في تقديري عن شيء واحد .

وارتفع صوت أجلهشت في الجهة الخلفية يقول : « أول

رغيف ألماني — ولا يناله » .

كان صوته قريباً من الانتحاب ، كذلك كنت أنا على وشك البكاء ، ولم يكن هؤلاء ليفهموا أني أوشك على البكاء لا من أجل الخبز فقط ، ولا لأنّنا تجاوزنا الحدود الألمانيّة فحسب ، وإنّما أوّلاً وقبل كلّ شيء آخر لأنّني أحسست لأوّل مرّة بعد ثمانية أشهر بيد امرأة تلمس ذراعي لحظة .

وقال أجلهشت بصوت خفيض : « يبدو أنّك ستجرد الخبز من صفته كألماني أيضاً » .

فقلت له : « نعم . سألجأ إلى حيلة فكريّة خاصة وأسأل نفسي ألا يصح أن يكون الدقيق الذي صُنع منه هذا الخبز هولندي أو إنجليزي أو أمريكاني الأصل ؟ » ثمّ قلت له : « تعالَ وقسّمه إن شئت » .

كنت أكره أغلبهم ، ولا أعبأ بأكثريتهم ، وبدأ دويمرلنج الذي كان آخر من انضمّ إلى جبهة الحائكين ، يبدو لي ثقيل الظلّ . ولكني رأيت من اللياقة أن أقتسم معه الرغيف وكنت موقناً من أنّه لم يكن لي وحدي .

وتقدّم أجلهشت ببطء إلى الأمام : كان طويل القامة ، نحيف الجسم في مثل طولي ونحافتي ، وكان في السادسة والعشرين مثلي . وقد ظلّ يحاول طوال أشهر ثلاثة أن يوضح لي أن الوطني ليس نازيّاً بالضرورة أو أن الكلمات : شرف ،

إخلاص ، وطن ، لياقة ، كلمات لن تفقد قيمتها أبداً — وكنت أرد على كلامه الكثير المسرف في الكثرة بخمس كلمات: فيلهلم الثاني ، بابن ، هندنبورج ، بلومبرج ، كايتل . وكان يغتاظ إلى درجة الجنون لأني لم أتكلّم عن هتلر ، حتى ولا في يوم أوّل مايو عندما سار الحارس في أرجاء المعسكر ينادي من خلال مكبّر للصوت : « لقد مات هتلر وانتهى » .

قلت له : « هيّا ، خذْ قسّمْ بيننا الخبز » .

فقال أجلهشت : « فلنعدّ الموجودين » . وأعطيته الرغيف، فأخرج معطفه وبسطه على أرضية العربة بحيث كانت البطانة إلى أعلى ، بينما جرى عدّ الحاضرين حولنا . قال دويمرلنج : « اثنان وثلاثون » ثمّ ظلّ ساكناً . وقال أجلهشت : « اثنان وثلاثون » ثمّ نظر إليّ لأقول « ثلاثة وثلاثون » ولكني لم أقل وأشحت بوجهي ونظرت إلى الخارج فرأيت الطريق الزراعي ذا الأشجار العتيقة : أشجار نابليون التي كنت أستريح أنا وأخي تحتها عندما كنا نذهب بالدراجة إلى الحدود الهولندية لنشتري شوكولاته وسجائر رخيصة .

وأحسست أن مَنْ خلفي قد غضبوا غضباً شديداً ، ورحت أنظر إلى اللافتات الصفراء المعلقة على الطريق : إلى « كالكار » ، إلى كسانتن ، إلى جلدرن ، وأسمع خلفي صوت سكين أجلهشت وأحسّ كيف يزداد الغضب ويكبر

كالسحابة الكثيفة . كانوا يغضبون لأي سبب ، كانوا يغضبون ويحسون بالإهانة إذا قدم إليهم حارس إنجليزي سيجارة ، وكانوا يغضبون إذا لم يقدم إليهم شيئاً ، كانوا يغضبون إذا شتمت هتلر ، وكان أجلهشت يغضب غضباً مميتاً إذا أنا لم أشتم هتلر ، أمّا دويمرلنج فكان قد قرأ سرّاً بنيامين وبرشت وبروست وتوخولسكي وكارل كراوس ، ومع ذلك عندما اقتربنا من الحدود الألمانيّة راح يخيط على كتفي سترته العلامة الدالة على تبعيته لسلاح الطيران . وأخرجت من جيبي سيجارة أخذتها لقاء شرائط رتبتي العسكرية ، واستدرت وجلست إلى جانب دويمرلنج ونظرت إلى أجلهشت وهو يقسم الخبز أوّلاً إلى نصفين ثمّ وهو يقسم كلّ نصف إلى أرباع والأرباع إلى أثمان . وهكذا تكون لكلّ واحد لقمة جميلة سمينة ، لقمة مكعبة سمراء ، قدرتُ وزنها بستين جراماً .

وكان أجلهشت منهمكاً في تقطيع الثُّمن الأخير إلى أربعة أجزاء ، وكان كلّ واحد ، كلّ واحد ، يعلم أن أولئك الذين يأخذون من الشرائح الوسطى ، ينالون على الأقل من عشرة إلى خمسة جرامات أكثر من غيرهم ، لأن الرغيف في الوسط أعرض منه في الطرفين ، وكان أجلهشت يقطع الشرائح متساوية في السمك ، ولكنه قطع الزيادة في شريحتي الوسط وقال : « ثلاثة وثلاثون ــ نبدأ بأصغرنا » . ونظر دويمرلنج

إليّ ، واحمرّ وجهه ، ثمّ انحنى وأخذ قطعة من الخبز دسها على الفور في فمه . سار كلّ شيء هادئاً حتى أتى دور بوفييه الذي كان لا يكف عن الحديث عن طائراته والذي أوشك أن يبلغ بي الجنون بحديثه ، فأخذ قطعته ، وبذلك جاء دوري ، وكان اجلهشت يليني . ولكني لم أتحرّك . كنت أودّ أن أشعل السيجارة ، ولم يكن معي ثقاب ، ولم يقدم لي أحد ثقاباً . كان أولئك الذين تناولوا خبزهم مشغولين بالمضغ مرعوبين ، وكان أولئك الذين لم يتناولوا خبزهم بعد لا يعرفون ما يجري ولكنهم كانوا يفهمون أنّني لم أشأ أن أقتسم الخبز معهم ، وكانوا غاضبين ، بينما كان الآخرون (الذين نالوا خبزهم) في حيرة من أمرهم . وحاولت أن أنظر إلى الخارج ، إلى أشجار نابليون ، إلى هذا الطريق ذي الثغرات ، الذي تظهر من خلال ثغراته السماء الهولندية ، ولكن محاولتي التظاهر بعدم الاشتراك مع الآخرين فشلت . كنت أخشى المشاجرة التي كان لا بدّ أن تنشب في تلك اللحظة ، فلم أكن مشاكساً يجيد الشجار ، وحتى لو كنت كذلك ، لما نفعني ذلك شيئاً ، ولضربوني ضرباً مبرحاً ، كما فعلوا بي في معسكر بروكسل عندما قلت إنّني أفضل أن أكون من موتى اليهود على أن أكون من أحياء الألمان . وتناولت السيجارة من فمي ، من ناحية لأني وجدتها مضحكة ، ومن ناحية ثانية لأني أردت

أن أصونها إذا نشب شجار . ونظرت إلى دويمرلنج الذي كان قاعداً بجانبي وقد احمرّ وجهه وبدا قرمزيّـاً . ثمّ تناول جوجلر الذي كان يلي اجلهشت في الدور قطعته من الخبز ودسّها على الفور في فمه ، وأخذ كلّ واحد قطعته . كانت هناك ثلاث قطع ، عندما أتى شخص إلى الأمام لم أكن أعرفه معرفة طيّبة ، لأن عهدي به يرجع إلى يوم أتى إلى خيمتنا في معسكر بروكسل . كان متقدّماً في السن يوشك أن يكون في الخمسين ، قصير القامة ، أسمر الوجه ، ذا ندبات ، وكان إذا بدأنا نتشاجر لا يقول شيئاً ، بل يخرج من الخيمة ويسير على طول سور الأسلاك الشائكة سير من يتقن هذا النوع من التجوال . لم أكن أعرف اسمه . كان يرتدي زيّـاً باهتاً خفيفاً وحذاء مدنيّـاً . أقبل هذا الرجل من مؤخرة العربة نحوي مباشرة ووقف أمامي وقال بصوت فيه رقّة مفاجئة : « خذ الخبز » ، فلمّا لم آخذه هزّ رأسه وقال : « إن لكم عبقريّة شيطانيّة في تحويل كلّ شيء إلى عمل رمزي . هذا خبز ، وليس شيئاً آخر سوى الخبز ، والمرأة التي أهدته إليك ، امرأة — تعال » . وتناول قطعة من الخبز ووضعها في يدي اليمنى التي هوت يائسة ثمّ أطبقها عليها بقوّة . كانت عيناه سمراوين ، ولم تكونا سوداوين ، وكان وجهه يدلّ على أنّه مرّ بسجون كثيرة . وأومأت برأسي وأعملت عضلات

يدي لأبقي على الخبز ، فانطلقت زفرة عميقة خلال العربة ، وأخذ اجلهشت قطعته ثمّ أخذ الرجل ذو الزي الباهت الخفيف قطعته وقال : « أعوذ بالله ! لقد أمضيت اثني عشر عاماً بعيداً عن ألمانيا ، وهأنذا أبدأ تدريجاً في أن أصير مثلكم أيّها المجانين » . وقبل أن أدسّ قطعة الخبز في فمي وقف القطار ونزلنا .

مكان خالٍ ، حقول بنجر ، لا أشجار . وأتى بعض الحرّاس البلجيكيّين يحملون إشارة الأسد الفلندري على القبعة والياقة يسيرون على طول القطار وينادون : « نزول ! الجميع ينزلون» .

وبقي دويمرلنج بجانبي ونظف نظارته ونظر إلى لافتة المحطة وقال : « فيتسه — هل يخطر ببالك هنا شيء ؟ »

فقلت : « نعم ، تقع شمالي كيفيلير وغربي كسانتن » .

فقال : « آه . كيفيلير ! هاينريش هاينه » .

ثمّ أضفت : « وكسانتن : زيجفريد ، إن كنت قد نسيته » .

وفكرت : العمة هيلينة . لِمَ لم نسافر إلى كولن ؟

لم يكن هناك شيء يُرى في فيتسه سوى بعض بقايا متناثرة من الطوب الأحمر بين فروع الأشجار العالية . كان للعمة هيلينة في فيتسه محلّ تجاري كبير ، متجر قروي بمعنى الكلمة ،

وكانت تعطينا كلّ يوم نقوداً حتّى نستأجر قارب نيرس ، أو نركب الدراجات إلى كيفيلير . أمّا أيّام الآحاد فكنّا نسمع العظة في الكنيسة ، وكانت تنصبّ عنيفة على رؤوس المهربين والزناة .

قال الحارس البلجيكي : « أسرع . تقدم . أم لعلّك لا تريد أن تعود إلى بيتك ؟ »

ودخلت المعسكر . كان علينا أوّلاً أن نمرّ على ضابط إنجليزي أعطانا ورقة من فئة العشرين ماركاً ووقّعنا بالاستلام . ثمّ كان علينا أن نذهب إلى الطبيب . كان الطبيب ألمانيّاً صغير السن ، وكان يضحك ساخراً . وانتظر حتّى تجمّع في الحجرة منّا اثنا عشر أو خمسة عشر شخصاً وقال : « من كان مريضاً لا يستطيع اليوم أن يسافر إلى بيته فليرفع يده » . فضحك جماعة منّا من هذه النكتة الطريفة الجنونيّة . ثمّ مررنا الواحد بعد الآخر على مكتبه وتلقينا خاتماً طبعه على بطاقة إطلاق سراحنا ثمّ خرجنا من الباب الآخر . وبقيت لحظات واقفاً بالباب المفتوح وسمعته يقول : « من كان منكم مريضاً » ، ثمّ سرت ، وسمعت الضحك عندما بلغت نهاية المدخل ، ووصلت إلى المرحلة الثانية : وهنا وقف جاويش إنجليزي في الساحة المكشوفة بجوار مرحاض مكشوف . قال الجاويش : « أروني البطاقة العسكريّة وما قد يكون معكم

من أوراق أخرى » . قال ذلك بالألمانيّة . وكان كلّما أروه بطاقتهم العسكريّة أشار إلى المرحاض وأمر بإلقائها فيه . وكان عند ذاك يقول بالألمانيّة أيضاً : « هيّا إلى المتعة ! » فيضحك الكثيرون منّا على هذه النكتة . والحق أنني تبيّنت أن الألمان بدوا كأنّما تكوّنت لديهم فجأة حاسة النكتة إذا كانت النكتة أجنبيّة ، حتى اجلهشت نفسه ضحك في المعسكر عندما قال لنا الضابط الأمريكي وهو يشير إلى الأسلاك الشائكة :

« لا تحزنوا يا أولاد ، فقد أصبحتم الآن أحراراً ! »

وسألني الجاويش الإنجليزي عن أوراقي . ولكن لم أكن أحفظ أوراقاً سوى ورقة إطلاق سراحي ، فقد بعت بطاقتي العسكريّة لأحد الأمريكان لقاء سيجارتين . فقلت : « ليس معي أوراق » . فأغاظ هذا الجاويش الإنجليزي ، كما اغتاظ الجاويش الأمريكي مني من قبل عندما رددت على سؤاله : « هل أنت من الشباب الهتلري أم من فرقة الصاعقة أم من الحزب ؟ » بقولي : « لا ! » حينذاك صرخ فيّ وهدّدني وتوعّدني ولعنني ولصق بجدّتي تهمة جنسيّة لم أفهمها بالضبط لعدم تمكني من اللهجة الأمريكيّة . هكذا كانوا يستشيطون غضباً عندما يصادفون شيئاً لا ينطبق على آرائهم المسبقة . احمرّ وجه الجاويش الإنجليزي من الغضب وهبّ واقفاً وبدأ يتحسّسني ، ولم يستمر بحثه طويلاً حتى وجد مفكرتي : كانت

سميكة مكوّنة من أوراق الأكياس ، وكنت قد جمعتها إلى بعضها بدبابيس من السلك ، وكتبت فيها كلّ ما صادفني من منتصف أبريل إلى آخر سبتمبر : من يوم أسرني الجاويش الأمريكي ستيفنسن ، إلى يوم مررنا بالقطار عبر انتفرين الحالكة وقرأت على حيطانها : يعيش الملك ! كانت مفكرتي تضمّ حوالي مائة ورقة من أوراق الأكياس ملأتها بالكتابة المكتظة ، فأخذها الجاويش الثائر وألقى بها في المرحاض المكشوف وقال : « ألم أطلب منك ما معك من أوراق ؟ » ثمّ سمح لي بالانصراف .

* * *

وقفنا محتشدين عند باب المعسكر ننتظر عربات النقل البلجيكيّة التي قيل لنا إنّها ستأتي لتنقلنا إلى بون . بون ؟ ولماذا بون دون غيرها ؟ وحكى أحدهم أن كولن مغلقة لأن الجثث لوّثتها تلويثاً وبائيّاً ، وحكى آخر أنّه سيحكم علينا بثلاثين أو أربعين سنة من العمل في حمل الأنقاض والأطلال ، وأضاف « إنّهم لن يعطونا عربات للنقل بل سيكون علينا أن نحمل الأنقاض والردم في سلال » . وكان من حسن حظّي أنّه لم يقف بجواري واحد ممّن كانوا معي في الخيمة أو في القطار ، وكانت الثرثرة الصادرة من أفواه لا أعرفها أقلّ إثارة لتقززي من ثرثرة تصدر من

أفواه أعرفها . وقال أحدهم وكان واقفاً أمامي في مكان ما : « لكنه أخذ الخبز من اليهودي » . وقال آخر : « هؤلاء أشخاص ستكون لهم الكلمة المسموعة » . ولكزني أحدهم من الخلف وسألني : « ما رأيك في مائة جرام من الخبز لقاء سيجارة ؟ » ووضع يده من الخلف أمام عيني فرأيت قطعة من الخبز الذي وزّعه اجلهشت في القطار . فهززت رأسي . وقال آخر : « البلجيكيون يبيعون سجائر ، الواحدة بعشرة ماركات » . ولاح لي هذا الثمن رخيصاً لأن الألمان في المعسكر كانوا يبيعون السيجارة بمائة مارك . « هل يريد أحدكم سجائر ؟ » فقلت : « نعم ! » ووضعت الورقة ذات العشرين ماركاً في يد مجهولة .

كان الجميع يتاجرون مع الجميع . كان الاتجار هو الشيء الوحيد الذي يهمهم ويجدّون فيه . كان الواحد يحصل على حلّة مدنيّة لقاء ألفين من الماركات وزي عسكري مستهدن ، وكان التبادل وتغيير الملابس يتمّ في مكان ما بين الجمع المحتشد ، وكنت أسمع فجأة من يصيح قائلاً : « بما في ذلك الملابس الداخليّة ، طبعاً . وكذلك ربطة العنق » . وباع أحدهم ساعته بثلاثة آلاف مارك . أمّا أهم بضاعة فكانت الصابون . كان لدى أولئك الذين نزلوا من معسكرات أمريكيّة صابون ، لأنّهم كانوا ينالون كلّ أسبوع قطعة ، ولم يكن لديهم ماء

ليغتسلوا ، أمّا أولئك الذين كانوا في معسكرات إنجليزيّة فلم يكن لديهم صابون على الإطلاق . وهكذا تحركت قطع الصابون الخضراء والحمراء هنا وهناك . وكان البعض قد اكتشفوا في أنفسهم طموحاً تصويريّاً فصنعوا ممّا كانوا يحصلون عليه من صابون أشكال كلاب صغيرة أو قطط صغيرة أو أقزام من التي تزين بها الحدائق ، وتبيّن الآن أن هذا الطموح التصويري هبط بقيمة البضاعة : كانت قطعة الصابون غير المصنوعة على هذا الشكل أغلى من المصنوعة هكذا ، ممّا أدّى إلى الخوف من أن تكون أقلّ وزناً .

وعادت اليد المجهولة التي دسست فيها الورقة ذات العشرين ماركاً إلى الظهور ودسّت في يدي اليسرى سيجارتين . وتأثّرت للأمانة التي أظهرتها (وبقيت متأثّراً إلى أن تبيّنت أن البلجيكيّين كانوا يبيعون السيجارة بخمسة ماركات . ويبدو أن نسبة المائة في المائة كربح كانت نسبة تُعتبر شريفة خاصة بين « الزملاء »). ووقفنا ما يقرب من ساعتين متلاصقين لا أذكر إلاّ الأيدي : تتناقل البضائع ، وتأخذ الصابون من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين ، ثمّ تأخذ النقود من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال . أحسست آنذاك كأني في عش الثعابين . أيدٍ من كلّ ناحية تتحرّك في كلّ ناحية ، وتمتد فوق كتفيّ وفوق رأسي حاملة البضائع والنقود

إلى كلّ اتجاه .

* * *

كان دويمرلنج قد نجح في الاقتراب مني . وقعد بجواري في عربة النقل البلجيكيّة التي اتجهت إلى كيفيلير واخترقت كيفيلير إلى كريفلد ودارت حول كريفلد إلى نويس . كان السكون مخيّماً على الحقول والمدن . لم نرَ بشراً ، ولم نرَ إلاّ القليل من الحيوان . وكانت سماء الخريف المظلمة منخفضة قريبة من الأرض . كان دويمرلنج يجلس عن يساري ، وكان الحارس البلجيكي يجلس عن يميني . وكنّا ننظر إلى الطريق الزراعي الذي كنت أعرفه معرفة جيّدة : فكم قطعته أنا وأخي جيئة وذهاباً . وكان دويمرلنج يحاول دائماً أن يبرّر موقفه ، ولكني كنت دائماً أقطع عليه الكلام فيعود إلى الكلام حتى يبدو من المتنورين أُولي الفكر الثاقب . لم يكن من الممكن أن يكفّ عن الكلام . قال : « ولكن في نويس لا يمكن أن يخطر ببالك شيء . هل يمكن أن يخطر ببالك في نويس شيء ؟ »

فقلت : « شوكولاته نوفيسيلو الساوركراوت وكويرينوس. ولا شكّ أنّك لم تسمع قطّ من قبل بفرقة ثيبة ؟ »

فقال : « لا » . واحمرّ وجهه خجلاً مرّة أخرى .

وسألت الحارس البلجيكي هل كولن حقيقة مغلقة لأنّها

تلوّثت من الجثث ؟ فقال: « لا ولكن الجال هناك تبدو سيّئة، هل أنت من هناك ؟ » فقلت : « نعم » .

ثمّ قال لي : « استعد لشيء هام — هل ما زال لديك صابون ؟ »

فقلت : « نعم » .

فقال : « تعالَ » . وأخرج علبة من التبغ من جيبه وفتحها ومدّ الخليط الطازج الأصفر الفاتح تحت أنفي « هي لك لقاء قطعتين من الصابون — أليست هذه مبادلة شريفة ؟ »

فأومأت برأسي وبحثت في جيب المعطف عن الصابون وأعطيته قطعتين وأخذت التبغ . ثمّ أعطاني سلاحه الأوتوماتيكي لأحمله عنه بينما راح يواري الصابون في جيوبه . وتنهد عندما أعدت إليه السلاح وقال : « هذه الأسلحة اللعينة ! يبدو أنّه سيكون علينا أن نحملها مدّة طويلة . ليست حالكم من السوء على ما تعتقدون . لماذا تبكي ؟ »

وأشرت ناحية اليمين : إلى الراين . كنّا متجهين إلى دورماجن . ورأيت دويمرلنج يتأهب لفتح فمه ، فعاجلته بقولي: « أرجوك أن تلزم السكوت ، أستحلفك بالله أن تسكت إلى النهاية » . ويبدو أنّه كان يريد أن يسألني هل يخطر ببالي شيء إزاء الراين ، فالحمد لله على أنّه أحسّ إهانة وغضب غضباً شديداً ولم يقل شيئاً عندما وصلنا بون .

كانت هناك بعض المنازل في كولن لم تتهدّم فعلاً ، بل إنّي رأيت في مكان ما حافلةً تسير ، ورأيت أناساً بل ونساء . ولوّحت واحدة منهن إلينا . وانعطفنا من طريق نويس إلى الشوارع الدائريّة فانطلقنا فيها ، وانتظرت طوال الوقت أن تسعفني الدموع ولكنها لم تنهمر . كان الدمار في كلّ ناحية ، حتى مباني شركة التأمينات كانت حطاماً ، ولم أرَ من حمّام هوهنشتاوفن إلاّ بعض البلاط الأزرق الفاتح. وتمنيت طوال الوقت أن تنعطف السيارة بنا في مكان ما إلى اليمين ، لأنّنا كنّا نسكن في شارع كاولنجر الدائري . ولكن السيارة لم تفعل واستمرّت في تقدّمها إلى ميدان بارباروسا ثمّ إلى شارع زاكسن الدائري ثمّ إلى شارع زلير الدائري ، ولم أحاول أن أنظر ، وما كنت لأنظر ، لو لم تتجمّع سيارات النقل الأماميّة وتتكدّس في ميدان كلودفيج ، ولو لم تقف سيارتنا أمام البيت الذي كنّا نسكن فيه . نظرت إذن : والحقيقة أن عبارة « دمار شامل » عبارة مضلّلة ، فإنّه لا يمكن إلاّ في أحوال استثنائيّة تدمير بيت تدميراً شاملاً إلاّ بنسفه ثلاث مرّات أو أربعاً ثمّ بإحراقه بعد ذلك لضمان تمام التدمير . كان البيت الذي كنّا نسكن فيه ، مدمراً دماراً شاملاً حسب المصطلحات الرسميّة ولكنه لم يكن كذلك من الناحية الفنيّة . أعني أنّني استطعت أن أتعرّف عليه :

المدخل وأزرار الجرس ، وأرى أن بيتاً يستطيع إنسان أن يتعرّف على مدخله وأزرار جرسه ليس مدمراً دماراً شاملاً إذا التزمنا المعنى المحدّد للاصطلاح . وكان من الممكن التعرّف على أجزاء أخرى سوى أزرار الجرس والمدخل : حجرتين في البدروم ، كانتا سليمتين أو نحو ذلك ، وثلاث حجرات في الدور الأرضي وهو شيء غير معقول في حد ذاته ، وكان هناك جزء من حائط يسند الحجرة الثالثة التي ما كانت لتحفظ توازنها إن لم يسندها ، أمّا مسكننا في الدور الأوّل فلم يبقَ منه سليماً سوى حجرة واحدة مطلّة على الشارع تبدو وكأنّها مشقوقة وقد تربّع فوقها سقف هرمي ضيّق أجرد به تجاويف نوافذ فارغة . وكان أطرف شيء تبينته هو رجلان كانا يتحرّكان هنا وهناك في حجرة الجلوس بمسكننا كما لو كانت أرضيتها مألوفة لأقدامهما . خلع أحدهما صورة من الحائط ، صورة منقولة عن الرسام تيربوخ كان أبي يحبها حبّاً شديداً ، واتجه بها إلى الأمام وأراها لشخص ثالث كان يقف أمام البيت ، فهزّ هذا رأسه كما يفعل أحدهم في مزاد علني عندما تعرض له بضاعة لا يهتمّ بها ، وعاد الرجل الأوّل بالصورة فعلّقها على الحائط ثانية ، بل إنّه عدلها حتّى استقامت تماماً في مكانها ، وقد تأثرت لهذا الكلف بالدقة ـــ فقد رجع الرجل بضع خطوات إلى الوراء ليرى هل الصورة معتدلة

في مكانها أم لا ، ثمّ هزّ رأسه علامة على الرضا . وفي هذه الأثناء تناول الثاني الصورة الأخرى من الحائط ، وكانت صورة للكاتدرائيّة صنعها لوخنر بطريقة الحفر على النحاس ، ولكنها أيضاً لم تعجب الرجل الثالث الواقف في الشارع . وأخيراً تقدّم الرجل الأوّل الذي أعاد صورة تيربوخ إلى مكانها على الحائط ، ووضع يديه حول فمه لتكبير الصوت وصاح : « أرى بيانو » وضحك الرجل الواقف في الشارع وأومأ برأسه ووضع يديه حول فمه لتكبير الصوت وصاح : « سأحضر الحزام » . لم أستطع أن أرى البيانو ، ولكني كنت أعرف مكانه : كان على اليمين في الركن الذي لا أكشفه والذي اختفى فيه الرجل بصورة لوخنر منذ قليل . وسألني الحارس البلجيكي : « أين كنت تسكن في كولن ؟ »

فقلت : « آه ، في مكان ما » . وحركت يدي حركة مبهمة في اتجاه الضواحي الغربيّة .

وقال الحارس : « الحمد لله . سنستأنف السير الآن » . وتناول السلاح الأوتوماتيكي الذي كان قد وضعه على أرض السيارة وعدّل قبعته ، وكان الأسد الفلندري فوق قبعته قد اتسخ إلى درجة كبيرة . فلمّا انعطفنا إلى ميدان كلودفيج استطعت أن أتبيّن سبب توقف المرور وتكدس السيارات : كانت هناك هجمة بوليسيّة . كانت هناك في كلّ مكان

عربات البوليس الحربي الإنجليزي وقد وقف خلفها مدنيون يرفعون أيديهم إلى أعلى وتجمّع حولهم حشد كبير من الناس يقفون ساكنين ولكن ثائرين : فجأة يتجمع هذا العدد الكبير من الناس في مدينة ساكنة مدمرة إلى هذا الحد ! وقال الحارس البلجيكي : « إنها السوق السوداء ! من حين إلى آخر ينظفون هذا الجيب » .

وقبل أن نغادر كولن أخذني النعاس وكنّا لا نزال في شارع بون ، ورأيت في المنام طاحونة البن التي كانت تملكها أمي : رأيتها تنزل مربوطة في حزام يدليه الرجل الذي عرض صورة تيربوخ بلا جدوى ورأيت الرجل الواقف في الشارع يرفضها ، ثمّ رأيت الآخر يرفعها مرّة ثانية ويفتح باب المدخل ويحاول أن يركبها في المكان الذي كانت فيه : وراء باب المطبخ مباشرة ، ولكن لم يكن هناك حائط يثبتها فيه ، ولكنه مع ذلك حاول وكرّر المحاولة (وقد أثارني هذا الميل إلى الدقة حتّى في المنام) . راح يبحث بسبّابة اليد اليمنى عن الخوابير فلم يجدها ، فرفع قبضته حانقاً إلى سماء الخريف ثائراً عليها لأنّها لا تمنح طاحونة البن مكاناً تثبت فيه ، وأخيراً صرف النظر عن تثبيتها ، ولفّ الحزام حولها وذهب إلى الأمام وأنزل طاحونة البن وعرضها على الثالث ، فعاد هذا إلى رفضها ، فرفعها الآخر مرّة أخرى إلى أعلى وأخفاها تحت

ستّرته كما يخفي الإنسان شيئاً ثميناً قيّماً ، ثمّ بدأ يحلّ الحزام من حولها ، ويلفّه حتّى صار كالقرص وقذف به الرجل الثالث الواقف في الشارع في وجهه . وبقيت طوال الوقت في قلق على الرجل الثاني الذي عرض صورة لوخنر بلا جدوى ، ولكن لم أستطع أن أهتدي إليه . كان هناك شيء ما يحول بيني وبين النظر إلى الركن الذي كان البيانو موضوعاً فيه هو ومكتب أبي ، وكنت أحسّ بالتعاسة عندما أتصوّر أن الرجل قد يقرأ في مذكرات أبي . ثمّ وقف الرجل الممسك بطاحونة البن بباب حجرة الجلوس وحاول أن يثبت الطاحونة في سجاف الباب وكأنّما أراد أن يمنح الطاحونة مكاناً وبقاء ، وبدأت أحبّه حتّى قبل أن أكتشف أنّه كان واحداً من أصدقائنا العديدين الذين واستهم أمّي تحت طاحونة البن ، واحداً من أولئك الذين لقوا حتفهم في بداية الحرب أثناء غارة جويّة .

وأيقظني الحارس البلجيكي قبل أن نصل بون وقال : « تعالَ افرك عينيك . لقد اقتربت الحريّة » . فاعتدلت في الجلوس ، وفكّرت في الكثيرين الذين كانوا يجلسون تحت طاحونة أمّي : هاربين من المدرسة خوفاً من الواجبات المدرسية ، نازيين كانت تحاول نصحهم ، وغير نازيّين كانت تحاول تقوية عضدهم . هؤلاء جميعاً جلسوا على الكرسي تحت

طاحونة البن والتمسوا المواساة والشكوى والدفاع والتأجيل ، تحطمت مثلهم بكلمات مريرة ، وقدمت إليهم في كلمات لينة أشياء تبقى على مرّ الأزمان : اللطف بالضعفاء والمواساة للمضطهدين .

المقابر القديمة . السوق . الجامعة . بون . من خلال باب كوبلنتس إلى حديقة هوفجارتن . وقال الحارس البلجيكي : « وداعاً ! » وقال دويمرلنج بوجهه الغض المتعب : « اكتب إليّ » . فقلت له : « نعم . سأرسل لك طبعة توخولسكي كاملة » . فقال : « حسناً . وهل ترسل إليّ كلايست كذلك ؟ » فقلت : « لا . سأرسل لك المكررات فقط » .

* * *

وهناك أمام باب المعسكر المحاط بالأسلاك الشائكة الذي أُطلق سراحنا من خلاله نهائيّاً ، وقف رجل بين سلّتين كبيرتين من سلال الغسيل ، كان في إحداهما تفاح كثير ، وكان في الأخرى قليل من الصابون ، وكان يصيح : « فيتامينات أيها الرفاق . تفاحة لقاء قطعة من الصابون » . وأحسست كيف سال لعابي . كنت قد نسيت منظر التفاح . فأعطيته قطعة من الصابون ، وأخذت تفاحة وقضمت منها قضمة في الحال . ثمّ بقيت واقفاً ونظرت إلى الآخرين كيف يخرجون . لم يعد بالرجل حاجة إلى الصياح فقد تحوّلت العمليّة إلى تجارة صامتة ،

كان يتناول تفاحة من السلة ويأخذ قطعة الصابون يلقيها في السبت الفارغ فينطلق منه صوت مكتوم حاد عندما ترتطم به قطعة الصابون . لم يأخذ كلّ واحد تفاحاً ، ولم يكن لدى كلّ واحد صابون ، ولكن العمليّة تمت بسرعة كما يحدث في المحلات التي يخدم المشتري فيها نفسه . فلمّا فرغت من تفاحتي كانت سلّة الصابون قد امتلأت إلى نصفها . جرى كلّ شيء بسرعة وبدون احتكاك وبدون كلام . حتى أولئك الذين كانوا يقترون على أنفسهم ويعملون للنقود حساباً لم يستطيعوا مقاومة إغراء التفاح ، وبدأت أحسّ بالعطف عليهم . هكذا كان الوطن يحيي العائدين إليه بالفيتامينات على نحو مفعم بالحبّ .

* * *

ولم يطل بي الوقت حتى عثرت في بون على تليفون ، وحكت لي بنت في مكتب البريد أن الأطباء والقساوسة وحدهم هم الذين يحصلون على تليفونات على شرط ألاّ يكونوا قد انتموا إلى الحزب النازي . وقالت البنت : « إنّهم يخافون خوفاً شديداً من فرقة الفيرفولف » ، ثمّ قالت : « هل معك سيجارة لي ؟ » فأخرجت علبة التبغ من جيبي وقلت لها : « هل ألفّ لك سيجارة ؟ » فقالت : لا ! وأضافت أنها تستطيع فعل ذلك بنفسها . ونظرت إليها وهي تخرج ورق

السجائر من جيب معطفها وتلفُّ سيجارة بسرعة ومهارة . وقالت : « بمن تريد أن تتصل تلفونيّاً ؟ » فقلت : « بزوجتي » فضحكت وقالت لي إنّني لا أبدو في هيئة المتزوّجين . ولففت لنفسي سيجارة وسألتها هل هناك إمكانية بيع قطعة من الصابون فقد كنت محتاجاً إلى النقود لدفع ثمن التنقلات ولم يكن معي مليم واحد . فقالت : « صابون ؟ أرني » فأخرجت قطعة من الصابون من طيات بطانة معطفي ، وانتزعتها هي من يدي وشمّتها وقالت : « رباه ! قطعة صابون بالموليف أصليّة — ما ثمنها ؟ — أنا أعطيك بها خمسين ماركاً » . فنظرت إليها مندهشاً فقالت : « نعم ، أنا أعرف أنّهم يدفعون بها لغاية ثمانين ماركاً ، ولكنني لا أستطيع دفع مثل هذا المبلغ » . ولم أكن أريد مبلغ الخمسين ماركاً ولكنها أصرّت على أن آخذه ودسّت لي المبلغ في جيب المعطف وجرت من مكتب البريد . كانت جميلة جدّاً ، جميلة جمالاً جائعاً يضفي على صوت البنات نوعاً من الحدّة .

ولفت نظري في مكتب البريد وفي أنحاء بون وأنا أهيم فيها عدم وجود طالب واحد في أي مكان يرتدي شيئاً ملوّناً . وكانت هناك روائح : كان كلّ الناس تفوح منهم رائحة كريهة ، كانت كلّ الأماكن تفوح منها رائحة كريهة ، ففهمت لماذا جنّت البنت عندما رأت قطعة الصابون . وذهبت

إلى محطة السكك الحديديّة وحاولت أن أتبيّن طريقة الوصول إلى «أوبر كرشنباخ» (هناك كانت تسكن تلك التي كنت قد تزوّجتها) ، ولكن أحداً لم يستطع أن يقول لي . كنت أعرف من أمر هذا العشّ أنّه في مكان ما بعيداً عن بون في منطقة الإيفل . ولم تكن هناك خرائط قط يمكن أن أستخدمها في معرفة الموضع ، والظاهر أن الخرائط كانت ممنوعة خوفاً من فرقة الفيرفولف . كنت دائماً أُحبّ أن أعرف مكان كلّ بلد بالضبط ، ولهذا استبدّ بي القلق لأنّني لم أكن أعرف عن «أوبر كرشنباخ» شيئاً بالضبط ، ولم أكن أستطيع أن أحصل على معلومات دقيقة عنه . ودرت على عناوين بون التي أعرفها كلّها هنا وهناك فلم أجد بينها طبيباً أو قسيساً . وأخيراً تذكّرت أستاذاً في اللاهوت كنت قد زرته قبل الحرب بقليل بصحبة بعض الأصدقاء ، فقد كان له أمر ما يتصل بروما وبالقائمة السوداء ، وذهبنا آنذاك إليه نعبر له عن تعاطفنا معه . لم أكن أعرف اسم الشارع ولكنني كنت أعرف مكانه ، فاتبعت شارع بوبلسدورمز وانعطفت إلى اليسار ثمّ اليسار مرّة أخرى فوجدت البيت وارتحت عندما قرأت الاسم على الباب . وأقبل الأستاذ بنفسه إلى الباب . كان قد كبر جدّاً ونحف وانحنى وشاب شيباً شديداً . قلت : «لا شك أنّك لم تعد تعرفني يا سيادة الأستاذ ، لقد أتيت لزيارتك عندما

كنت مشتبكاً في عركة مع روما والقائمة السوداء ــ هل أستطيع أن أتكلّم معك لحظة ؟ » فضحك لاستعمالي كلمة « عركة » وقال : « أهلاً بك » ثمّ سبقني إلى حجرة المكتب ــ ولفت نظري أن المكان لم تعد تفوح منه رائحة التبغ ، وأنّه فيما عدا ذلك لم يتغيّر بكلّ ما فيه من كتب وصناديق البطاقات وأشجار المطاط . قلت للأستاذ إنّني سمعت أن القساوسة والأطباء هم وحدهم الذين لديهم تليفونات وإنّني أريد أن أتصل تليفونيّاً بزوجتي ، فتركني ــ وهو ما لا يحدث إلاّ نادراً ــ أتمّ كلامي ثمّ قال إنّه حقيقة قسيس ولكنه ليس من هؤلاء الذين لديهم تليفون : « لأنّني كما ترى لست قسيساً عاملاً » .

فقلت له : « لعلّك من فرقة الفيرفولف ! » وقدمت إليه تبغاً وتأثرت عندما رأيته ينظر إلى تبغي ، وإنّني لأتأثر دائماً عندما يتحتّم على المسنين أن ينزلوا عن أشياء يحبونها . كانت يداه ترتعشان وهو يشحن غليونه ، ولم تكونا ترتعشان لتقدمه في السنّ فقط . فلمّا أشعل غليونه ــ لم يكن معي عيدان ثقاب ولذلك لم أستطع مساعدته في ذلك ــ قال لي إن الأطباء والقساوسة ليسوا وحدهم هم الذين لديهم تليفون ، بل هناك أيضاً تليفونات « في تلك الحانات الصاخبة التي تفتح في كلّ مكان يكون فيه جنود » وأشار عليّ بأن أحاول

في إحدى هذه الحانات وقال لي إن هناك حانة على ناصية الشارع مباشرة . وبكى عندما قدمت إليه وأنا أودعه كمية من التبغ لغليونه وضعتها على مكتبه ، وسألني والدموع في عينيه عمّا إذا كنت أعرف ما سأفعل ، فقلت نعم ، إنّني أعرف ما سأفعل، وطلبت منه أن يقبل التبغ كمشاركة متأخرة مني في تقدير الشجاعة التي أبداها حيال روما في ذلك الوقت . ووددت أن أهدي إليه قطعة من الصابون فقد كان معي خمس قطع أو ست في بطانة المعطف ، ولكني خشيت أن يتحطّم قلبه من الفرح ، فقد كان هرماً ضعيفاً .

* * *

كانت كلمة حانة كلمة رفيعة جدّاً ولكنها ضايقتني أقلّ ممّا ضايقني الحارس الإنجليزي الذي كان يقف أمام باب الحانة . كان في مقتبل العمر . فلمّا وقفت عنده نظر إليّ نظرة صارمة وأشار إلى اللافتة التي كتب عليها أنّه محظور على الألمان الدخول ، ولكني قلت له إن أختي تعمل في الداخل وإنّني عائد لتوّي إلى الوطن الغالي وإن مفاتيح البيت مع أختي . فسألني عن اسم أختي فلاح لي من الأوفق أن أذكر له أكثر أسماء البنات الألمانيات ألمانية ، فقلت : « جريتشن » ، فقال : « نعم . الشقراء » . وتركني أدخل . ولا حاجة بي إلى وصف المكان من الداخل، ويكفي أن أحيل

إلى ما كتب عن البنات في ذلك الوقت وإلى الأفلام والتلفزيون ، كذلك أوفر على نفسي مهمّة وصف جريتشن وأحيل إلى المصنفات نفسها . المهم أن جريتشن كانت سريعة البديهة على نحو مدهش وأنّها كانت مستعدّة لقاء قطعة من صابون البالموليف لأن تصلني تليفونيّاً بمكتب القسيس في كرشنباخ (الذي رجوت أن يكون موجوداً) وأن تطلب تلك الّتي كنت قد تزوّجتها لتأتي إلى التليفون . تكلّمت جريتشن في التليفون بلغة إنجليزيّة سلسة وقالت لي إن صديقها سيحاول أن يرتب هذه المكالمة عن طريق الإدارة فهذا أسرع . وقدمت إليها أثناء الانتظار شيئاً من التبغ الذي كان معي ، ولكنها كان لديها أحسن منه ، وهممت بتقديم قطعة الصابون الّتي اتفقنا عليها ثمناً للمكالمة إليها مقدماً ، ولكنها رفضت وقالت إنّها متنازلة عنها وإنّها لا تريد أن تأخذ ثمناً ، فلمّا صممت على الدفع بدأت تبكي واعترفت لي بأن لها أخاً في الأسر وآخر في العالم الآخر ، فحزنت لها ، فليس من الحسن أن تبكي البنات مثيلات جريتشن . ثم إنّها اعترفت لي بأنّها كاثوليكيّة ، وهمّت بإخراج صورتها عند أوّل مناولة ، ولكن التليفون دقّ فتناولت جريتشن السماعة وقالت : « سيادة القسيس » وكنت أنا قد سمعت أن الصوت ليس صوت رجل . ثمّ قالت جريتشن : « لحظة من فضلك » ودفعت إليّ بالسماعة ،

ولكني كنت مضطرباً فلم أستطع القبض عليها كما ينبغي فوقعت من يدي، لحسن الحظ، في حجر جريتشن، فتناولتها ووضعتها على أذني وقلت : « هاللو — هل أنتِ ذاك ؟ » .

فقالت : « نعم . وأنت، أين أنت ؟ »

فقلت : « أنا في بون . لقد انتهت الحرب بالنسبة إليّ » .

فقالت : « رباه، أكاد لا أصدق . لا— ليس صحيحاً » .

فقلت : « بلى، صحيح . ألم تتسلمي البطاقة التي أرسلتها إليك ؟ »

فقالت : « لا . أيّة بطاقة ؟ »

قلت : « عندما كنت في الأسر سُمح لي بأن أكتب بطاقة بريديّة » .

قالت : « لا . لا أعرف شيئاً عنك منذ ثمانية أشهر » .

فقلت : « هؤلاء الخنازير . هؤلاء الخنازير الملاعين — آه، قولي لي أين كرشنباخ ؟ »

فقالت : « أنا . . . » وراحت تبكي بكاء مريراً حتّى إنّها لم تستطع الكلام . وسمعتها تتنهد وتزفر، ثمّ استطاعت أن تقول هامسة : « في محطة السكك الحديديّة ببون، سآتي إليك وآخذك » . ثمّ لم أعد أسمعها، كان هناك صوت متكلّم يقول شيئاً بالإنجليزيّة لم أفهمه .

ووضعت جريتشن السماعة على أذنها وأنصتت لحظة

ثمّ هزّت رأسها وأعادت السماعة إلى مكانها على التليفون . فنظرت إليها وعلمت أنّني لم أعد أستطيع أن أقدم إليها الصابون ، ولم أكن أستطيع أن أقول لها « شكراً » فقد بدت لي هذه الكلمة سخيفة ، فرفعت ذراعي وخرجت .

وعدت إلى المحطة وذلك الصوت النسائي في أذني ، ذلك الصوت الذي لم يرن هكذا قطّ من قبل بهذه النبرة الزوجيّة .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

ساعة المطبخ

قصة قصيرة كتبها فولفجانج بورشرت

استرعى انتباههم منظره الغريب وهو قادم من بعيد نحوهم . فقد كان وجهه عجوزاً كثير التجاعيد وإن ظهر للرائي أنّه ما زال يحبو في ربيعه العشرين . وجلس بوجهه المجعد إلى جانبهم على الأريكة ، بينما راح يريهم ذلك الشيء الذي يحمله في راحة يده : « كانت هذه ساعة مطبخنا » . هتف بهذه الكلمات وهو يدور بالساعة على عيون الجالسين على الأريكة تحت الشمس . « أجل إنّها آخر ما تبقّى لي » .

كان ممسكاً بساعة مطبخ في استدارة طبق أبيض ، يتأمّلها وإصبعه تتحسّس أرقامها الزرقاء . ولكن ثمة خاطر مؤسف راح يطنّ في أذنيه : « لم يعد لها نفع . أعرف هذا . بل أعرف أكثر من ذلك . إنّها ليست بذات الرونق الأخّاذ . ولكنها فقط تشبه طبقاً ذا قاع أبيض . وأرقامها الزرقاء تبدو لي

غاية في الجمال . أمّا عقاربها فطبعاً من الصفيح — لا أكثر . وهما الآن قد توقّفا نهائيّاً عن الدوران . أجل ، إنّها متعطلة من الداخل . بالتأكيد . ولكنها تبدو من الخارج على ما كانت تبدو عليه دائماً ، بالرغم من أنّها قد كفّت عن المسير » . ودار بسبّابته المرتعشة حول ميناء الساعة ، ثمّ همس بصوت خفيض : « وهي آخر ما تبقّى لي » . ولم يعبأ به أولئك الجالسون على الأريكة تحت الشمس . فقد حدّق أحدهم إلى حذائه ، وسرّحت السيدة بصرها تجاه غربة أطفالها . ثمّ قال أحد الجالسين : « يبدو عليك أنّك فقدت كلّ شيء ؟ » وجاءته الإجابة في بهجة متكلّفة : « أجل ، أجل ، تصور . . . كلّ شيء ! هذه فقط كلّ ما تبقّى لي » . ومرّة أخرى رفع الساعة إلى أعلى وكأن الآخرين لم يروها من قبل . هنا تمتمت السيدة : « ولكنها قد كفّت عن المسير » .

— « لا . لا تقولي هذا . أعرف جيداً أنّها متعطّلة . ولكنها بالرغم من ذلك تبدو كما كانت تبدو دائماً : بيضاء وزرقاء » .

ثمّ انطلق يريهم ساعته مرّة أخرى وهو يردّد بانفعال : « أمّا أروع ما فيها فلم أحكِ لكم عنه بعدُ شيئاً . لاحظوا أنّها توقّفت على الثانية والنصف . الثانية والنصف بالذات » .

– « إذن فقد أطيح بمنزلك في تمام الثانية والنصف »
هكذا أجاب الرجل بينما امتدّت شفته السفلى وهو مستمر :
« كثيراً ما سمعت عن ذلك . حين تسقط القنابل تتوقف
الساعات . يحدث ذلك عادة بسبب الضغط » . وتطلّع صاحبنا
إلى ساعته وهو يهزّ رأسه في استنكار : « لا يا سيدي الفاضل !
لا . أنت مخطىء . لا علاقة هنا للقنابل . ثمّ لا يصح أن
نتحدّث دائماً عن القنابل . لا . لقد كان هنالك في تمام
الساعة الثانية والنصف شيء آخر مختلف تماماً . ولكن أنت
لا تعرفه . هذا هو المهم في الموضوع . إنّها توقفت عند
الثانية والنصف وليس عند الرابعة إلاّ الربع أو السابعة . ففي
الثانية والنصف كنت أعود إلى الدار . أعني بعد منتصف
الليل . دائماً حوالي الثانية والنصف . هذا هو المهم في الموضوع » .
وتطلّع إلى الآخرين ولكنهم أشاحوا عنه بوجوههم ، فأطرق
يهمس إلى ساعته : « عندئذ كنت أشعر بالجوع . طبعاً . . .
أليس كذلك ؟ فأذهب لتوي إلى المطبخ حيث أجدك تشيرين
دائماً إلى الثانية والنصف . ثمّ . . . ثمّ تأتي أمي . . . فقد
كنت أبذل غاية جهدي كي أفتح الباب ببطء شديد . ولكنها
كانت دائماً تسمعني . وبينما أفتش في المطبخ المعتم عن شيء
أسدّ به جوعي ، إذا بالمطبخ يضاء فجأة ، وتظهر أمي في
سترتها الصوفيّة وشالها الأحمر الذي تلفّعت به ، وقدميها

الحافيتين . الحافيتين دائماً . وكان بلاط مطبخنا رطباً . أمّا الضوء فكان شديداً على عينيها اللتين أطبقتهما حتّى أصبحتا صغيرتين جدّاً . فقد نهضت من نوم عميق . عندئذ كانت تقول : « مرّة أخرى في هذه الساعة المتأخرة ؟ » ولم تكن تزيد على ذلك حرفاً . فقط هذه العبارة : « مرّة أخرى في هذه الساعة المتأخرة » . ثمّ تسخن لي العشاء ، وترمقني بعينيها بينما ألتهم الطعام . وهي خلال كلّ ذلك تحك قدميها بعضهما مع بعض ، فقد كان البلاط بارداً جدّاً ، إذ لم تضع في الليل أي حذاء في قدميها . وكانت تجلس بجانبي حتّى أشبع . ثمّ أسمعها وهي تزيل الأطباق بينما أكون أنا قد أطفأت النور في حجرتي . ويتكرّر هذا كلّ مساء . ودائماً حوالي الثانية والنصف . حتّى كنت أجده أمراً طبيعيّاً للغاية . فقد كانت تفعله دائماً . ولم تزد على قولها : « مرّة أخرى في هذه الساعة المتأخرة » . ولكنها كانت تقولها كلّ مرّة . وكنت أتصوّر أن كلّ هذا لن يتوقّف . كان أمراً طبيعيّاً جدّاً . كلّ هذا . فقد كان يحدث دائماً على هذه الوتيرة » . وزفر زفرة طويلة لبث على إثرها جامداً على الأريكة كالتمثال . ثمّ تابع حديثه بصوت خفيض : « والآن ؟ » ونظر إلى الآخرين ولكنهم لم يلتفتوا إليه . . . فأطرق هامساً إلى ساعته ذات الوجه المستدير الأبيض ذي الملامح الزرقاء : « والآن ،

والآن أدرك أنّها كانت الجنّة . الجنّة الحقيقيّة » .
وخيّم السكون على الجالسين على الأريكة تحت الشمس .
ثمّ سألته السيدة : « وعائلتك ؟ » فأجابها بابتسامة صفراء :
« آه . . . تعنين والديّ ؟ أجل ، لقد ذهبا هما أيضاً . ذهب كلّ شيء . كلّ شيء . تصوّري ، ذهب كلّ شيء » .
والتفت إلى كلّ منهم بابتسامته الصفراء ، ولكن أحداً منهم لم ينظر إليه . وهنا رفع الساعة وهو يقهقه قائلاً : « هذه فقط تبقّت لي . بل أروع ما فيها أنّها توقّفت على الثانية والنصف بالذات . الثانية والنصف بالذات » .
ولم ينبس بعدها بحرف واحد . وإنّما ظلّ وجهه هرماً كثير التجاعيد . والرجل الجالس إلى جواره لبث يحملق في حذائه ، ولكنه لم يرَ الحذاء ، إذ كانت تدور في رأسه كلمة « الجنّة » .

ترجمة : مجدي يوسف

مجلس إدارة المعمل

بقلم ماكس فون دركرين

سمع أهل المدينة بالحادث قبل عودة عمال المناجم من الخدمة الليليّة إلى بيوتهم عند السابعة صباحاً . فتماماً عند الثالثة ليلاً سقط الجبل على المنجم الخامس في الجزء الشرقي الخامس على امتداد عشرين متراً ، ممّا أدى إلى حجز ثمانية عمال أُنقذ منهم خمسة بعد ثلاث ساعات ، بعضهم أُصيب بجراح والبعض الآخر بقي في حالة سليمة ، واستمرّت عمليّة إنقاذ الآخرين عدّة ساعات . وفي الساعة الحادية عشرة ظهراً عثر عليهم أمواتاً .

لم يحدث بعد هذا ما يستحق الذكر . فالحادث وقع — خمسة أحياء وثلاث ضحايا ، ممّا يجعل عمليّة الإنقاذ موفقة . وفي المساء تداول الحادث في المدينة فقط أولئك الذين كانت لهم به علاقة مباشرة ، أمّا نشرة الأخبار المحليّة فلم تأتِ على

ذكره . فلماذا الاهتمام بثلاثة عمال قضى الجبل على حياتهم!
فكثيراً ما يتغير العالم يومياً : بلدان تندك ومدن تنهار ، أنهار تفيض وجبال تقذف حممها ؛ فلماذا الاهتمام إذاً بعمال ثلاثة ذهبوا ضحيّة مهنتهم ؟

تعوّد الإنسان سماع أخبار مثل هذه الحوادث في منطقة الرور ، هذه الحوادث الملتصقة بالحياة اليوميّة كالغبار .

إنّها الثانية عشرة .

وضعت الضحايا في طبقة من طبقات المنجم بينما اجتمع مجلس الإدارة في المكتب لتعيين من سينقل الخبر إلى عائلاتهم . فهذا دائماً ما يجري ؛ ولكن ما من أحد يريد مشاهدة انفجار الحزن من غير أن يكون قادراً على التعزية ـ بل يقف كمجرم يدب الرعب في منزل آمن .

تقدّم اثنان لنقل الخبر عن ضحيتين ، وأمّا عن الضحيّة الثالثة فلم يتقدّم أحد ، إذ تجنّب القيام بهذه المهمّة كلّ من العمال ، ذلك لأن عائلة الضحيّة الثالثة فقدت في مدّة ثلاث سنوات ثلاثة أبناء وجثة الأخير وعمره ٢١ سنة كانت لا تزال في قاعة الموتى .

وكسر الصمت الرهيب صوت رئيس الإدارة قائلاً : سأذهب بنفسي .

قال هذا بحزم ولو كان صوته شبه مخنوق ، وتطلّع إلى

وجوه رفاقه المقنعة كمن يبحث عن أحد ينقذه من هذه المهمة في اللحظة الأخيرة . غير أن الارتياح بدا على الوجوه السبعة لأن هناك من تبرّع للقيام بهذه المهمة من دون اللجوء إلى « الطرة أو النقشة » أي كيف ما اتفق كما كان يجري سابقاً .

إنّها زمرة جبانة ، متوحشة حتّى ولو أعوزتها الأذناب ، حتّى ولو قدرت على النطق ، قال في أعماقه : لا بأس ، لقد تبرّعت لتنفيذ المهمّة ولكن لن أضيع عليّ مشاهدة لعبة كرة القدم في التلفزيون اليوم بعد الظهر .

سكنت العائلة هاوك التي راح برنكهوف يسأل عنها في طرف المدينة وفي مسكن من المساكن الكثيرة التي أُقيمت هناك . وبسبب مرض في الرئة حلّ بالأب هاوك منذ عشر سنوات ، ممّا أدّى إلى عجزه ، شغل هذا وقته بالعمل في حديقته . وقد لاحظ برنكهوف كيف أن العجوز هاوك يلقي بالجرافة بين حين وآخر وينتصب واضعاً كفّه فوق عينيه من الشمس ويتطلّع إلى آخر الشارع ، إلى الشارع الذي جاء برنكهوف منه .

وقف مدير الإدارة عند باب الحديقة : « نهارك سعيد » يا ويليم . لا ترهق نفسك ، اترك شيئاً للأيّام القادمة .

الطقس جميل اليوم ؛ ولكن حان وقت الراحة ، قال برنكهوف هذا ببطء وبصورة عابرة .

كم حياته سعيدة ، فكّر برنكهوف لنفسه ، إنّه سيّد نفسه ، فهو يفعل ما يشاء . عليّ ألاّ أضيع مشاهدة لعب كرة القدم .

آه ، قال هاوك ، هذا أنت يا فريتز ! « نهارك سعيد » أيضاً . العشب البري ينمو وينمو ، لهذا يجب أن أشتغل يوميّاً في الحديقة إذا ما أردت التمييز بين العشب البرّي والزهور .

عليّ ألاّ أهمل لعب كرة القدم ، فكّر برنكهوف لنفسه .

هل تنتظر أحداً ؟ سأله برنكهوف .

أنتظر ؟ نعم ، ابني لم يعد بعد من خدمته الليليّة ، وقد صارت الساعة الثانية بعد الظهر . لعلّه الأحمق يقوم بخدمتين متتاليتين . أتعرف ، عنده صديقة ولا بدّ من أن يشتري دراجة ناريّة ؛ أنت تعرف كيف أن الشباب هذه الأيّام يفضلون السفر والنزهات على العمل في الحديقة . إلاّ أنّه ليس بحاجة لساعات إضافيّة فأنا أعطيه شيئاً من تقاعدي .

نعم ، نعم ، قال برنكهوف وفكّر أن اللعب سيبدأ في التلفزيون بعد ساعة .

غير أن الشباب عنيدون ، قال الشيخ هاوك بلهجة غاضبة .

أية ثمرة سيضيع عليها ؟ سأل مدير الإدارة . دراجة نارية ، هذه حماقة ، فكر في نفسه . من يشتري دراجة نارية هذه

الأيام ! هل سيلعب أوفي اليوم ؟

لا تسألني يا فريتز ، فأنا أيضاً مستغرب . إنّها إيطالية ، أقول لك إنّهما صرفا الليلة الماضية بالتطلّع إلى الإعلانات والأسعار . فهناك ، حيث كان الإصطبل ، بنى كاراجاً جميلاً على ما أظنّ ، وغطى جدرانه بالورق . صار مبقعاً ، أقصد الكاراج ، ومع هذا فلا بأس به . أية أفكار تخطر هذه الأيّام للشباب ! وابتسم هاوك بارتياح .

إذا استمرينا في الحديث على هذا المنوال فإنّي لن أتمكّن من مشاهدة اللعب ، فكّر برنكهوف في نفسه ، ولكنه قال : نعم ، نعم . متى سيشتري (الطبطبية) الدراجة ؟ هل هي غالية ؟

في الأسبوع القادم ، أجاب هاوك الهرم ، وهذا ما يسرّني ، لأنّه سيكون باستطاعته أخذي إلى معارض الحمام والدجاج . ولكن ليس صحيحاً أنّها «طبطبية» فهو يقول إنّها أكثر الدراجات المعروضة انخفاضاً في الصوت .

يا إلهي ، فكّر برنكهوف في نفسه ، كيف يقضي نهاره هكذا والجميع حوله يعلمون بالحادث دون أن يخبره أحد به ، ولو فرضنا أني لم أتبرّع للقيام بهذه المهمة ! يا لها من سخافة ! إذا كان أوفي سيلعب اليوم ؟

ماذا تعمل هنا في هذه المنطقة ؟ سأله هاوك الهرم فجأة ،

أتريد أن تشتري حماماً ؟

تطلّع برنكهوف على ساعته . إذا استمرينا هكذا فإنّي لن أشاهد اللعب . هل عندك إجازة ؟ سأله الهرم هاوك ثانية .

كلا ، يا ويليم ، فقد أخذت إجازتي في آذار لأنّي أردت تكميل البيت . بسبب هذا أخذت إجازة .

شيء طبيعي يا فريتز ، فعلى المرء أن يهتمّ بأشيائه الخاصة وهذا ما كنت أفعله في ما مضى . والآن لدي الوقت ، الوقت الكافي . . .

نعم ، فكّر برنكهوف ، من الأحسن أن يكون الإنسان عاجزاً .

. . . أقول لك كم يستطيع الإنسان إنجازه طوال النهار ! بدون عجلة ، بدون مراقب ، بدون مشاكل ! مشاكل ! لا سباق بعد اليوم ولا عبارة : لا تتصنّعوا التعب . غير أني منهار ، فالرئة لا تشتغل . أقول لك إن الخوف يعتريني عندما يطبق الضباب فينسد حلقي ؛ من يكون في مثل هذه السن يصير مستنفداً وبالياً . ولكن ما العمل ؟

نحن عمال ، قال برنكهوف وفكر في نفسه أن المراقب ليس دائماً المخطىء ، بل أحياناً العمال أنفسهم . آمل ألاّ أضيع مشاهدة اللعب .

إن نكماير سيبيع كلّ أرزاقه ويرحل إلى المدينة . أتعرف ،

لقد ورثت زوجته منزل عمّها ، وهما سيعيشان فيه . ولكن لن يتمكّن من اقتناء الحمام هناك . الحمام رخيص ، عنده حمام جيد ، لقد ربح الكثير منه . هو أيضاً مليح ، أقصد نكماير .

كم يطلب بحماماته ؟ سأله برنكهوف .

إذا استمرّيت هكذا فإنّي سأخسر مشاهدة اللعب .

إن شئت أحكي معه بهذا الموضوع . أو نذهب إليه سوية فهو يسكن بعد هذين البيتين ؛ أقصد إن شئت وكان لديك الوقت . . .

كلا ، يا ويليم ، قال برنكهوف بسرعة ، لدي عمل آخر ، أنت تعرف .

بالله عليك يا فريتز ، هل وقع حادث في المنجم ؟ تطلع هاوك الهرم إلى برنكهوف من الأسفل .

يا إلهي ، إنّه لم يعرف بعد ، مع أن المئات هنا يعرفون أن ابنه في عداد الموتى . يا لهم من جبناء ، إن أحداً لم يخبره بعد .

ترى هل سيلعب أوڤي ؟

نعم يا ويليم ، وقع حادث في القسم الشرقي الخامس . إنّك تعرفه من أيّامك السابقة .

ماذا ؟ القسم الشرقي الخامس ؟ نعم ، نعم ، هناك جبل

خطر . على أيامي حدث تقريباً كلّ أسبوع انهيار ، كانت الحالة لا تطاق ، فدائماً أثناء الحفر كانت تقع الحوادث ، ومع هذا فالمنجم اللعين لم يغلق لأن فحمه أرخص وأحسن فحم . فما يؤثر ذهاب كم ضحيّة أو كم جريح . المهم هو الحصول على فحم رخيص ، فحم مليح . هذا ما جرى في الماضي وهذا ما سيكون دائماً . لا نقدر أن نغيّر شيئاً . نشكر الله أنّي تخلصت من هذا العمل .

تطلّع هاوك إلى صقرين يحومان في الجو . حسناً ، قال . أراقبهما منذ يومين ، وإنّه لمن الطرافة البالغة رؤيتهما يتزاوجان .

ذكرت الصحف أن دخول أوفي اللعب غير أكيد لأنّ جرحه القديم لم يزل يؤلمه ، فكر برنكهوف في نفسه .

لكن ، لكن صرخ الشيخ فجأة . ماذا قلت ؟ القسم الشرقي الخامس ؟ المنجم الخامس ؟ لكن ... لكن ... هناك يشتغل ابني . ما حدث بالفعل يا فريتز ؟

كان ابنه لاعباً هجوميّاً في الجناح اليساري ، ومن يدري ، فلعلّه كان أهلاً لأن يكون عضواً في الاتحاد لو تيسر له التدريب الصحيح . لو لم أتبرّع لنقل الخبر لكنت الآن أشاهد اللعب على شاشة التلفزيون .

كانوا ثمانية تحت الركام يا ويليم ، قال هذا بصوت

مثقل بالحزن وهو يتطلّع إلى الصقرين كيف يدوران .

نعم ، كانوا ثمانية تحت الركام ، أنقذنا خمسة منهم وبقي الثلاثة الآخرون . بالطبع إنّك تعرف ما أقصد .

أشعل الشيخ غليونه الذي كان فارغاً ، ولكنه أشعل الثقاب تلو الآخر حتّى تجمعت العيدان عند قدميه كمن يريد أن يلعب بها . ومرّة أخرى تطلّع هاوك إلى الطريق الذي جاء منه برنكهوف .

تقول ثلاثة ماتوا ، ثلاثة . ثلاثة ! فريتز ! لماذا ثلاثة ؟ لهذا لم يعد ابني حتّى الآن ، لهذا السبب . إذاً هذا ما حدث . وبعد لحظة من الصمت المريع ضحك هاوك وكأنّه سمع أجمل نكتة على الإطلاق .

إذن هذا ما حدث يا فريتز . لقد أردت أن تقول لي هذا منذ البداية بينما ظننت أنّك هنا لشراء الحمام من نكماير الذي يعرض كلّ ما عنده للبيع .

واستمرّ الصقران في الدوران ، غير أن الشيخ هاوك تطلّع هذه المرّة إلى أعواد الثقاب المحترقة ، نعم ، أعرف ، أعرف منذ زمان أن جبل هذا المنجم رديء ويتفتّت كالرمل .

هل وقف على حقيقة الأمر ؟ سيبدأ اللعب الآن ، هل أوفي سيلعب ؟

تقول إن الانهيار قضى على ثلاثة . . . ولكن لماذا ثلاثة . . .

لماذا لم يكن اثنين . . . أو واحداً . . . أو لا شيء ؟ وصرخ فجأة : لماذا حتى ولو واحد ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ يا فريتز . لماذا ؟ هل لأن الأسياد لا يعرفون أن حياة الإنسان أثمن من طن من الفحم الحجري ؟ أهكذا ؟ أهكذا ؟

يا إلهي ، كم هو على حقّ ، قال برنكهوف في سرّه ، كم هو على حقّ . ولكن ماذا باستطاعة الإنسان فعله ؟ هل يستغني عن العمل ؟

تطلّع هاوك إلى البيت الذي خرجت منه زوجته وألقت ببصرها إلى الطريق من دون أن تكترث للرجلين الواقفين عند بوابة الحديقة . وفي الشارع يرى الإنسان عمال المنجم يسرعون ، ومنهم من يهرول .

إنّهم سيتمكنون من مشاهدة اللعب على شاشة التلفزيون ، قال برنكهوف في نفسه .

ولكن يا فريتز ، كيف سأخبر زوجتي ؟ قل لي فقط كيف ؟ كيف ؟ سأل الشيخ يائساً .

ماذا يا ويليم ، ماذا ؟

شكراً لأنّك أتيت يا فريتز . ولكن كيف سأعلم زوجتي ، قل لي فقط كيف ؟ سأخبرها بنفسي ، أجاب برنكهوف .

هل جننت ؟ يا إلهي ، كيف سأفعل ذلك ؟ لعلّه سيطلب مني أن أخبر جميع أقربائه . لقد بدأ اللعب الآن .

تناول الشيخ هاوك مقصه ومشى على الأعشاب الطويلة .

انتظر برنكهوف حتّى دخلت الزوجة في البيت وتبعها . وشمّ في الداخل رائحة السمك المقلي وسمع قرقعة المقالي هنا وهناك . وبعد أن وقف مدّة طويلة تنفس عميقاً وعدّ كطفل أزرار سترته : أفعل أو لا أفعل ، أفعل . . . وبسرعة دفع الباب فاندهشت الزوجة لرؤيتها رجلاً غريباً عوضاً عن زوجها أو ابنها .

نعم ؟ تفضل ! هل تسأل عن زوجي ؟ إنّه في الحديقة . . . ولكن ، ألم تتحدّث معه ؟ يجب أن أخبرها الآن وبسرعة كي ينتهي كلّ شيء . بسرعة ، فقط بسرعة . ظلّ صامتاً . أراد أن يقترب من المرأة ولكنه بقي واقفاً عند العتبة يبرم قبعته بيده ، يبرم قبعته وحسب .

لاحظ برنكهوف كيف تتسع عيناها ، وكيف ارتمت على الكرسي . ومن ثمّ صرخت : كلاّ ! كلاّ ، كلاّ . . . ليس هذا صحيحاً !

استدار برنكهوف بعجلة وخرج . قصّ الشيخ عشبة طويلة زرقاء وقال لبرنكهوف : ستأتي صاحبة ابني في الحال ، أو بالأحرى يجب أن تكون هنا حتّى الآن . إنّها تأتي بالزهور . عندها معطف من فرو .

باستطاعتك الدخول ، قال برنكهوف راكضاً .

نعم يا فريتز . . . نعم ، كم هي حلوة فتاته ، إنّها . . .
واختفى الصقران .

وعندما وقف برنكهوف ثانية على الطريق كان يتصبّب عرقاً ممّا جعل قميصه يلتصق بجسده ، لقد انعقد العرق بين حاجبيه . وأخيراً راح يمشي مبتعداً . لم يكن من أحد على الطريق ، كانت المنطقة خالية من البشر ، وفي نهايتها حيث ينتهي الطريق أيضاً جلس برنكهوف على العشب المغبر على جانب الطريق وراح يمسح وجهه .

يا إلهي ، يا لهم من بشر ، إنّهم يجلسون أمام التلفزيون ويشاهدون اللعب . يا لهم من بشر ، إنّهم ينظرون وينظرون ويصرخون بوحشية . وأنا . . . ترُى هل لعب أوفي ؟

ترجمة : فؤاد رفقة

الأمر المفتوح

بقلم إلزه أيشنجر

لم تبعث القيادة منذ مدّة طويلة بأوامر ، وبات من المحتمل أن تمكث الكتيبة طوال الشتاء . كانت ثمار التوت البرّي الأخيرة في الشجيرات المحيطة قد تساقطت وتعفّنت وسط الطحالب ، وكان جنود الصفوف الأماميّة ضائعين قابعين في قمم الأشجار العالية يراقبون حركة الظلال . أمّا العدو فقد كان مستبدّاً بالناحية الأخرى لا يتحرّك بهجوم ، وكانت ظلال الأشياء تتحرّك فتزداد كلّ مساء طولاً ، وأمّا الغيوم المتصاعدة من المنخفضات فكانت تزداد كلّ صباح كثافة . وكان من بين شباب المتطوّعين في جيش الدفاع فريق سئم الشمس والقمر ، وأحسّ أنّه لم يُخلق لهذا النوع من الحرب ، وصمّم على الهجوم في حالة الضرورة ، حتّى دون انتظار أوامر ، قبل أن يبدأ فصل هطول الثلج .

فلمّا أُرسل أحد هؤلاء في يوم من الأيّام التالية حاملاً إشارة من قادة الكتيبة إلى القيادة ، لم يتوقّع خيراً ، إذ كان يعلم أن القيادة على تهاونها في بعض الأمور ، لا تعرف التهاون إذا حدث تمرّد . وتصوّر بعض الأسئلة التي وُجهت إليه في القيادة بعد أن تسلم الإشارة ، على أنّها ما يشبه الاستجواب ، فازداد اضطرابه .

وزادت دهشته عندما دفعوا إليه بعد انتظار طويل بأمر مقفل مختوم وكلّفوه بالعودة به وتسليمه إلى الكتيبة قبل حلول الليل ، وبسلوك أقصر الطرق ، وأطلعوه على المواضع المكشوفة للعدو مبيّنة على خريطة ، وأعطوه رغم إرادته مرافقاً . وأطلّ من الشباك المفتوح أمامه فرأى بداية الطريق التي كان عليه أن يسلكها . كانت هذه الطريق تمرّ مائلة خلال المنطقة الخالية من الأشجار وتنتهي على نحو عابث بين شجيرات البندق . وكرّروا توصية الرجل بالحيطة والحذر . ثمّ انطلق الاثنان . كان الوقت بعد الظهر بقليل ، وكانت الغيوم قد تجمّعت عند المرعى شبيهة بالحيوانات الجائعة ، ثمّ ضاعت هادئة بين الأدغال . كانت الطريق وعرة رديئة يستعصي على العربات سلوكها في بعض مواضعها ، وكانت الشجيرات الصغيرة ملتحمة بعضها بالبعض ، وكانت أغصانها تلطم أعين الرجلين إذا أسرعت العربة . كانت الغابة تلوح

كأنّها في انتظار حملة الأخشاب لعظم اكتظاظها ، وكان النهر الذي تدركه الأبصار في الأعماق هنا وهناك وراء المواضع المجرّدة من الأشجار يبدو كأنّما يجهل هذه الحال . وبدت فوق الذرى الأخشاب المقطوعة وهي تضيء في شمس الظهر . لم يكن هناك في الطبيعة شيء يعرف أن له حدوداً .

كان الاثنان على عجل ، يريدان اجتياز صفوف الشجيرات البرية التي تقوم هنا وهناك بين جذوع الأشجار الكبيرة ، والتي كانت لقصرها تمكنهم من النظر إلى البعد العميق وتكشفهم في الوقت نفسه لأنظار العدوّ . كان السائق يقفز بالعربة فوق الجذور ، ويلتفت من حين لآخر إلى الرجل الذي يحمل أمر القيادة ، وكأنّما أراد أن يطمئن على حمولة العربة . وكان هذا التصرّف يغيظ الآخر ويؤكّد شكوكه وارتيابه بالذين حمّلوه الأمر .

ماذا تضمّن الأمر الذي أوصله إلى القيادة ؟ لا بدّ أنّه تضمّن أن أحد جنود المواقع الأماميّة النائية قد لاحظ تحرّكات فيما وراء النهر . ولكن هذه الإشاعات كانت تتكرّر من حين لآخر ، وربّما كانت رئاسة الأركان تختلقها اختلاقاً لتهدىء بها النفوس ، وربّما كان إرسال الأمر مجرد مناورة . وكانت الثقة التي أُبديت له عندما كُلّف بحمل

الأمر مصطنعة كاذبة . إذا كانت تحتوي على شيء فريد مباغت ، فلا بدّ أنّه من الممكن استنباطه من مضمون أمر القيادة الذي بين يديه . وقال في نفسه إنّه من الخير أن يعرف هذا المضمون لأنّه يسلك طريقاً مكشوفة للعدوّ ، فإن سُئل لِمَ فتح الأمر المغلق المختوم ، ردّ بهذا السبب . وتحسّس المظروف ولمس الخاتم . وظل كلفه بفتح المظروف يزداد ازدياد الحمّى ، كلّما انخفض نور النهار .

لكنّه أراد أن يمهل نفسه ، فرجا الآخر أن يترك له مكانه على عجلة القيادة حيناً ، وانطلق يقود العربة ، فتولاه الهدوء . كانا يسيران بالغابة منذ ساعات طوال ، وكانت الطريق في بعض مواضعها تمتلىء بأحجار سقطت من الجبل ، واصطنعت القوات منها المتاريس والاستحكامات ، وكانت هذه الأحجار توحي بقرب المكان الذي يقصدانه . وكان هذا القرب يُنزل السكينة على قلب الرجل ويجعله يعتقد أنّه ربّما استطاع أن يحول بينه وبين فض الخاتم . كان يقود العربة هادئاً مطمئنّاً . فلمّا بلغا الموضع الذي تهوي فيه الطريق كالمنتحر إلى هذيان مباغت ، وقعت العربة في مستنقع وتوقف المحرّك . وخيّم السكون وزادته أصوات الطيور سكوناً وامتدّت الأعشاب البريّة حول المكان من كلّ جانب . ورفع الاثنان العربة وأخرجاها من المستنقع ، واقترح الشاب أن يصلح تلفاً بها

يعيق سيرها ورقد تحتها . وبينما هو ممدد تحتها ، فتح الرجل الأمر دون تفكير في شيء آخر سوى الفتح ، ولم يبذل حتى أقلّ الجهد ليبقي على الخاتم سليماً ، ثمّ انحنى على العربة وراح يقرأ الأمر . كان الأمر ينص على إعدامه رمياً بالرصاص.

وأعاد الورقة إلى جيبه الداخلي قبل أن يخرج الآخر رأسه من تحت العربة ويقول له متهلّلاً : « كلّ شيء على ما يرام! » ويسأله هل يعود إلى قيادة السيارة . نعم كان عليه أن يعود إلى قيادة السيارة . وبينما انهمك الشاب في إدارة المحرّك ، فكّر الرجل هل الأفضل أن يطلق الرصاص عليه الآن أم أثناء القيادة ، فلم يعد يخالجه أدنى شكّ في أن هذا الشاب الذي يرافقه لا يزيد ولا ينقص عن أن يكون حارساً عليه .

واتسع الطريق عند أعمق نقطة له كأنّما ندم على انحداره المفاجىء ، ثمّ اتجه إلى أعلى في عنف ، هنالك قال الرجل في نفسه : « ما أشبه الطريق بروح منتحر تحملها الملائكة » . ولكنها إنّما تحمله إلى المحكمة حيث يتأكّد ذنبه الذي ظلّ يحمله محمل الحقّ والخير ألا وهو التصرّف بدون أمر سابق . ولكنه ظلّ يدهش للجهد الذي يبذلونه معه .

ولمّا حلّ الظلام رأى خطوط هيئة الآخر ماثلة أمامه ، رأى جمجمته وكتفيه وحركات ذراعيه — رأى وضوحاً في هذه الخطوط لم يؤت هو مثله ! فإن هيئة الشيء المعلوم تنساب

ضائعة في الظلمات .

والتفت السائق إليه وقال : « سنقضي ليلة هادئة ! » فلاحت له العبارة تهكّماً خالصاً . ويبدو أن إحساس السائق بقرب الوصول حرّك لسانه ، فاستأنف دون أن ينتظر ردّاً : « لعلّنا نصل سالمين ! » فتناول الرجل مسدسه من حزامه . كان الظلام دامساً في الغابة حتّى إن المرء ليكاد يعتقد أن الليل قد خيّم . وراح السائق يقول : « عندما كنت طفلاً كان عليّ أن أجتاز الغابة دائماً من المدرسة إلى البيت ، وكنت إذا حلّ المساء أغنّي بصوت مرتفع ، في ذلك الوقت . . . »

وبلغا الساحة الأخيرة المجرّدة من الشجر بسرعة غير متوقعة . وفكر الرجل : فلأنتظر حتّى نتجاوزها ، لأن الغابة تعود بعدها إلى الكثافة ، قبل أن تنفرج على القرية المنسوفة التي تعسكر فيها الكتيبة . ولكن هذه الساحة الأخيرة المجرّدة من الشجر كانت أفسح من السابقات ، وكان النهر يتلألأ ويبدو أكثر قرباً ، وكانت شبكة عنكبوتيّة من ضوء القمر تنبسط فوق الشجيرات المصطفة الصاعدة إلى الذروة . أمّا الطريق فكانت مشقّقة من أثر عجلات العربات التي تجرّها الثيران والتي كانت قبل زمن طويل تسلك هذا السبيل ، وكانت الشقوق الجافة تشبه في ضوء القمر الجزء الداخلي من أقنعة الموتى . وكان الناظر عبر الساحة الجرداء إلى أسفل تجاه

النهر ، يتبيّن بوضوح أن الأرض تحمل طابع وجه غريب .

كان الرجل يحمل المسدس أمامه على ركبتيه . لذلك عندما انطلقت الرصاصة الأولى أحسّ كأنّما أطلقها ضد إرادته وقبل الأوان . فلمّا أصيب ذلك الجالس أمامه ، كان شبحه على جانب كبير من حضور البديهة لأنّه استمرّ في السير بسرعة أكبر . وظلّ الرجل وقتاً طويلاً نسبيّاً إلى أن تبيّن أنّه هو نفسه الذي أصيب . فسقط المسدّس من يده وتدلّت ذراعه خائراً . وانطلقت طلقات عديدة لم تصب شيئاً قبل أن يصلا الغابة .

وأدار الشبح الجالس أمامه وجهه المتهلّل ناحيته وقال : « ما أسعدنا وقد وصلنا هنا ، لقد كان سياج الشجيرات مكشوفاً للعدوّ ! » فقال الرجل : « قف ! » ولكن الشاب ردّ عليه قائلاً : « ليس هنا . سنقف بعد أن نتوغّل إلى الداخل بعيداً » . فقال الرجل يائساً : « لقد أُصبت » . وسار الشاب مسافة دون أن يتلفت ، ثمّ وقف فجأة وربط جرح الرجل وتمكن من وقف النزيف وقال عبارة المواساة الوحيدة التي كان يعرفها : « لقد اقتربنا من هدفنا » . ففكر الرجل : « لقد أعدوا العدة لقتل الجريح » ، ثمّ قال : « انتظر ! » فسأله الشاب متعجلاً : « هل هناك شيء آخر ؟ » فأجاب : « أمر القيادة ! » ودسّ يده اليسرى في جيبه

الداخلي ليلتمسه . فقد طاف نص الأمر بباله وهو في لحظة اليأس ، وتمثّل له على نحو آخر . كان الأمر ينص على قتل حامله دون ذكر الاسم .

وقال الرجل : « ثيابي مضرجة بالدماء . . . خذ الأمر أنت ! » وفكر في أن الآخر إذا امتنع عن أخذه ، فسيكون في هذا إيضاح كلّ شيء . وأحسّ بعد لحظة من الصمت كيف أخذ الآخر الخطاب من يده وهو يقول له : « حسناً » .

وانقضى نصف الساعة الأخير في صمت . كان الوقت والطريق قد تحوّلا إلى ذئبين متصارعين ، وإذا كانت خراف المراعي السماويّة تسعى مطمئنة ، فقد تحوّلت المراعي السماويّة إلى ساحة القصاص .

كان المكان الذي تحتلّه الكتيبة قرية صغيرة من خمسة بيوت احترق ثلاثة منها في الالتحامات الماضية . وكان وضوح الدور للبصر دليلاً على أن عذرية المساء لم تستسلم لليل . كان المكان محاطاً بالغابات ، وكان الكلأ مهروساً انتثرت فوقه العربات والمدافع وامتدّ سور من الأسلاك الشائكة يحدّ المكان من ناحية الغابة .

وسأل الحارس السائق بمَ أتى فقال : « بجريحٍ وأمرٍ من القيادة » . وسارا بالعربة حول المكان . وبينما الرجل يحاول النهوض في العربة ، خطر بباله أن هذا المكان لا يشبه الأماكن

الأخرى في الدنيا ، إنّه يختلف عنها في أنّها جميعاً يمكن تصورها على أنّها فقط بداية . وسمع صوت سائل يقول : « هل هو في وعيه ؟ » فظلّ مطبقاً عينيه ، فقد كان الخير في كسب الوقت .

وقبل أن يُعلن شيء بشأنه ، التمس في نفسه قوى جديدة ، وفكّر في وسائل تسهل عليه الهرب . فلمّا حملوه من العربة ، ظلّ متدلّياً خائراً في أيديهم .

وأخذوه إلى بيت من البيوت وساروا به خلال فناء به بئر . وهناك جاء كلبان إليه وظلا يشمشمان حواليه . كان الجرح يؤلمه . وكانوا قد أرقدوه على أريكة في مكان بالدور الأرضي . لم تكن هناك مصابيح موقدة ، وكانت النوافذ مفتوحة . وهناك قال السائق : « اعتنوا به أنتم الآن ، فليس لدي وقت أضيعه » .

وتوقّع الرجل أنّهم سيضمدون جرحه . ولكنه عندما رفع جفنيه بحذر ، تبيّن أنّه وحده في المكان . لعلّهم انصرفوا لإحضار أربطة . كان البيت يعجّ بحركة ذهاب وإياب نشيطة ، وكانت هناك أبواب تُقفل بعنف ، وأصوات تتعالى . ولكن هذا الصخب كان يحمل في ذاته صمته الخاص ، وكان يشبه تصايح الطيور بالغابة ، هذا التصايح الذي يزيد من حدّة السكون . وفكّر الرجل : « لِمَ كلّ هذا ؟ » ولما لم يأتِ

أحد بعد دقائق ، فكّر في الهرب فوراً . كانت هناك في المدخل أسلحة مسندة إلى الحائط . وفكّر في أن يقول للحارس إنّه مكلّف بحمل أمر جديد إلى القيادة . أمّا البطاقة الشخصيّة فكانت معه . وفكّر أنّه إذا عجل بالتصرّف فلن يكون هناك من قد علم بالأمر بعد .

وهمّ بالنهوض ، ولكنّه اندهش من شدّة الضعف الذي كان يريد أن يخفيه . ووضع قدميه على الأرض متعجلاً ، ونهض ولكنّه لم يستطع الوقوف . فعاد إلى الجلوس واستجمع قواه وحاول مرّة ثانية . وفي هذه المحاولة الثانية تمزّق الرباط الذي كان الآخر قد ضمّده به ، وانفجر الجرح ، انفتح كما تنفتح الرغبة المكبوتة . وأحسّ كيف أغرق الدم قميصه وبلّل خشب المقعد الذي ارتمى عليه . ونظر من النافذة من فوق جدار مطلي بالجير إلى السماء . وسمع وقع حوافر خيل . كانت هناك خيول يأتون بها ويضعونها في الإسطبلات . وكثرت التحركات في البيت ، وارتفعت الأصوات ، ودلّت الحال على أن شيئاً غير متوقع قد حدث . ورفع نفسه معتمداً على رفّ الشباك ، ولكنه وقع . فصاح ولكن أحداً لم يسمعه . كانوا قد نسوه .

وبينما هو راقد ، فسحت ثورة نفسه مكاناً لفرحة يائسة ، فقد لاح له النزيف شبيهاً بالهرب من خلال أبواب

مغلقة ، شبيهاً بالمرور العابر على الحراس ، وتمثل له المكان الذي لم يكن يضيئه إلاّ بياض الجدار المقابل كما يضيء الثلج ما حوله ، تمثل له واضحاً كحالته . أليست أصفى حال في الدنيا هي حال الوحيد المتروك وانسياب الدم ؟ وما دام هو قد اشتهى هذا الفعل لذاته ، لا من أجل الدفاع ، فقد صح الحكم الذي نُفذ فيه ، وما دام الرقود على الحدود قد أسأمه ، فهذا خلاص له .

وانطلقت طلقات على بعد . وفتح الرجل عينيه وتذكر . لقد كان من الخطل أنّه سلّم الأمر . لقد أعدموا الآخر ، بينما هو راقد هنا ينزف . لا بدّ أنّهم جرّوا الآخر إلى الخارج بين حطام المزارع . ربّما عصبوا عينيه ، وظلّ فمه مفتوحاً من الدهشة . ثمّ أعدوا السلاح ، وصوّبوا وصاحوا : انتباه ! . .

فلمّا عاد إلى وعيه أحسّ أن جرحه مضمد ، واعتبر هذا التضميد خدمة من الملائكة لا ضرورة لها ، ورحمة أتت متأخرة مسرفة في التأخير . وقال للسائق الذي انحنى فوقه : « ها نحن أولاء نلتقي » . فلمّا رأى ضابطاً من الأركان واقفاً عند نهاية الفراش تبيّن في ذعر أنّه لم يمت .

وقال : « الأمر . ماذا حدث للأمر ؟ »

فقال الضابط : « أتلفته الطلقة قليلاً ولكننا استطعنا

قراءته » .

فعاد يقول : « كان عليّ أن أسلّمه » .

فقاطعه السائق : « لقد وصلنا في الوقت الملائم . فقد بدأ العدوّ على الشاطىء الآخر الهجوم من كلّ ناحية » .

كان هذا الخبر آخر شيء يمكن توقعه . وتحول ضابط الأركان للانصراف ، فلمّا بلغ الباب استدار مرّة أخرى وقال ، حتّى يكون قد قال شيئاً : « من حسن الحظّ أنّك لم تعرف مضمون الأمر ، فقد كانت لنا شفرة عجيبة لبداية العمليّة » .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

الكاتب المسكين بو

بقلم إلزه لانجنر

لم يعد « بو » كاتب العرائض وحيداً في جلسته وسط تراب وعفار « هانكاو » . ففي صباح ذات يوم وفد أحد الغرباء في مشية بطيئة لا تلوي على شيء ، مقتفياً أثر أشعة الشمس الساطعة . وراح يتطلّع مليّـاً نحو السماء في كلّ من جهاتها الأربع ، ثمّ وجّه نظرة متئدة إلى الطريق المحصور كالبلعوم ، وأخيراً ــ بعد أن حيّا « بو » بانحناءات ثلاث عميقة ــ جلس على بعد مناسب منه .

وخطر لـ « بو » ــ بأنفه المدبب ــ وهو يتفحص الوافد من زاوية عينه في شيء من الريبة : إن لم يفسد عليّ أعمالي ، فهو على الرحب والسعة . لم يكن حتّى لحاسته السادسة أن تتبين ما إذا كان الجالس على مقربة منه راهباً أم قاطع طريق أم مجرد سائل . على أيّ الحالات فقد استراح « بو » بعد أن

تأكّد أن الوافد ليس كاتباً ، وأنّه لا بدّ أن يكون إنساناً معدماً يبطن غناه داخل ذاته — هذا إذا كان له من الغنى أيُّ نصيب .

كان وجه الوافد مستديراً مفلطحاً جعلته الأيام في لون بني داكن للغاية . وتموّجت عليه ألف تجعيدة بداية من منبت شعره حتّى جبهته وخديه إلى رقبته وياقته الّتي في لون التّربة . وعلت بشرة أنفه الكبير الأفطس قشور فبدت مقدّمته وكأنّها قد تحملت صابرة حرقة الشمس لفترة طويلة . وعلى رأسه المحلوق كالصلعة كان يضع قبعة ضخمة من الغاب ، مدببة في اتجاه السماء . غير أنّه في الوقت الذي أضفت عليه هذه القبعة هيئة مهيبة ، برزت ساقاه جافتين ضامرتين من فتحتي سروال ضيّق كالأنابيب . ولم يكن سرواله هذا قصيراً لمسايرة الأزياء الحديثة أو لأداء نذر أخذه صاحبنا على نفسه ، وإنّما لتفتُّل نسيجه ولنصول لونه بمرور الأعوام وتعرّضه لتقلبات الطقس ، وكذا تقلّص حجمه — كان صاحبنا يحمل حول عنقه سلكاً تتدلّى منه قطع من العملات النحاسيّة ، كان ينزع واحدة منها في كلّ يوم بطريقة معقدة ، ثمّ يذهب بها إلى صاحب مطبخ في الناحية فيملأ له صحن أرزّ . وفي كلّ يوم ثالث كان يسمح لنفسه فوق ذلك بقطعة من الثوم . ولم يبد أن رغباته كانت تزيد عن ذلك في شيء . وقد أثارت

هذه الظاهرة إحساساً بعدم الاطمئنان في نفس « بو » . فمن يزدري متع اللحم لا يلبث أن يكون عرضة لنزق القوى الشيطانيّة ، ونادراً ما يستمتع بالأنفاس الذكيّة الصادرة من الأرواح الطيّبة . كما حرّك الريبة في صدر « بو » أن صاحبنا لم يكن يفعل شيئاً على الإطلاق ، بل إنّه لم يتحرّك إلاّ نادراً. كلّ ما كان يفعله هو أن يجلس في مكانه محملقاً بهدوء في صفحة السماء التي تغطي الطريق الضيّق ، ثمّ يحوّل عينيه الحكيمتين في هدوء تام نحو الشارع ويصمت .

بعد أن ظلّ صمتهما المتبادل ثمانية أيّام على هذا الحال ، أصبح « بو » على معرفة كافية بصاحبنا الوافد ، جعلته لا يهاب أن يعكر صفو هذا الاتفاق الصامت بينهما بكلمة . إذن فقد نهض من مكانه المفضل في مدخل دار مليئة بالأطفال وتقدم في مشية متصلبة نحو الجهة الأخرى من الشارع ، حيث كان الغريب جالساً بالقرب من حافة الطوار ، وقعد القرفصاء إلى جواره وراح يسأله بأدب مفعم بالثرثرة عمّا يبحث عنه في هذا الزقاق المزري ، الذي يترعرع فيه الفقر وتزدهر الجريمة .

حرّك الغريب وجهه نحوه ، وتطلّع إليه بنظرة قصيرة ، إلاّ أنّه من شدّة تركيزها كاد « بو » أن يندم على ضعفه أمام شهوة استطلاعه . فقد أحسّ كيف ثقبت هذه النظرة

المنقبة إحساسه السلمي المريح . وأخيراً أجاب ذو القبعة المدببة بلهجة يصعب فهمها : إنّه على ترحال كالموت الأبدي .

اتّسعت حدقتا عيني « بو » ، الخاليتين من الرموش ، وراحت يده تهرش وراء أذنه وكأن فكرة لمعت في رأسه . ثمّ ضحك بفتور واقتضاب ، وقال وهو مستغرق في التفكير : ربّما كان السيّد الفاضل « داعياً إلى جنّاز » ، أو « مؤبناً للموتى بالأناشيد » — أو من قبيل حملة الرايات في حفل الدفن ؟ وإذ لم يبدُ على وجه صاحبنا أيٌّ تغيير ، راح يضيف بسرعة : أو ربّما كنتم أحد كهنة « تاو » ، ممّن يرافقون الأرواح الميتة في جميع سماوات الأبد ، إلى أن يحطّوا بها — بعد رحلة شاقة طويلة — في المكان المعين لها ؟

التأمت أواصر الثقة بينهما بسرعة على غير توقع ، وصاح « بو » وهو يرغي ويزبد ، بقوله : « يا للفاجعة ! » ثمّ تنفس الصعداء بزفرة أخرجت معها ما بصدره من الغمّة . ففي هذه الناحية المسكونة من جميع الأرواح الشريرة لا يموت المرء ميتة كريمة ، على نحو ما نصّت عليه تقاليد الأجداد : ذلك أن كلاًّ يعادي جاره أشدّ العداء . والسرقة والخداع والحرب والقتل ثمّ الثورة — التي تحدث فيها دائماً نفس الأشياء وتتبدّل فيها الأمور جيئة ورواحاً بلا داعٍ على الإطلاق — كلّ هذا أصاب الأيّام بالتقلّب والاضطراب ،

وامتلأت الليالي بصدى وقع أقدام اللصوص ، وأصوات المحاربين القبيحة ، وصرخات النساء المذعورات . فما من أحد يأمن هنا على حياته ، وأقلّ من ذلك ضمانة لموته ، إلاّ أن يُذبح بغتة أو يُقتل مع جميع حواسه السبع ، هكذا بطريق الصدفة أكثر منه لضرورة معقولة . إنّه مصير كلّ مقيم هنا بكلّ تأكيد . هكذا تتابع استعراض « بو » لصور الأهوال في تضخيم قاتم مهيب ، بينما نسي تماماً أيّام السلم المريحة ، عندما كان القدر المتواضع من الرفاهية كفيلاً بأن يجعل ملامح الفقر بحرمانه وتعرّجه يسيرة ملساء ، وأن ينبعث في الزقاق الخانق رجع صدى الأغاني والضحكات وعزف الربابة ذات الوتر الواحد . نعم لم يذكر « بو » إطلاقاً — في غمار تحذيره الإنساني — أن عمله الكتابي كان يدرّ في أوقات السعادة وازدهار التجارة ، مثلما كان يدرّ في أعوام الحرب المضطربة ، حين جعل الجند منه سمساراً للممتلكات المسروقة .

وكأن مستمعه تمكن أن ينصت إلى ما كان يتعين على محدثه أن يخفي من مسلّمات ، أو أن أذنه راحت تستمتع بالأصوات السماويّة ، بينما كان الحزن الأرضي يتوارى إلى سمعه : على أي حال فقد ابتسم ، وبدا كأن قمراً لطيفاً سمحاً أشرق على ملامح وجهه ، وبينما راح يدير إليه وجهه المستدير الظاهر عليه آثار الزمن ، قال موضحاً بهدوء :

إن رسالته لا تطمع في إعاقة الأجرام فذلك ليس في مستطاع «بوذا» نفسه ، بل إنّه يهتم بألعن الجرائم بالذات ، لأن فيها تيسيراً لتمجيد ذكرى ضحاياها على الأقل بعد موتهم . بينما كان يقول ذلك أخذ يتفحّص قسمات وجه «بو» — ذي الشكل المدبب — وكأنّه يريد أن يطبعه في ذاكرته تماماً . . .

ربّما كان الحكيم الأكبر سنّاً يحترف السحر ، ويستطيع أن يرى المستقبل ، ويحوّل الشرّ إلى خير ؟ هكذا تساءل «بو» بانحنائه لصاحبنا ، وهو ينز ويتناثر لعابه من الانفعال الذي تصاعد فائراً من أحشائه حتّى أسرعت دقات قلبه وغشيه شعور بالغثيان .

لئن كان يعني بالكاهن واحداً من أولئك المنتمين إلى أسرة أحد المعابد أو إلى أيّة رابطة أخرى ، فهو ليس بكاهن ، وإنّما هو رسّام .

فصاح «بو» وقد استولى عليه التفكير والشك : «بلا فرشاة ، أو حبر صيني ، أو ورق ؟ ! » إن «بوذا» نفسه لو أراد أن يرسم نفسه لكان بحاجة إلى الأدوات اللازمة .

إن مهمّته تتمثّل أوّلاً في التعرّف والرؤية ، وفي اللحظة المناسبة سيجد الحبر الصيني والريشة والورق في يده — ونظر الرسام مسهماً تجاه الأكمام الواسعة لثوبه البالي .

فأجاب « بو » متعجّباً : لعلّ الإتيان بالمعجزات كان ممكناً في سالف العصور ، أيام كبار المعلمين الحكماء ، أمّا اليوم فلكلّ شيء ثمنه الذي يُعلن عنه بحروف كبيرة أمام كلّ حانوت ، ويراقبه رجال الشرطة علاوة على ذلك . وإن إهداءه أدوات الرسم ليعدّ ببساطة تخفيضاً لسعر البيع ، وهي بالتالي محرّمة — أعاد هذا المنطق المعكوس وعيه إليه بعد أن زعزعته هذه المناقشة . فهو لم يرغب في التزوّد من رذاذ الحكمة الغريبة عليه . وإنّما كان تقديره لمنبع معرفته — على صغره — أعمق من إعجابه بتدفق الحكمة الغريبة كالشلال .

تطلّع الرسام أمامه إلى أسفل حيث أرض الطريق المتعرّجة ، وهناك بين حجرين منشقين عن بعضهما نبت عشب سعيد له أوراق صفراء . ولم يبدُ له ضروريّاً أن يجيب على هذه الثرثرة الحمقاء . وإنّما اقتصد لعابه للمهم من الإفادات ، التي يرى شخصيّاً أنّها تستحق أن تعطى من إنسان لإنسان .

أمّا « بو » الذي كان يهرشه حبّ الاستطلاع كقميص خشن ، فضلاً عن أنّه لم يرد أن يقطع حبل الحديث الشائق ، على الأقلّ طالما أنّه لم يلمح زبوناً متجهاً إلى منضدته المهزوزة ، القائمة في مدخل بوابة الدار ، فتوسل بصوت متواضع : ربّما سمح الأخ الأكبر الجليل أن ينير جهله ويوضح له سرّ الموهبة الخاصة بفن الرسم ، فالفارق بين لوحة ولوحة يمكن

أن يبلغ الفارق بين القمة والهاوية أو بين التنين والفرس ، حتى إنّه بعقله المتواضع استطاع أن يُدرك ذلك من تلقاء ذاته .

صمت الرسام ، إلاّ أن تأثير صمته بدأ يملأ الجوّ بالأفكار والأحاسيس الغامضة ، فبدا وكأنّه محلول لم تمرّ فيه الكلمة بعد ، ثمّ تتكوّن بقواها السحريّة الموضّحة .

« القلب بوذا وبوذا هو القلب ، ولا يوجد ما هو خارج قلبي . إنّه مبدأ قديم ولكنّكم نسيتموه . أنتم لا زلتم تضيعون كلّ الألوان الأرضيّة ببريق زخرفها في عمل لوحة واحدة ، بينما يكفي لون واحد لرسم السماء والماء والجبال والحيوانات كافّة ، ليتعرّف عليها كلّ من عقل ذلك . فالبني لون الأرض والشقاء والجماهير ، وهو لون النشأة والفناء . إن الرسم باللون الواحد منبثق عن عقيدة الوحدة المقدّسة التي تتصرّف فيما وراء الأشياء » . ثمّ أضاف في تأنيب خفيض : « أنتم جميعاً تعيشون حسب قوانين لا تعرفون عنها شيئاً . وفي هذا حكمة وجهالة في نفس الحين » . ثمّ ما لبث أن انغلق فمه فأصبح كخطّ رفيع يكاد لا يُرى .

أخذ « بو » نفَساً عميقاً وهو يتأهّب للردّ عليه بأسلوب عنيد معقّد ، إلاّ أن الهواء اندفع رغماً عنه من بين شفتيه اللتين كان قد زمّهما بشدّة ، فأحدث صوتاً كالحفيف

أنصت إليه بوجه مفتون جذل . وكان عنقه الشديد النحافة ممتداً إلى الأمام ، وهكذا لم يلحظ أن قرويّة أخذت تحكّ قدميها كالدجاجة أمام منضدته وتنظر إليه بعين لا تعرف الانتظار . وفي شيء من الجهد تذكر عمله . وانتقل في مشية متصلّبة نحو مكانه القديم ، دون أن ينسى أن ينحني أمام الغريب في إجلال .

بعد ذلك الحديث بدأت أمارات التغيير تظهر على « بو » . وكانت في أوّل الأمر تكاد لا تُلحظ إذ بدت على شكل انصراف ذهنه أثناء الكتابة ، ممّا جعله يخلّف بقع حبر ويرسم على الورق علامات خاطئة . ثمّ تبع ذلك تعب مفعم بالطيبة أخذ يتساقط رويداً رويداً على جسده المنهك من طول اليقظة والإجهاد . وبدلاً من أن يسرع دائماً وراء مطالب الحياة اليوميّة تعوّد أن يجلس على مقعده المنخفض أمام منضدته ويسرح في عالم آخر ، بينما تسقط ذراعاه في عدم اكتراث إلى الأمام ، ويتقوّس ظهره ، ويجفّ الحبر ، وينصرف عنه حتّى عميلاه المخلصان ، وهما الأرملة في الدار المجاورة ، والضرير الذي يسكن البيت المقابل ، ينصرفان عنه بهزّة رأس تنمّ عن التهيّب والنفور — ولكن « بو » لم يبد أنّه شعر بما حدث . أمّا شخصيته المتحدية المتفردة فأصبحت في نعومة الحرير . وتحوّل صلفه إلى تواضع وسماحة

جعلت حوله هالة مشعّة من البركة . وبينما ظلّ يفقد نفسه باستمرار مطّرد حتّى نسي ذاته ، تعاطفت معه مشاعر الفقراء من حوله ، وأحضروا للعجوز الهادىء صحنهم مليئاً بحساء خفيف ، حتى يحظوا منه بكلمة ترافقهم طوال يومهم كنجم أو كوكب حان ، بعد أن تمكنوا من الإعداد لطرقهم وأفعالهم .

ضاع عملاء النسخ والكتابة الذين كانوا يتردّدون على منضدة « بو » في مدخل الدار المكتظة بالسكان ، وبدأ يتجمع (بدلاً منهم) أولئك الزوّار الباحثون عن التزوّد من معين نفسه الصافية الرائقة . كان يجلس في مكانه المعهود ، رفيعاً كهيكل عظمي ، يبتسم لجميع المتاعب والمآزق ، التي كانت تروى عليه . وأحياناً ما كان يضحك بفتور ضحكة مكتومة لرجل عجوز عندما تبلغ إحدى الحماقات مبلغاً زائداً ، أو يضطرب أحد المخاوف بصورة « أرضيّة » شديدة . ولمّا كان هو شخصيّاً لم يعد يفهم كيف يمكن للمرء أن يثور لتوافه الدنيا الرخيصة ، فقد كان زوّاره — الذين أصابهم الغمّ والضيق — يتصوّرون متاعبهم الثقيلة في خفّة الريشة بمجرّد أن تتأمّلها العينان المكدودتان لهذا العجوز . وهكذا كانوا يضحكون معه على حماقتهم ومخاوفهم ، ويعودون مسرعين إلى معترك العمل مزوّدين بعزيمة جديدة .

طيلة فترة التحوّل الذي طرأ على « بو » ، لم يعد إلى سؤال ذلك الرائد والأستاذ الجالس بالقرب من حافة الطوار ، بل إن « بو » كان يعمد إلى تجنّب النظر تجاه معلمه ، حتى إذا ما تضادف أن قفزت عيناه بزاوية جانبيّة تعرّف على الحكيم في نفس جلسته الهادئة دائماً — التي منها وحدها كانت القوّة تتدفّق إليه من الرصيف المقابل . بعد ذلك نسي رائده الغريب ، ولم تعد عيناه تتحوّلان قافزتين إلى الجانب الآخر من الشارع ، كما لم يعد ينطق بكلمة مطمئنة أو مخفّفة ممّا خيّب آمال ذوي المتاعب والكلوم للمرّة الثانية . إلاّ أنّه في هذه المرحلة أصبح لا يهمّه ما يدور في العالم إطلاقاً . أضف إلى ذلك أنّه لم يلحظ أن معالم الشارع بدأت تتغير ، وأن سكان الدار كانوا يمرّون به حاملين أطفالهم الذين يصرخون معهم ويولولون ، بينما الكلّ منجرف في هرب شديد . . . أمّا هو فكان يرى بعيداً في الهواء عاصفة هائجة ، ولم يدر بخلده سوى أنّها جيوش النور (المعروفة لدى البوذيّين بالبودهيساتفا Poddhisattva) تطير عبر السماوات وتملأ عوالم الأبد بأناشيد التسبيح . وأمّا قلبه الذي سكن في إثر القصف الراعد الذي أحدثه سقوط إحدى القنابل ، فلم يتزعزع ، ولم تفعل الجدران الهاوية أكثر من أن أصبحت قبر الجسد ، بعد أن كانت روحه قد غادرته مرفرفة في سعادة .

عندما عاد سكان الحيّ من الجبال التي كانوا قد هربوا إليها أثناء الغارة ، لم يستطيعوا أن يخرجوا جثته من تحت الأنقاض . وتملّك عليهم القلق والاستحياء من وجودهم الذي يمكن أن يباد بهذه البساطة . ومن لم يصبه الذعر منهم أصابه يأس قاتل .

هنا تقدّم الرسّام مؤنّباً إيّاهم على حزنهم . فماذا تعني أجسادنا أكثر من كونها صورة صنعها « بوذا » على ألف شكل مختلف ؟ — المهم هو ما نحن عليه ، لا ما نبدو عليه . وأخرج من كمّه الواسع فرشاة وحبراً صينيّاً وورقاً ، ثمّ رسم أمام عيون المشاهدين المذعورين صورة معلّم الكتابة « بو » دفعة واحدة وبلون واحد . . . وكلّ من كان يعرف منهم « بو » أثناء حياته استطاع أن يتعرّف عليه من خلال هذه الصورة . وربّما لم يكن في استطاعتهم أن يقولوا إذا ما كان أنف الفقيد حادّاً أو غير حاد وخدّاه عريضين أم غير ذلك ، ولكنه كان في استطاعتهم جميعاً أن يحلفوا قسماً على أن هذا المطل عليهم من خلال الصورة المرسومة بالحبر الصيني هو « بو » ولا أحد سواه . وقال لهم الرسام : « هذا هو « بو » الحقيقي » . ورغم أن المساكين والمذعورين لم يفهموه إلاّ أنّهم رغبوا جميعاً في حمل صورة الفقيد العجوز عندما ترتفع مناطيد الإنذار الملوّنة على الساريات إلى

أعنّة السماء ، إشارة لهم كي يبادروا إلى الهرب للجبل بمجرد سماع أوّل نغم لصفارة الإنذار المرعبة . . .

ورسم المصوّر الغريب لوحات كثيرة ، درّت عليه دخلاً طيّباً ، لم يزعجه كما لم يكن سبباً في إسعاده . وحتى يستطيع أن يعمل بصورة أفضل انتقل إلى مدخل عمارة أخرى ، وجلس القرفصاء منحنياً يرسم وجه « بو » الذي صار قديساً يحمي من غارات الجو عند الشعب المؤمن بالغيبيات .

ترجمة : مجدي يوسف

المرفأ الحرّ

بقلم هوبرت فيشته

لوّحت له بيديها من خلف الستائر ، فردّ عليها ملوّحاً بيده صوب الطابق الثالث . ورأته يدخل سيارة النقل . أخذت تنظف مائدة الإفطار من الفناجين والزبدة والمربيات وأوعية الحليب وقشور البيض . « إنّي لا أعرف المنطقة » ، فكرت في نفسها . لقد أراد أن يعرّفها عليها ، لكنه تجنّب ذلك ، وكثيراً ما حاولت التحدّث بهذا الأمر ، غير أنّه كان يتهرّب . « ليس الآن . . . » كان يقول لها إنّها لا تحتمل البرد هناك ، ولم تكن لتعلم ما تعني هذه الكلمة . وكلّما سألته عن الطريق التي تؤدي إلى المرفإ الحرّ كان يتهرّب من الجواب . « لماذا يسمّى بالمرفإ الحر ؟ » ساءلت نفسها . « هل هو حرّ أكثر من سواه من المرافىء ؟ هل يتحرّك عمّال الجمارك والبحارة وعمال المرفإ بحرية هناك أكثر ممّا في بقيّة المرافىء ؟ هل

يوجد هناك قوانين أُخرى ؟ أم هناك يتمّ السماح لمرور البضائع كما يتمّ تسيير الرسائل الملصق عليها طوابع ؟ »

لم تحبّ أن تسأل أحداً عن الأمر ، لأنّها تخشى رؤية معارفها يبتسمون قائلين : « ألا تعرفين ؟ فعلى زوجك أن يكون قد أخبرك من زمان . على كلٍّ ما هو إلاّ مساعد في مركز ، ويظهر أنّه سيترقّى إلى درجة أعلى ، وإذا سار كلّ شيء على ما يرام فإنّه سيصبح مفتّشاً في الجمارك . ولكن حان لك كزوجة أحد عمال الجمارك معرفة معنى المرفإ الحرّ » .

لم تلحَّ عليه بالذهاب أيّام الأحد إلى المرفإ الحرّ ، إذ كان يفضّل المشي إمّا إلى حديقة الحيوان وإمّا على ضفاف النهر . وربّما قررا السفر إلى إيطاليا في العطلة القادمة . لم يشإ التحدّث عن عمله وهو خارج الخدمة ، وكثيراً ما كان يخفي في أعماقه أسرار انتصاراته وانكساراته بدلاً من أن يتحدّث عنها . بعد الامتحان – « كان الامتحان أهمّ شيء بالنسبة له » . هذا ما قاله أكثر من مرّة – ربّما صار أكثر انفتاحاً .

« ما زالت الحياة أمامنا » ، فكّرت في نفسها .

ولو أنّ كلّ شيء يجري على هذا المنوال فإنّها ستكون سعيدة ، مع أن ساعات عمله غير منتظمة ، فقد ينقلب البيت رأساً على عقب كلّما تغيّر وقت عمله فجأة من الخدمة

الصباحيّة إلى الخدمة الليليّة .. غير أن هذا لم يكن بالأمر الصعب . وهو لم يبذر معاشه الذي قدره ٤٥٠ ماركاً ، هذا المعاش الذي اعتاد أن يقبضه في الوقت المحدّد .

« إنّه شاذّ » ، فكّرت في نفسها ، « إنّه ليس كالآخرين » .

لم تشعر بالضجر عندما كان يتركها وحيدة في البيت . فغالباً ما كانت تعمل في المخابز أيّام الأعياد ، وتغسل الملابس بنفسها ، وتكوي ملابس زوجها الثقيلة التي يستخدمها في وظيفته ، هذا كلّه بدون تذمّر . كما أنّها كانت تشتري كلّ حاجاتها وتطبخ في الأوقات المحدّدة . وكلّما عاد من عمله عبر الحدود إلى البيت كان يجد المائدة مهيّأة .

« أيّة حدود ؟ » فكّرت في نفسها بينما كانت تنظف المائدة من البقايا التي ظلّت من الفطور .

« هناك حدود في الشمال حيث كان يخدم في الحرب » .

« لقد كانت فترة جميلة » قال هذا مرّات وأخرج من كيس ممزّق صوراً له ولرفاقه يظهرون فيها ضاحكين ولابسين سراويل فضفاضة ومتكئين بعضهم على بعض .

« كم كنتم فتياناً بعد » قالت هذا كلّ مرّة رأت الصور فيها .

وبرأس إصبعه دلّ على بعض الضاحكين قائلاً : « فلان وفلان وفلان سقطوا في الحرب — أخيراً في روسيا . وهذا

كان أقرب الأصدقاء إليّ ! » وبقيت عيناه لحظات ، وبدون حركة ، مسمرتين على العيون المصوّرة .

« ما هذا ؟ » وسحبت صورة رماديّة مكسّرة من تحت الصور .

« إنّه مشهد لإحدى المعارك . أما عدتِ تذكرين آثار الضوء ، وأشجار التنّوب ، وبريق النار ؟ »

« لا ، فقد كنت آنذاك صغيرة » .

« لو أعرف كيف يبدو المكان الآن » .

« هذه الأيّام لم تعد الحدود الدانمركيّة حدوداً بالفعل » ، فكرت في نفسها .

« ما زالت الحدود قائمة في إفريقيا . الحدود بين الهند وباكستان حدود حقيقيّة — وسط مدينتنا — في المرفإ الحرّ — يتحدّث البعض عن حدود .

« هل يحدث تهريب كثير عندكم ؟ » سألته زوجته .

« التهريب يتطلّب في الأوّل إمكانيّة الوصول إلى بضاعة تستحق التهريب ، ويتطلّب جرأة ، وإذا حدث أن لأحدهم الجرأة في أن يهرّب علبتين من اللحم المحفوظ فإنّه سيقع بالتأكيد في أيدي المفتشين قبل أن يكون قد خرج » .

« ماذا تقصد بالتفتيش ؟ »

« بلاهة » .

« ألا تحبّ العمل على الحدود ؟ »

« إنّي مكتفٍ بوضعي ، فأنا أقبض ما يوفر لنا الحياة إذا أضفنا ما تحصلينه أنت . ربّما كان عليّ تقديم الامتحان للترقية — وربّما لا . على كلّ أنا مكتفٍ — غير أن هذا غير سهل » .

« هل عليك أن تشتغل كثيراً ؟ »

« لا » .

« لست بحاجة لأن تقدم الامتحان من أجلي . كذلك أنا مقتنعة » .

« كلّ شيء على ما يرام » .

« نعم » .

« صحيح ؟ »

« صحيح ، لِمَ لا ؟ »

« تقصدين أنّه كان من واجبي ألاّ أرفض الامتحان ؟ »

ربّما كان عليها أن تتركه يتكلّم ، فكّرت في نفسها ، بينما سكبت بقايا القهوة في مياه الغسيل . « إذا ما تحدّث بهذا الأمر مرّة أخرى فإنّي سأحثّه على تقديم الامتحان . فهو سيجتازه بكلّ تأكيد » .

فكرت لو أنّها تنجب طفلاً منه ، وتصوّرت أن الطفل سيتحرّك صامتاً كأبيه عندما يتسلّقان الصخور يوم الأحد

في حديقة الحيوانات ويمدّ يده إليها كي يعينها على الصعود .

انتهى عمل ديتريش حوالي الساعة السابعة والنصف على الحدود . لم يذهب على الجسر الذي يؤدي إلى المدينة ، وإلى الخمارات حيث يشرب البحارة الكحول ويأكلون الشورباء واللحوم — تابع سيره عميقاً داخل المرفإ الحرّ .

« ألا يكفي؟ » سأل السيد شينفلدر ديتريش . «أتريد أن تقوم بجولة ثانية ؟ هل أنت على ميعاد ؟ أم تريد أن تهرّب شيئاً ؟ » وضحك السيد شينفلدر .

« تذكرت شيئاً » ، أجابه ديتريش . قرّر المجيء إلى هذا المكان كي يفاجيء السيد شينفلدر . لم يقدر أن يقول : « أريد أن أكون الآن وحيداً تماماً ، وبدون سبب ، بدون هدف أريد أن أتسكّع داخل المرفأ . لا شيء آخر » .

« غير أن هذا غير صحيح » فكّر ديتريش .

« أريد القيام بمراقبة ما لا أستطيع الكشف عنه الآن ، يا سيّد شينفلدر » .

« أفْهم » وتطلّع السيّد شينفلدر إلى ديتريش متفحصاً . وارتخت التجاعيد الحادّة في وجهه من جديد . وهمس : « هل تتعلّق القضيّة بالمخدرات ؟ »

وهزّ ديتريش رأسه . « مجوهرات ؟ ذهب ؟ »

ومضى ديتريش هازّاً رأسه عبر منطقة المستودعات ودخل

ممرّاً يؤدّي إلى مرسى السفن ، وكانت الطريق المزفتة عند المستودعات خالية من البشر ، وتحت التسقيفات سيارات كثيرة واقفة وحمولة ثقيلة ملقاة عند المرسى وكباكيب من الحبال بقامة الإنسان مكتوب عليها عناوين سويديّة .

واتجه ديتريش مؤرجحاً يده صوب المرسى حيث يتمّ شحن البضاعة ، ومرّ بين المستودعات والمياه عبر مكان بناء السفن وقاطرات البضاعة . وعلى أبواب القاطرات كانت حروف كبيرة ، وفي فترات متساوية كانت تعبر أضواء نيونية جعلت ظلّه يدور حوله .

« في هذه الساعة كلّ شيء مقفر في الخارج ، وخلف الأبواب تتكدّس الأشياء وتختلط الروائح : مواد فجّة ، أشياء شبه مهترئة ، دخان ، بوتاس ، وزبيب ، وفي مكاتب الموظّفين تتكدّس أمام مفتشي الجمارك القسائم والوثائق » ، هذا ما فكّر به لنفسه .

وراح صوب رأس الجزيرة حيث تنصبّ المياه الجانبيّة في النهر الرئيسي . وبانت المستودعات القديمة متآكلة ، وظهرت قطع من الجدار قرمزيّة تحت الأضواء الكهربائيّة المنعكسة في الأحواض . وتصور ديتريش كم هو جميل لو يتسلّق الإنسان على الحدود الجدران المتهدّمة بعد ساعات الفراغ لشمّ الهواء المخلوط بغبار جدران المستودعات البالية

وبرائحة فاسدة تهبّ من الدهاليز المكشوفة .

« ثماني ساعات من العمل على الحدود » ، قال ديتريش في نفسه . « السيارات تجيء من الطرف الآخر للمرفإ وتعود عبر المحطة التي أعمل فيها . وكذلك بالعكس . إنّهم يوفرون عليهم الدورة على الطريق الرئيسي العام . وما من داع لتفتيشهم ، فهم لا يحملون شيئاً يوجب دفع ضريبة جمركيّة عليه . ولكني أمرُّ عليهم فقط من حيث الشكليات وأتفحّص السائقين والمسافرين في وجوههم ، وبعد لحظة من التردّد ـ لحظة لا أنتظر خلالها شيئاً ولا السائقون ينتظرون شيئاً ـ أعطي إشارة المرور » .

وتلمّس ديتريش خطاه إلى العوّامة ، وحين لامس المياه اندفع رجل من الظلّ وصرخ : « لقد خفت ! »

« لا أريد شيئاً منك » ، أجابه ديتريش . « لماذا أنت خائف هكذا ؟ »

« بالطبع ، عندما تقفز هكذا إلى العوّامة » .

« هل تقوم هنا بمهمّة ؟ »

« أنا و . . . »

« ما تعمل هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ »

وفي الحقيقة لم يكن ديتريش مكترثاً لما يفعله الرجل تلك الليلة في المرفأ ـ ولكنه هو أيضاً أوقف راكبي الدراجات

على الحدود وصرخ بهم حين أسرعوا كثيراً عند مركز التفتيش وأجبرهم على العودة ليقوم بتفتيشهم .

« إنّها حتّى الآن أقلّ من السابعة والنصف » أجابه الرجل . « وثانياً : ماذا تريد هنا عند هذه العوّامة المنعزلة ؟ »

« أنا مساعد في الجمارك » .

« صحيح ؟ »

« نعم — في مركز الإدارة » .

« فقط في الإدارة ؟ »

« هذا شيء شكلي فقط . لم تجب على سؤالي كفاية » .

« يحقّ للإنسان أن يتجوّل عند النهر من غير أن يكون بمهمة جمركيّة » .

لم تتغير لهجة ديتريش ، غير أنّه لم يستمر في الحديث خوفاً من أن يثير شكوك الرجل ، فباستطاعته تفتيشه إن أراد .

« لم يحالفني الحظّ حتّى الآن . فالدوريات المفاجئة التي قمت بها ، كلّها كانت سلبيّة . وأحياناً يعثر الإنسان على بعض صفائح من السكائر مخبأة تحت أرض السيارة ، أو على جلد نمر أو على جزدان مصنوع من جلد التمساح ، على أشياء يكلّف ضبطها أكثر من قيمتها . وحتّى الآن لم أضبط جواهر أو مخدرات .

في هذه المدينة تصير التجارة بالمخدرات أقلّ رواجاً كما يعتقد السيّد شينفلدر : وشعبنا لا يهتمّ بها إذ أصبح بعد الحرب أكثر صلابة . لماذا يهرّب بعض الناس عندنا المخدرات؟ »

« هذا ما لن يعرفه الإنسان » أجابه ديتريش ، « فمن المحتمل أن ترتكب في هذا المكان ما هو مخلّ بالآداب أو ربّما تحاول الانتحار — في المياه في الليل » .

وشعر ديتريش بالجوع يتمدّد في جسده . « هذه الساعة تسكب أنكه البطاطا في وعاء أبيض كبير وتضعه على الطنجرة مع أنواع الخضرة » . كانت العوّامة ترتفع وتهبط ، وتطلّع إلى النجوم الزرقاء المنعكسة في الحوض ، وحاول رؤية السفن بتقاطيعها ، سفن الشحن غير الكاملة ، وسفن الركاب المصلحة ، وحجمها الكبير القادر على ابتلاع البضائع وإنزالها على أرصفة المرسى . ولم يبقَ باستطاعته احتمال هزهزة العوّامة ، فقد بدأ يهتزّ معها ، وذهب باتجاه الدرج الخشبي دون أن يقول للرجل كلمة واحدة . وبينما كان يسير على امتداد المستودعات كانت الأمواج المرتفعة تصيبه وتدفعه .

وتفكر إن كان عليه تقديم الامتحان ، فزوجته لم تصر على ذلك ، وهي تقتصر على الضروري من العيش حتّى ينال زيادة في معاشه بعد سنين من الخدمة .

إن أنكه لم تصر على تقديمه امتحاناً يترقى على أساسه إلى

مرتبة أعلى كي يرتفع معاشه بسرعة . وهو لم يعرف تماماً ما يتوقعه الفاحص من المتقدّم للامتحان ، وكان يخشى التحدّث مع زملائه في العمل حول هذا الموضوع خوفاً من أن يعتقدوا أنّه قدم طلباً للامتحان . ولما كانوا يتحدّثون في هذا الأمر بطريقة عفويّة لم يكن مستطاعاً الحصول على معلومات هامّة ، فهم تحدّثوا عن الأخطاء اللغويّة والعوائق البدنيّة ، وفهم من هذا كلّه أن الامتحان يدور حول الذكاء ، ولم يعتقد أنّه بليد الذهن ولكنه خشي من أن يحطّ من قدره في قاعة الجمارك كما يقلّل الإنسان من البضاعة الّتي تتقيم فقط حسب الوزن . وعليه أيضاً حفظ القوانين الجمركيّة ومعرفة خصائص جميع البضائع ، مكان صنعها ، وقيمتها ، وديمومتها ولونها ووزنها ، والمعامل كدست من هذه البضائع أكواماً أشبه بالتلال المسننة .

وكان عليه معرفة هذه الأكوام بالتفصيل واكتشاف المنتوجات الّتي تشذّ عن المستوى العامّ — قبل توزيعها بواسطة تجار الجملة إلى تجار المفرّق ، إلى المستهلك ، وإلى أنكه في البيت .

ومسح ديتريش حاجبيه .

« إنّي أحلم ، والجوع وحده مسؤول عن هذا » .

وأسند وجهه على الأسلاك الّتي تحيط بأحواض الغاز .

وببطء دارت القساطل والخزانات ، وخلفها انطلقت شرارات ناريّة صوب الغيوم ، وظهرت الأبراج والتلال من الاحمرار كقطعة من مقصّ يعلو على اللهب ويهبط .

لم يتخذ ديتريش اتجاه إشارة السير التي تدلّ على المخرج ، بل اتجه صوب محطة القطارات . وعلى جانبي الطريق تمايلت أعشاب عالية وقديمة ، كانت قد نمت على قواعد المستودعات المخروبة ، ومنها كانت تهبّ الروائح الفاسدة .

« لعلّ هذه الرائحة الفاسدة من الغاز الذي يهبّ من الحشائش . عليّ في الامتحان أن أعرف في الكيمياء والفيزياء ، وعندما يكون الإنسان قد هجر هذه العلوم منذ أيّام المدرسة فإنّه من الصعب جدّاً الغوص فيها من جديد » . والتفت إلى الوراء فشاهد مصنع الفحم في الجانب الآخر ومنه تنقذف أشكال سوداء مغلفة بالدخان الكثيف . وكانت ألسنة اللهيب تمتدّ حتى الممرات عبر المداخن . وانعكس في عيني ديتريش جبل من نار ، وبدا كلّ شيء كالمستودعات التي كانت تلمع أثناء الحرب ، كالرافعات التي احمرّت وسقطت في الماء ، كالنار التي أحرقت بضائع المرفإ ورمدتها ، كأيّام خدمته على الحدود الدانمركيّة ــ قبل أن تمكّنت الأعشاب الطويلة الصفراء من الدهاليز نصف المهدمة .

وانطفأ اللهيب من موضع الفحم .

لم تعيّره أنكه لأنّه عاد متأخراً إلى البيت . وسألته :

« هل كان عليك شغل كثير ؟ »

لم يحاول أن يكذب عليها ، ولم يرد تقديم إيضاحات ، فأجابها : « لا » .

قطعت سؤالها ، وظنّت أن تأخره بسبب الامتحان ، وأتت بالبطاطا الجافة القشرة وقطعت اللحمة .

« جمدت المرقة ، وآمل أن يكون الملح كما يجب » .

وناولته منشفة طعام موضوعة في حلقة ، وأكل ببطء ، وبصعوبة أكل كلّ قطعة بطاطا وألقى كلّ مرّة « الشوكة » جانباً قبل دفع اللقمة إلى فمه وتطلّع إلى حرف الصحن .

« أليس طيّباً ؟ » — « طبعاً » .

مضغ بحرص والتفت إليها وقال : « طبعاً » .

لاحظها وهي تنحني فوق الأكل ، واستطاع رؤية عظام خدودها النافرة وبدت بلون الدراق الذي يترك غباره على جلدها ، وتطلّع إلى شعرها الملفوف والمرفوع إلى فوق ، وإلى عينيها وإلى الرموش العليا المخطّطة بالأسود في عناية . وتطلّع إلى طوقها الأبيض — إن أنكه تغيّر بلوزتها كلّ يوم — وتصور الكومة الصغيرة من البلوزات ، بالكاد مغبرة أو وسخة ، ومنها تفوح رائحة الصابون التي تستخدمها كلّ يوم جمعة لتسرع في الغسيل . وتصور كيف تميل صوبه

بثوب النوم بعد انطفاء الضوء . وتطلع إلى أدوات الطعام ، إلى الأوعية المليئة بالطعام ، إلى البهارات ، إلى غطاء المائدة الذي تظهر طياته بين الأوعية ، وقال في نفسه : إن كلّ شيء سيكون هادئاً وعلى ما يرام ، وإن كلّ شيء سيكون تامّاً وصحيحاً لو يتقدّم بطلب للامتحان . فبمعاش أعلى سيتمكنان من شراء مائدة أحسن ، وبلاط أدق ، وطعام أشهى ، وخزانة من خشب السّاج ! أمّا بالنسبة لإنجاب الأطفال فإن هذا ممكن فقط بعد اجتياز الامتحان ، إذ كيف يتسنى لها أن تتابع عملها وفي نفس الوقت تعتني برضيع ؟ وهو نفسه سيحصل على مكان لائق له في المرفإ عندما يرتقي إلى الدرجة الوسطى . وهو بصفته مفتشاً في الجمرك سيصير رجلاً يستفيد من وقته .ولن يبقى مساعداً يقضي أيّامه بتفتيش السيارات والمسافرين الأبرياء ، وكمفتش بوسعه استقبالها في مكتبه والإشارة إلى الملفات ومرسى السفن من نافذته ويقول : « هذا هو نطاق عملي » .

وشعر أنّه يصغر ويصغر ، يصير صغيراً كفأرة في المستودع بين صناديق الكرتون الكبيرة الملأى بالبلاط ، وتصور أنّه يختبىء بينها ؛ وفي غرفته في البيت رأى ثياب الأطفال ، والكنزات الصوفيّة ، والأنابيب ، والجوارب والطابات .

وفكّر في نفسه : « أيّ شيء سيبقى مني ومن أنكه ؟ »

وتوقّف عن الأكل ، فأخذت الوعاء نصف الملآن والصحون جانباً .

« يجب تشجيعه » ، فكّرت أنكه ، « فهو قادر على اجتياز الامتحان بكلّ بساطة » .

« باستطاعتك اجتيازه يا ديتّريش بسهولة ، فأنت لست كالآخرين . إنّك أكثر موهبة ، وما أُحبّ أن أقول أمضى عزيمة . وأنا لا أقول ذلك من أجلي ، فحياتنا ، كما هي ، حسنة ، إنّي لا أضغط عليك لأنّي أريدها أحسن ممّا هي عليه الآن ؛ سأكون لك زوجة صالحة ولأطفالي أمّاً صالحة أيضاً ، حتّى ولو اضطررت إلى الاستمرار في العمل ؛ ولكن أنت بمؤهلاتك الخاصة لن ترضى مع مرور الزمن بهذه المعيشة الوسطية .

لما التحقت بالجمرك لم تفعل ذلك عن عجز — بل تبعت رأي والدك الذي شجعك على الالتحاق بهذه المهنة — بصفته أستاذ مدرسة ابتدائيّة . لهذا عليك ألاّ تخشى الامتحان — إنّه امتحان للذكاء فقط . وعلاوة على ذلك اجتزت امتحان مساعد في الجمرك منذ عامين بكلّ سهولة . لا أقول هذا من أجلي . فبالنسبة لي سواء لديّ إن كنت موظفاً بسيطاً أو فوق العادة . وكما أذكر ، إنّك أوّل ما التحقت بالجمرك أردت حياة استقرار بعد الحرب ، أردت نسيان كلّ ما جرى لك

في المدفعيّة . والآن تريد في الواقع أن تترقى . صدّقني ، فأنا لا أقول هذا للحصول على معيشة أرقى » .

وأحسّ أن ما من شيء سوى إثارة الأعصاب سيبقى في حياتهما . فالنزهات في حديقة الحيوانات صارت أقلّ ، والمشاوير عند النهر قد انتهت .

وفكّر : « الأطفال . هل ننجب أطفالاً ؟ »

وقال : « كان كلّ شيء متغيراً عندما خدمنا في المدفعيّة . فآنذاك لم يخطر على بالنا بناء عائلة وإنجاب أطفال . نمنا في المخيمات أربعة أربعة أو ستة ستة . وفي النهار كنّا نذهب إلى حدائق الفلاحين ونقطف التفاح ، وكنّا نعرف من الراديو عن المدن التي هوجمت وعن عددِ الضحايا . لقد كان وقتاً جميلاً ، لا أعرف لماذا ، ولكنه كان وقتاً جميلاً » .

« كأن مجهودي راح سدى » ، قالت في نفسها . « كنّا مخدرين عندما تزوّجنا كتلاميذ مدرسة يلعبون الناي » .

وقالت له : « هاتِ الصور ودعني أراها ثانية » .

وفكّر : « فرضاً سقطت في الامتحان ؟ في ذلك الحين واجهت العدوّ كسواي . هل صرت جباناً ؟ ربّما أخاف من الامتحان ؟ زوجتي ورفاقي سيحتقرونني » .

« لست بحاجة لأن تقدّم الامتحان من أجلي ، يا ديتريش . فنحن ندبّر أمورنا كما هي الحالة الآن » .

« إنّها لا تعي ما تقول . فهي تريد أطفالاً تدور بهم في عربة عالية . إنّي لا أخاف الامتحان » .

« هاتِ صور أيّامك الجميلة في المدفعيّة » .

« في الحال . غير أنّي أريد بسرعة شراء علبتين من السكائر من الصندوق الآلي » .

« لا تزال بعض السكائر هنا موجودة » .

« هي بدون فلتر . وأنتِ تحبّين السكائر ذات الفلتر » .

« ألا ترتدي معطفك ؟ »

« لا . إنّها لا تمطر . إنّها غير باردة في الخارج » .

وانتظرت . كانت أضواء السيارات تلقي بظلال أشجار الشارع على الجدار الخلفي في الغرفة ، وعلى البوفه وميزان حرارة الطقس . وفجأة أحسّت بالخوف من أن يطول انتظارها ؛ لعلّه سيخونها يوماً من الأيّام ، لعلّه سيضيق ذرعاً بالعمل ، وبانعكاس الأضواء على الحائط عاودها الخوف ثانية . وهيأت الكاتو والفناجين لتناول القهوة التي أرادت صبّها له حين يعود .

« لقد أصابه شيء ما . فصندوق السكائر الآلي لا يبعد أكثر من خمس دقائق ، بينما هو غائب منذ ساعة . أو ربّما يخطىء الإنسان بتقدير الوقت عندما يجلس وحيداً وينتظر . لعلّه التقى بأحد رفاقه » .

لم تشأ أن تلعب دور المرأة السخيفة التي تركض وراء زوجها حتى المطعم عند الزاوية وتمنعه من تناول نصف ليتر من البيرة .

« إنها أول مرة » .

وأحست كأن خشبة قد تجمدت في رأسها .

« هل سيحدث هذا مراراً من الآن فصاعداً ؟ هل سأقضي حياتي عند الفناجين وفرشاة الغسيل والمكواة ؟ لو كان عندي طفل منه » .

وفتحت النافذة ومدت رأسها خارجاً علها تراه من بعيد :

« لو كان عندي طفل أتسلى به حين أكون بين هذه الأشياء وأنتظره » .

وارتدت عن طرف النافذة متجهة إلى الباب الرئيسي لترى ما إذا كان واقفاً عند التعليقة يخلع عنه معطفه .

« لا . إنه لم يأخذ معطفه . وهذا أوضح دليل على أنه سيعود في أية لحظة . لو كان لي منه طفل على الأقل قبل أن يتركني » .

« إنك مجنونة » ، قالت لنفسها .

« عادة يجيء متأخراً عن هذا الوقت نصف ساعة — هل يمكن أن يكون قد انتحر خوفاً من الامتحان ؟ إنه ليس من أولئك الذين ينتحرون » .

وودت لو تنظر ثانية إلى الشارع ، ولكنها بدأت تخاف النافذة المربعة .

« من يقدر الآن على التفكير بأسوإ احتمال ؟ »

وبقيت عيناها جامدتين في الظلمة القابعة بين الجدران الملبّسة بالبُسط والمدينة . وفكّرت أنّه اندهس .

« إنّه مضرّج بدمه أمام واجهة مصبغة خالية من البشر ، تحدق به الغسالات العور بينما دمه ينزف — لا يجب التفكير بأشياء كهذه خوفاً من أن يحدث هذا بالفعل » .

« لا أعرف شيئاً من أمره . كان عليه أن يذكر ما يجول في نفسه » . قالت هذا بصوت عال . ظنت أن في الأمر حادث سيارة .

« لقد أصيب إصابة خفيفة . وهو الآن في المستشفى للتضميد » .

وتجنبت رؤية المربع الأسود ، وضغطت الجفون على عينيها فلمحت مربعاً بلون الحليب يلمع وتخترقه خطوط أرجوانيّة ، خيوط باهتة ، ونور ضئيل .

« أين زوجي ؟ أين ديتريش ؟ »

لم تشإ الذهاب إلى البوليس ، فاختفاؤه يخصه ويخصها وحدها . وقرّرت أن تبحث عنه تاركة وراءها قصاصة من الورق : إنّي أبحث عنك في المرفأ . انتظر حتّى أرجع أو

اكتب لي أين تذهب .

لم تركب في الباص . فهي لا تعرف تماماً المحطة الّتي عليها النزول فيها . سألت بعض المارّة المسرعين عن الطريق ، وغالباً ما تصوّرت أنّه يتبعها . والتفتت : ما من أحد يتبعها — ما من غريب ، ولما وقفت عند الجسر المكتوب عليه « جمرك » فكّرت : « سأعود . لا أريد الدخول خفية في منطقته . لقد تركت البيت من وقت قصير ولست متأكدة أنّي سألتقي به الآن » .

عبرت الجسر ذا الدعائم الّتي تشبه ظلالاً في مياه مترجرجة ومضاءة بالقناديل . ودخلت مركزاً للمراقبة فيه ميزان كبير وسألت :

« أتسمح لي بدخول المرفأ ؟ »

« إن لم يكن عندك شيء أفضل » أجابها الحارس .

« ما تبغين هنا في هذه الساعة المتأخرة ؟ » سألها آخر .

« إنّي هنا صدفة وأريد أن ألقي نظرة » .

« يجب أن تعرفي أن كلّ ما تنقلينه عندما تتركين المكان يجب عرضه على الجمرك لدفع رسمه ، هذا إذا كان عليه رسم جمرك » .

« نعم » .

وحاولت أن تتبيّن اللوحات المعلّقة في الشوارع .

« إنّه لمن العجيب أن للشوارع هنا أسماء كشوارع المدينة » . وقرأت كلمة هولندا على إحدى اللوحات :

« لعلّ ديتريش سافر إلى هولندا ؟ سأعثر عليه هنا بالتأكيد . ربّما نسي شيئاً أو التقى بأحد رجال الجمرك الذي اصطحبه للقيام بجولة تفتيشيّة » .

ومرّت عبر بيوت عالية سوداء لاحت وكأنّها معدّة للسكن ولكن ما من أحد كان يمشي على الرصيف إلى مداخلها . وتقدّمت إلى الأمام وتطلّعت إلى البرج الصغير الأخضر وحاولت رؤية ما يجري في الداخل من خلال النوافذ ؛ واكتشفت أن النوافذ مظلمة ومدهونة بلون أزرق .

« كنظارات مظلمة زرقاء » ، قالت في نفسها .

وفي آخر الشارع كانت تشتعل نار بين الأعمدة .

« يوجد حريق . لهذا أسرع إلى هنا » .

وعندما اقتربت من المراكز الفولاذيّة المتقدة كانت النار قد انطفأت ، وركضت عبر رافعات جامدة وهادئة ، عبر قاطرة ، وتاهت بين المواقف التي لا إشارة لها وبحثت عن طريق العودة . وتطلّعت إلى النوافذ العالية ، فلعلّ هناك من يفتح نافذة ليستنشق الهواء أو لينصت في اللّيل . وانزلقت رجلاها وحاولت التمسّك بشيء على الرصيف فلم يقع في قبضتها سوى حبوب صغيرة مرشوشة تحت النوافذ . فجمعت

ملء قبضتها منها وأخذتها حتى أقرب ضوء .

« إنّها قهوة ، قهوة غير محمصة ، كلّ الشارع مرشوش بحبوب من القهوة ، القهوة خلف كلّ النوافذ . يجب أن تكون الآن في البيت يا ديتريش » .

وعندما فتحت الباب طارت البطاقة الّتي تركتها بصورة دائرية عن الطاولة . فديتريش لم يكن في البيت . وارتمت بثيابها على الصوفا وراحت تمرّ بإصبعها على طيات الشرشف ببطء ومن ثمّ جمدت الإصبع وهي نصف ممدودة .

لم يرجع ، ورؤساؤه لم يسألوا عنه خارج الخدمة ، ولا معارفه عرفوا شيئاً عن مكانه ، وما من خبر عند البوليس ، وجرى التفتيش ، وفي الربيع ، وقريباً من الحدود الدانمركيّة ، عثرت على جثّته دوريّة قامت بتفتيش على نطاق واسع . كان في حفرة مدفع مطمورة بالعلّيق والأعشاب وعلى جانبه أنابيب حبوب منوّمة فارغة .

ترجمة : فؤاد رفقة

فتى البحر

بقلم هانس إريش نوساك

كثيراً ما سمعنا أن صياداً اصطاد امرأة من البحر بشبكته ، وأن هذا شيء لا غرابة فيه . والحقيقة أن صيداً من هذا النوع لم يُتح لي ، وربّما كان مرجع ذلك إلى أنّني لم أجد قطّ فرصة للصيد في البحر ، ولست أشكّ في أنّني قد أوفّق في ذلك لو أتيحت لي مثل هذه الفرصة ، فأنا أتصوّر الآن الشبكة وهي تشدّني وتزداد ثقلاً كلّما جذبتها ، وأنظر وراء حافة القارب فأرى شيئاً ظاهراً في الماء ، فلا أدع الشبكة بطبيعة الحال تفلت مني بل أستجمع قواي ما استطعت حتى أوفق في إخراج الصيد إلى السطح وأتبيّن أنّه امرأة تورّطت في شبكتي وأجدها بلا حركة ، ربّما لأنّها لا تريد أن تتحرّك ولكنّها تعيش لأنّها تنظر إليّ من خلال فتحة جفنيها ، ويتساقط الماء من جسمها في لآلىء كبيرة . منظر ممتع !

أمّا الذيل الصغير الذي يحلّ محلّ رجليها فمن الصعب تصوّره ، ولا بدّ أنّي سأحسّ بإحساس مضطرب ، ولكن ما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، فإمّا أن أكفّ عن النظر إليها وإمّا أن أعوّد نفسي عليها سريعاً .

وغالباً ما تنتهي مثل هذه القصص نهاية حزينة ، لأن المرأة أو عروس البحر لا ترتاح للعيش على الأرض رغم كلّ الحبّ الذي تلقاه ، أو لأن الصياد يدع الشبكة تفلت منه في اللحظة الأخيرة ويقفز إلى الماء وراءها ، فإذا لم يفعل الصياد ذلك ، لأن العادات تحول بينه وبين ما ينويه ، فإنّه يصبح إنساناً لا يصلح لشيء ، يبتعد عن البشر وعن النساء خاصة ، نعم عن النساء خاصة : لأنه إذا حدث أن نسي وتزوّج واحدة منهن ، فإنّه سينتهي إلى الشقاء والتعاسة . لذلك يراه الراؤون في المساء يجلس على صخرة وينظر إلى البحر وربّما سمعه بعضهم يغني .

الأمر إذن كذلك ولن يمكن تغييره أبداً ، ومن أراد أن يتجنّب هذا الخطر فعليه أن يبقى في البيت ويدع جدّته تطبخ له الأكل المحبّب إلى نفسه .

أما أن امرأة يحدث لها مع رجل أمر من هذا النوع فهذا شيء لم يقصه أحد علينا . والحق أنّي كنت أعتقد دائماً أن البحر لا يعيش فيه إلاّ نساء وبنات وربّما عاش فيه أيضاً

عجوز بحري يضع فوق رأسه قبّعة عتيقة ويلبس صدريّة لامعة مقرفة . أمّا الفتيان الذكن الذين يلهون ويلعبون ويدورون حوله ككلاب البحر فلا مكان لهم في حسابي .

هل يرجع هذا الخطأ في تصور الموضوع إلى أن النساء اعتدن التزام قدر أكبر من الكتمان في هذه الأمور أكثر ممّا تفعل نحن معشر الرجال ؟

ومهما يكن من أمر فقد حدثت لهـنّة قصة من هذا النوع ، والحقيقة أن اسم هنّة لا يعجبني بصورة خاصة ، وربّما كان السبب في ذلك فكرة قديمة تسمّرت في ذهني ، فعندما كنت طفلاً كان لدينا خادمة في البيت بهذا الاسم شعرها أشقر شقرة عجيبة وخدّاها أحمران حمرة غير مألوفة . وكانت إذا ربطت لي الفيونكة الحريريّة البيضاء وألبستني الياقة المنشّاة المتعبة ، على نحو ما كان ينبغي للصبية إذا ذهبوا لزيارة ، أحسست بالغيظ . وخلاصة القول أنّني لو اختلقت هذه القصة لوجدت بلا شكّ اسماً أفضل من اسم هنّة ، اسماً اتخذ في غضون حادثة قديمة ذات شهرة كبيرة أو صغيرة نغمة معيّنة إذا سمعها سامع الاسم قال : « آه ، هذا هو المقصود » أو « كان منظرها كذا » . فلم تكن هنّة التي أعنيها شقراء ، بل كانت ذات شعر أسود قصير لطيف ، وكان وجهها شاحباً ضيّقاً ، وكانت رقيقة

رشيقة القوام أو بالأحرى كانت عجفاء ، وليس في هذا ما يخجل فإنّنا نجوع جميعاً منذ ثمانية أعوام . لو كنت فرنسيّاً لأسميتها مثلاً سوزت . ولكن لنبقَ مع هنّة ونلتزم الحقيقة :

عندما نزلت البحر في مساء يوم من أيّام شهر يوليو في الساعة التاسعة لتستحمّ ، أحست بشيء يمسكها من الخلف من تحت الماء ، ويمسّها مسّاً رفيقاً ولكنه متعمّد فوق ركبتها اليسرى ، واعتقدت في أوّل الأمر أنّ شيئاً من أعشاب البحر تعلّق بساقها .

وكان الجو في ذلك اليوم خانقاً ، وكان البحر هادئاً أملس السطح ، وكان هناك غيم خفيف بنفسجي اللون يهيم فوق الماء ويزداد كثافة قرب الأفق ، وبدا لسان الشاطىء قريباً جدّاً ، ولمع بيت الصياد فوقه أبيض شبيهاً ببيت بعض الأرواح ، دون أن يكون هناك في هذا الوقت من اليوم مصدر ضوئي يلقي عليه نوراً .

كانت هنّة قد وصلت هذا المكان عند المغرب بعد رحلة شاقة كالرحلات التي نقوم بها اليوم في القطارات الرديئة ، وقطعت الجزء الأخير من الطريق سيراً على الأقدام ، وكان هناك قديماً أوتوبيس يسير عليها ثمّ أُلغي . كان سيرها على الأقدام في وسط الحرارة وهي تحمل حقيبة ، أبعد شيء عن المتعة . فلمّا وصلت تكلّمت في القرية مع بعض السمّاكة

الذين نجوا بحياتهم من الحرب ، وأخذت مفتاح واحد من بيوت الاستراحة الصغيرة القائمة على مرتفع ينحدر إلى الشاطىء انحداراً شديداً ، كانت في ما مضى قد سكنت فيه مرّة وأرادت أن تجرّب السكنى فيه أيضاً الآن .

كان البيت الصغير قد تعرّض للنهب الشديد ، ولكن هنّة كانت قد عملت حساب ذلك مقدّماً ، ورتبت ما استطاعت إلى الترتيب سبيلاً ، وتبينت أن الإنسان يستطيع عند الضرورة أن يقيم فيه ، ثمّ جلست خائرة القوى إلى مائدة حجرة الطهي والأكل والمعيشة وفكرت : الآن أكتب خطاباً . وفجأة خطر ببالها أنّها لم ترَ البحر حتّى الآن كما ينبغي ، فنهضت وتناولت ملابس الاستحمام من الحقيبة ونزلت إلى الشاطىء الذي كان آنذاك خالياً تماماً .

وخلعت ملابسها بعد شيء من التفكير وارتدت لباس البحر ونزلت إلى البحر باحتراس وحذر ، فوصل الماء أوّلاً إلى عرقوبها وتبيّنت أنه لطيف منعش ، ولكنها لم ترتمِ فيه ، بل نزلت خطوة خطوة باحتراس كأنّها أرادت ألاّ تترك آثاراً في رمل أرضية البحر ، ثمّ وصل الماء إلى ردفيها ، وصادفت مرتفعاً تحت الماء كلّما سارت عليه برزت من الماء حتّى كادت تبرز منه كلّها ، وعاد البحر إلى العمق وأخذت تغوص وتغوص ، فلمّا بلغ الماء كتفيها فكرت :

الآن أريد أن أعود إلى الشاطىء سابحة . عند ذلك حدث ما أشرنا إليه من قبل .

.. ربّما لا يكون من الصواب ما قلته من أنّها أحسّت بشيء يمسكها ويجرها إلى الوراء ، والأقرب إلى الصواب أنّها أحسّت بشيء يستند إلى ساقها .

وتحسّست هنّة ساقها واعتقدت أن يداً صغيرة أو على الأصحّ يداً لطيفة صغيرة مكتنزة تقبض على ركبتها ، وبطبيعة الحال كان هذا خداعاً حسيّاً ربّما سبّبه الماء .

وأبعدت هنّة يدها مندهشة ونظرت إلى الماء وقد لونت جسمها حتّى نصفه ، فرأت عند قدميها شخصاً أبيض اللون لم تستطع أن تتبيّنه على وجه الدقة .

وصاحت : « دعني ! » فتركها على الفور ، ولكنه ظلّ في قاع البحر يدور حواليها ، واعتقدت هنّة أنّها ترى عينين تنظران إليها متسائلتين ، ولكن الماء سرعان ما كان يغير المرئيات جميعاً .

ثمّ صاحت : « اخرج ! » وأحست بالماء يندفع رفيقاً عند قدميها إلى أعلى جسمها ، وطفا رأس شاب من البحر .

كانا قريبين أحدهما من الآخر ، كان الفتّى أطول من هنّة قليلاً ، وكان الماء يصل إلى إبطيه ، وكانت كتفاه والشاطىء على خط مستقيم ، أمّا هنّة فكانت تقف وظهرها ناحية البحر .

ولا ينبغي أن يعجب أحدكم عندما نقول إنّها لم تفزع ، فأنا مثلاً كما سبق أن ذكرت لن أحسّ بالفزع إذا اصطدت بنتاً من البحر . عندما يجد الإنسان هذا الصيد يأخذه في أوّل الأمر فضول ثمّ ما تلبث أفكار أخرى مختلفة تماماً أن تدور في رأسه عندما يكون قد عرف حقيقة الأمر .

ظلاّ واقفين بصمت برهة ومتواجهين ، الفتى ينظر إلى هنّة في شوق، وهي تتأهّب لتسأله عمّا يريد منها، ثمّ تصرف النظر بعد قليل عن هذا السؤال ، وتقول لنفسها : لا بدّ أنّه رآني عندما دخلت الماء فأحبّني ، ولا يجرؤ على مصارحتي بحبّه لأنّه ما زال صغير السن .

وحاولت أن تبتسم له ، كذلك ابتسم الفتى في تردّد ، ولم يُعجب هنّة منه ذلك وفكرت : ماذا يدور بخلده ؟ إنّه يتصرّف كما لو كنت أشتاق إليه ، ثمّ ماذا أفعل به ؟ لا يمكن أن أظلّ واقفة معه في الماء أبد الدهر . كذلك لا أستطيع أن أنهره وأطرده عني . ما أتعسني إذ حدث لي هذا اليوم !

وراحت تفكّر في الأمر وتجدّ في التفكير فتكونت طية كئيبة بين حاجبيها ، كذلك اعترى وجه الفتى شيء من الاكتئاب ، فصعب هذا على هنّة وقالت له : « تقدّم إلى هناك » وأشارت إلى الشاطىء ، فقد كان أحبّ إلى نفسها أن يتقدّم إلى الأمام حتى تبقيه في محيط بصرها .

وأطاع الفتى . ولمّا بلغ الجزء المرتفع من أرضيّة البحر ، تبيّنت هنّة أنّه عريان ، فتردّدت قليلاً ، فظلّ على التو واقفاً في مكانه ودار ناحيتها لأنّه ، بلا شكّ ، خاف ألاّ تتبعه . وصاحت به هنّة : « تقدّم » وهناك فوطتي التفّ بها .

وقالت في نفسها : إنّه جميل جدّاً ؛ وسارت ناحية الشاطىء ، لم يكن هذا يعني أنّها هامت به فليست هناك امرأة تهيم برجل لأنّه جميل ، على أيّة حال هذا هو ما أعتقده ، وإذا حدث أن هامت بعض النسوة برجال لجمالهم ، فلسن من خيرة النساء .

ولا بدّ أن هذا الفتى ، على قدر ما تبينت من الكلام ، كان يشبه « العبد الناعس » لميشيل أنجلو ، إذا رآه الإنسان أحسّ برقّة ممتزجة بالخوف تتملّكه ، لا لأنّه جميل الجسم فحسب ، بل لسبب آخر أيضاً .

لم تفكر هنّة بطبيعة الحال في ذلك العبد ، ولكنها أحست بالفرح والاطمئنان عندما رأت أن الفتى جميل . وإذا كنت في حديثي عن هنّة أستعمل كلمة امرأة ، فلا يصحّ أن يؤدي هذا إلى تشويه الصورة . كانت هنّة في نحو السادسة والعشرين ولم تكن متزوّجة ، كذلك إذا قلنا عنها إنّها بدت شابة ، شوّهنا الصورة أيضاً ، فتلك كلمة غبية تسبّب الحرج .

وذهب الفتى إلى حيث كانت أمتعة هنّة وأخذ الفوطة ليلتفّ بها ، ولكنه لم يتمكّن من ذلك .

وقالت هنّة : « ما لك لا تجيد هذا ؟ تعالَ ! » وساعدته في الالتفاف بالفوطة وثبتتها في وسطه ، ولما لمسته انتفض لأن يديها كانتا باردتين من ماء البحر وكان هو جافّاً دافئاً كأنّه لم يكن في الماء على الإطلاق .

وقالت هنّة : « حسناً . ستثبت الفوطة هكذا » . كانت تلك الفوطة زرقاء فاتحة توشك أن تكون مستهلكة من كثرة غسلها ، ولكنه كان ، كما فكّرت هنّة ، أنيقاً فيها .

وقصت هنّة عليه شيئاً عن الفوطة فقالت : « لقد استعرتها من صاحبة لي . فلست أملك فوطة لأن أمتعتي كلّها قد حُرقت » .

وهزّ الفتى رأسه عندما انتهت من جملتها . فقالت هنّة : « والآن اجلس هناك في الرمل ، وانظر إلى ناحية أخرى بينما أرتدي ملابسي » . فأطاع ونظر إلى البحر .

وبينما أخذت تخلع لباس البحر المبتل فكّرت أنّه كان من الغباء أنّها أعطته الفوطة ولم يعد لديها شيء تجفف به جسمها ، وأخيراً استخدمت قميصها بدلاً من الفوطة وقالت لنفسها إن الوقت ليل وإن القميص سيكون قد جف عندما يأتي الصبح .

ولكنها غضبت رغم ذلك وراحت تسبّ في سرّها ما فعلته عندما حمّلت نفسها هذا الحمل ، ونظرت إليه وقالت في نفسها : ها هوذا يجلس ويعتمد عليّ في كلّ أمر . ماذا دفعني إلى ذلك ؟ هذا شيء لا يمكن أن يحدث إلاّ لي . وهذا رأسي يوشك أن ينفجر .

ولاح بريق عاصفة بعيدة في الأفق وأضاء الشاطىء بنور يهتزّ اهتزاز اللهب .

وقالت هنّة للفتى وقد نظر إليها : « لا شيء في هذا ، ستهبّ علينا عاصفة ، على ما أظنّ » .

ثمّ فكّرت : لقد أمرته أن ينظر إلى ناحية أخرى وها هوذا ينظر إليّ . لا بأس في هذا ، فهو فتى طيب ولا يفكّر في سوء عندما ينظر إليّ ، فلو أعدت عليه الأمر فلن يؤدي هذا إلاّ إلى حمله على التفكير في السوء .

ربّما كان الفتى جائعاً . كم أنا غبية ، فلم أسأل السمّاكة عن طعام ، وكانوا قديماً يبيعون ثعابين السمك . ثعابين السمك ! فهل يا ترى ما زالوا ينتظرون بالثعابين حتى أحضر أنا إليهم ؟ ولكن هذا الفتى أتى من البحر ولا شكّ أنّه لا يأكل سوى الأسماك والقواقع . ومرّت عليه ببصرها فتبيّنت أنّه لا يبدو بحمد الله جائعاً ، وأنّه أقرب ما يكون إلى الطفل ، وأفضل ما أقدمه إليه هو كوب من اللبن .

ثمّ ضحكت ضحكة خفيفة وكذلك ضحك الفتى .

وفكّرت : عليه أن يضحك ما شاء له الضحك . فمن أين آتيه الآن باللبن ؟ ولعلّه لا يعرف من قريب أو بعيد أنّنا نجوع منذ سنين طويلة ، وأنّه يظنّ أن الإنسان لا يحتاج إلاّ إلى مناداة ماما ، فإذا الطعام معدّ على المائدة .

ولكن هذا ليس ذنبه ، لا بدّ أن أرى كيف آتيه بما يسدّ به رمقه .

فلمّا ارتدت ملابسها صعدا معاً غابة على سفح المرتفع . كان الظلام الشديد مخيّماً على الطريق الضيّق . وتركت هنّة الفتى يتقدّمها ورأت ظهره العاري يبرق ، كأن القمر يسقط عليه نوره ، وفجأة تعثّر ، فقد انحلّ رباط الفوطة لأنّه داس على أطرافه بقدميه ، فانحنى وأمسك بالفوطة وهو يتّجه إلى هنّة في حيرة .

فقالت له : « لا بأس . سأربطها من أعلى بإحكام » .

وفكّرت : لا بدّ أن يتعلّم الكثير ، ولا ينبغي أن يُترك بمفرده وإلاّ سخر الناس منه .

فلمّا بلغا أعلى المرتفع ووصلا إلى الكوخ فتحته وأشعلت شمعة وقالت : « ينبغي أن نقتصد في استخدامها فهي غالية الثمن جدّاً وقد أحضرتها معي احتياطاً — والآن اجلس إلى المائدة ، وإذا أحسست بالبرد فضع معطف المطر على كتفيك ،

وسأعدّ شيئاً من الشاي . وكان السمّاكة قد أحضروا لي شيئاً من البترول وأعطيتهم لقاءه سجائر لم يقبلوها إلاّ بعد إلحاح . أمّا الشاي الذي عندي فشاي أصلي أصرّت ماما على أن آخذه معي رغم أنّي لا أُحبّ أن أشربه » .

وبينما أخذت تشعل موقد الغاز القديم وتغلي عليه الماء قرّرت أن تعدّ الشاي خفيفاً جدّاً : لا لأنّي أبخل عليه به ولكن لأنّي لا أعلم هل يتحمّل الشاي بصفة عامّة أم لا ، ولعلّه يفضله حلواً ، كان ينبغي لي أن آتي بشيء من السكر معي ، ولكني فكّرت عند قيامي أنّي لن أحتاج إليه وأنّه ليس هناك معنى لحمل ما لا جدوى منه ، ولذلك قلت لماما : أنا لا أستسيغ السكر فاحتفظي به . ومن منّا يستطيع معرفة المستقبل ؟ ثمّ ...

وخبطت هنّة القميص المبتلّ ولباس البحر وعلّقت الاثنين على ظهر كرسي ليجفّا . وكان الفتى يجلس طوال الوقت لطيفاً مهذباً على كرسيه يتبعها بعينيه إلى كلّ مكان .

وقرقعت هنّة بالفنجانين وهي تضعهما على المائدة وقالت في نفسها : أنا لم آتِ إلى هذا المكان من أجله ، فماذا يدور بخلده ؟ كنت أريد أن أخلو إلى نفسي ، فإذا بي أُحضر معي في الأمسية الأولى على الفور فتى البحر هذا . ليتني لم أستحم ! ولست أظنّ أنّي سأتخلّص منه بسهولة .

وذهبت إلى الحجرة المجاورة وتركت بابها مفتوحاً ليدخل إليها منه النور ، وانحنت على حقيبتها وأخذت تتحسّس فيها بعض الأشياء ، وفجأة أظلم المكان عليها . فقد تبعها الفتى في سكوت تام ووقف في فتحة الباب .

وعنّفته هنّة قائلة : « لماذا لا تبقى جالساً ؟ لن أهرب منك . إنّما أبحث عن الخبز الذي أعطتنيه أمّي للرحلة ، ولا شكّ أنّها وضعت عليه تموين الأسبوع كلّه من شرائح السجق ، وكم ثُرت وتمنّعت ورفضت ، ولكنها تجد دائماً حيلة لإعطائي أحسن ما عندها . وفي الطريق لم تكن لديّ شهيّة وكان الجوّ حارّاً وما زال كذلك . فكل أنت » .

وأتمت إعداد الشاي وصبته في الفنجانين وجلست أمام الفتى ثمّ تناولت فنجانها ونفثت فيه لتبرد الشاي ، ولم يُبعد الفتى عينيه عنها بل راح يقلّدها في كلّ شيء لأنّه اعتقد أن الصواب في ذلك .

وتبيّنت هنّة أن يديه جميلتان . شيء عجيب ! لقد أمسك بهما ساقي وكأنّما كان يفعل شيئاً عاديّاً . ربّما كان ذلك من عاداتهم ، والمهم أنّه لم يفكر في شيء عندما أمسكني .

لو كان لي الخيار لتناولت قرصاً من الأسبرين . ولكن ذلك قد يثير قلقه ، أو ربّما أراد أن يتناول قرصاً هو الآخر . والمؤكّد أنّه لم يعانِ قطّ في حياته من الصداع .

أو لعلّي أدخن سيجارة الآن . ولكن ما عساه يظنّ بي ؟ ومن ناحية أخرى فلم يعد معي سوى إحدى وعشرين سيجارة ، لا ، انتظري ـ السمّاك أخذ خمساً ، وأنا دخنت في الطريق ثلاثاً ـ لا يهم ، غداً أبادل عليها لأحصل له على شيء ، فهذا أهمّ .

ثمّ استجمعت أفكارها وقالت : « علينا على أيّة حال أن ننتظر حتّى تهدأ العاصفة . قصّ عليّ في هذه الأثناء شيئاً عن نفسك . من أين أتيت ؟ أعني أن تصف لي داركم » .

ونظر الفتى إليها بانتباه ليفهم أسئلتها .

وعادت هنّة تسأل : « أو قل لي إن شئت : ما اسمك ؟ فلا بدّ أن لك اسماً » .

وهزّ الصبيّ رأسه .

« ليس هناك شيء من هذا القبيل . لعلّك لا تريد أن تقوله لي ؟ فكيف أناديك إذن ؟ أم هل تريد مني أن أخمّن اسمك ؟ »

نعم ، بأيّ اسم أناديه ؟ وأخذت هنّة تفكّر وتنظر إليه نظرة متفحصة ، ولاحت لها الأسماء كلّها غير مناسبة ، وأخيراً خطر ببالها اسم ، وقبل أن تنطق به هزّ الفتى رأسه مسروراً .

وفكّرت هنّة : هذا شيء عجيب ! لم أعرف في حياتي إنساناً بهذا الاسم ، كلّ ما في الأمر أنّني فكّرت أحياناً أن هذا الاسم جميل وأنّه قد يُستخدم مرّة . هذا لا يهمّ ،

فالمهمّ أن هذا الاسم يناسبه تماماً ، وأنّه لا يمكن أن يحمل اسماً آخر غيره . وقالت الاسم لنفسها دون أن تحرك به شفتيها .

واحمرّ وجه الفتى من الفرح .

ربّما ... وفزعت هنّة . ما أعجب أنّه لم يخطر ببالي من قبل أنّه ربّما كان غريقاً ، ولكنها لم تجرؤ على سؤاله بصوت مسموع . ويبدو أن الصبي فهمها لأنّه هزّ رأسه .

واعتذرت هنّة قائلة : « دفعني إلى هذا غبائي وأرجوك ألا تغضب مني ، ثمّ إن فكرتي هذه لا تتضمّن إساءة، لأنّها ممكنة، فقد كنت أعرف شخصاً يعمل مهندساً ثانياً في البحرية، وعندما وقع الهجوم على النرويج غرقت السفينة . والحقيقة أنّي لم أكن على علاقة به فقد كان صديق زميلة لي . وعندما قصت عليّ القصة فكّرت : كيف يعيش هؤلاء الذين يعيشون في قاع البحر ؟ »

وأرادت هنّة بهذا أن تلهيه ، ولكنّها لحيرتها لم تعرف سبيلاً إلى موضوع الحديث الأول واستطردت :

« هناك أيضاً ألوان من العذاب . وهذا ما يحزنني . ولكن ما لنا نتحدّث عنها؟ أنا اسمي هنّة . يمكنك أن تناديني هكذا أو تناديني بما شئت » .

وابتسم الفتى ابتسامة نبيهة كأنّما أراد أن يعبر بها عن أنّه يعرف هذا خيراً منها ، ولاح له أنّها تريد أن تعبث به .

وقالت هنّة متحمّسة : « هذا هو اسمي حقّاً وصدقاً . ويمكنني أن أطلعك على بطاقتي الشخصيّة . حقيقة أن الاسم ليس حسناً بنوع خاص ، ولكن هذا ليس ذنبي ، فقد كان جدي يدعى يوهنس » .

ولكن الفتى بدا كأنّه لا يزال متشكّكاً .

وسألت هنّة الفتى وهي تنظر إليه باهتمام : « فما اسمي إذن في رأيك ؟ »

وبدا عليه أنّه يفكّر : ما هذا السؤال الذي لا داعي له ؟ لأنّه ظلّ وقتاً طويلاً ساكتاً قبل أن يجيب ، حرّك شفتيه فلم يُخرج منهما صوتاً ، وانطبقت شفتاه مرّتين في رقّة ثمّ بقيتا مفتوحتين قليلاً . وتحرّك وجدان هنّة وقالت في نفسها : لو علمت على أي صورة يتصوّرني. كم أودّ أن أخيّب ظنّه ، فهو يعتمد عليّ كلّيّة . وأشاحت عنه في حيرة والتمست عذراً ، فنهضت لتحضر علبة من البسكويت .

« لقد نسيتها تماماً . هي من السويد . جرّب فهذا بسكويت لم نعد نعرفه ، حصلت عليه هدية في عيد ميلادي ، والحقيقة أنّني كنت أريد الاحتفاظ به ، ولكن لا يهمّ ، كل » .

وراحت هنّة في الحجرة وجاءت وبحثت عن شيء آخر

تشتغل به ، لأنّها لم ترد أن تستمر في النظر إلى الفتى ، وفجأة جلست وقالت : « الآن عرفت من تكون . يا لغبائي فلم يخطر لي هذا على الفور . لا ، لن أهرب ، ولا حاجة بك إلى التفكير في أنّني أخاف منك . لماذا ؟ لعلّي أتيت إلى هنا لهذا الغرض ، وكان لقاؤنا في الماء منذ برهة صواباً . والغريب أنّي لم أتعرّف عليك » .

ولكن الفتى نظر إليها وهو لا يفهم مقصدها .

وعادت هنّة تتكلّم معه : « ما جدوى التخفّي. اعترف . لقد قصّ عليّ أحدهم القصة ذات مرّة ، أو لعلّي قرأتها في مكان ما ، المهم أنّها كذلك وأنّها تخطر ببالي الآن فقط . وملاك الموت عندما يأتي ، لا يتعرّف عليه المرء على الفور بطبيعة الحال ، أولاً يعشقه الإنسان ويهيم به ثمّ يحدث ما يحدث » .

ولكن الفتى بدا كأنّه لا يريد أن يتقبّل هذا الاقتراح .

وفجأة بدأت هنّة تبكي ، لم تكن تريد أن تبكي ولكن الدموع انهمرت هكذا من عينيها ، أوّلاً سبحت على مآقيها واعتقدت أنّها ستهدأ توّاً وأنّه لن يلاحظ شيئاً ، ولكن الدموع لم تقبل أن تنحبس وانهمرت على وجهها .

وحاولت أن تقول : « عفواً ، الأفضل ألاّ تلتفت إلى دموعي ، فأنا هكذا سريعة الدموع ، وقد مرّت ستّ سنوات

لم أرَ فيها البحر ، وهذا هو ما يُبكيني ، ولا يمكنك أن تتصوّر ما يعنيه هذا بالنسبة إليّ ، والحقيقة أنّني لم أكن أعلم أنّني ما زلت أستطيع البكاء » .

وسقطت قطرة من دموعها في فنجان الشاي ، ولمّا رأتها هنّة ساءت حالها .

وتحرّك الفتى قلقاً على كرسيه ، ولم يعرف ماذا ينبغي له فعله . لو كان لديه منديل لقدّمه إلى هنّة ، ومدّ يده متردّداً إلى هنّة يريد أن يربت عليها ، فلمّا لمس وجهها أبعدت هنّة يده عنها .

وقالت : « لا داعي ، سينتهي ما بي توّاً » .

ولكن ما بها لم ينتهِ . وأمسكت يده التي كانت على المائدة وضغطت عليها .

وقالت وهي تتنهّد : « فماذا أفعل بك ؟ سيضعونك في زي الجنود ويرسلونك إلى الحرب ، كما يفعلون بالجميع ، ولا طاقة لي على تغيير هذا ، عليك أن تفهم هذا ، فهو لا يناسبك على الإطلاق ، وأنت لا تعلم بما يجري هنا ، وتعتقد أن الأمور تسير في كلّ مكان على نحو ما تسير في المكان الذي أتيت منه ، أو لنقل في هذا المكان . هنا البحر وما زالت هنا أشجار وقرية الصيادين والحقول ، ولم أكن أعلم بهذا . وهذا البيت الصغير تعرّض للنهب ولكن ما حدث

له لا شيء بالنسبة لما حدث ويحدث ، والبيت من أملاك والدَي خطيبي القديم ، وقد قالا لي : « اذهبي إلى هناك وانظري ماذا بقي ، فقد تقدّمت بنا السن ولم تعد لنا قدرة على ذلك » . كان خطيبي وحيدهما ، وسقط في الحرب عندما قامت مباشرة ، لقد مرّت على ذلك مدّة طويلة !

ولكنك إذا خطوت بضع خطوات إلى داخل البلاد وجدت كلّ شيء محطّماً ، وقد اعتدنا على منظر الحطام ، ولم نعد نعرف المنظر على نحو آخر ، وصرنا نعتقد أنّه لا بدّ أن يكون كذلك . أمّا أنت فما شأنك بهذا ؟ لعلّك تفكر أن الحال ستتحسن ذات يوم وأنّهم عندما يتبيّنون أن كلّ شيء قد تحطّم ، فلن يعودوا إلى الحرب مرّة ثانية . آه ، حتى إذا صارت الحال إلى هذا ، وتحطّم كلّ شيء ، فسيعودون إلى البداية ويشعلون نار الحرب من جديد . إنّهم لا يهدأون ولا يستطيعون التصرّف على نحو آخر على ما يبدو . حينذاك ستسقط وهذا ما لا أريده ، وحتى إذا لم تسقط في الحرب ، فستعود مختلفاً تماماً ولن تعرف ماذا تعمل بي . كلّهم أصبحوا كذلك على ما أرى . ستضرب في الأرض غضبانَ ثائراً من الجوع ، أو ستتجر في السوق السوداء لتربح مالاً وتشتري شيئاً ، ولست الشخص الذي يصلح لهذا . أمّا أنا فماذا أفعل عندما أرى هذا ؟ لقد قالت لي إحدى

الطبيبات منذ مدّة قليلة : « من تلد طفلاً في هذه الظروف ، ترتكب جريمة » ، وكانت ثائرة على الرجال لأنّهم لا يفكرون.

وإليك هذا المثل ، ماما امرأة طيّبة ، وأنا أحبّها ولكني لا أستطيع أن أتحدّث معها في هذا الموضوع . وأنا أعمل في مكتبة ، وعندما أعود مساء إلى البيت تقصّ عليّ ماما مثلاً أنّها حصلت على رأسٍ من الكرنب عند بائع الخضروات ، وكان عليها أن تقف ساعتين حتى يصيبها الدور ، وهي تودّ أن أفرح بها ، وهو ما يحدث أحياناً . ولكن الجهد لا يوازي رأس الكرنب . أو تحكي لي أنّها تشاجرت مع الناس الذين نسكن عندهم ، أو غضبت في المطبخ أو ما شابه ذلك . فنحن نسكن سكناً رديئاً . إذ عندما نُسف الحي الذي كنّا نسكن فيه عن آخره كان علينا أن نبحث عن مكان نأوي إليه . ولعلّك تتخيّل أنّني أمتلك شيئاً ؟ نعم ، كنت أمتلك الكثير قديماً ، وفقدنا كلّ شيء . لم أكن فيما مضى أرتدي فستاناً كهذا الذي أرتديه الآن ، ثمّ عليّ أن أواسي أمّي ، فأقول لها : ليست الحال على هذا النحو من السوء . ولكن هذا غير صحيح ، ولست أستطيع ترديد هذا الكلام على الدوام ، وعندما يستعصي عليّ قوله يتملّكني الغضب ، ولست تعرف إلى أي حدّ استبدّ بنا الغضب جميعاً ، ولو عرفت هذا فلن تحاول أن تغضب غضباً مثله ، وربّما استبدّ

بك مثل هذا الغضب دون ذنب منك . وأنت تمسكني من ساقي وتظن : أنّها ستتصرّف . ولكن كيف ؟ ماذا تعرف عنّي ؟

منذ ثلاثة أيّام فقط قرّرت أن آتي إلى هنا . هكذا فجأة . ولم يكن من السهل الحصول على تذكرة . ثمّ المرحلة الشاقة . ولكنني قلت لنفسي : لا بدّ أن تخرجي من كلّ شيء وأن تفكّري في كلّ شيء . وكيف كنت أعلم من قبل أنّني سأبكي ؟ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتكلّم في هذا حتى ولا مع أحسن الناس ، نعم ، هناك أخيار . ليس من الصواب القول بأنّنا جميعاً أشرار . فهناك أناس ظلّوا على ما ينبغي أن يظلّ عليه الناس . ليسوا كثرة ، ومن الصعب العثور عليهم ، ولكنّهم موجودون . فإذا عثرت عليهم فلا ينبغي أن تتكلّم معهم في هذا ، أعني لا ينبغي أن تتكلّم معهم في موضوع الكرنب أو ما شاكله من الموضوعات ، لأنّهم سيقولون : هذه أشياء لا أهميّة لها ، فيحسّ الإنسان بالخجل . ولعلّك أنت أيضاً تفكّر هذا التفكير ، وهذا الموضوع في حقيقته ليس مهمّاً ، ولكنه إذا لم يلقَ العناية ، متّ جوعاً . فماذا أفعل ؟ .» وضغطت هنّة على يد الفتى وارتاعت هي نفسها لهذا .

وسألت : « هل آلمتك ؟ هل تحسّ بالبرد ؟ لماذا لا تأكل

البسكويت ؟ إنّه جيّد وليس عندي لك شيء سواه . إنّه بسكويت مصنوع من الزبد الأصلي ، كذلك الشاي لم يكن في الحقيقة من أجلك ، بل أعطانيه زبون حصلت له على كتاب كان يحتاج إليه حاجة ماسة ، وليس هناك من الكتب إلاّ القليل ، ورفضت أخذ الشاي في أوّل الأمر ، ولكني أخذته لأسباب معيّنة .

أنصت إليّ . يمكنك أن تعرف كلّ شيء ، بل من الأفضل أن تعرف كلّ شيء حتّى لا توجه إليّ فيما بعد أيّ لوم ، هذا بالإضافة إلى أنّني لم أتخذ قراراً نهائيّاً حتّى الآن ، لأنّني اليوم على موعد معه ؛ أعني على موعد مع ذلك الذي أحضرت له هذا الشاي ؛ حقيقة أنّه يقول دائماً : لست أحتاج إلى شاي ؛ ولكني أعرف كم يفيده الشاي في عمله . ولم أقل له إنّني قائمة بهذه الرحلة ، وعندما يأتي اليوم إلى البيت سيدهش ، ولكن دهشته لن تدوم طويلاً ، وقد هممت منذ برهة بكتابة خطاب إليه ، ثمّ صرفت النظر عن ذلك ، وسيفكر : لقد حال بينها وبين ذلك أمر طارىء ؛ ثمّ يذهب إلى عمله ، وهو لا يعني بذلك الغلطة التي ربّما تخطر ببال السامع بادىء الأمر ، ولكني غير متأكدة ؟ ماذا ترى أنت ؟

قبل ثلاثة أيّام لاح لي الأمر هكذا . كنت جالسة على

الأريكة في حجرته أخيط قميصه ، وكنت قد لاحظت أن أسورة القميص اليسرى متآكلة من احتكاكها بالساعة. وقلت له : هاته ، من الممكن قلب الأساور . وأجاب في غيظ : لا حاجة بي إلى ذلك . ثمّ أضاف : ولستِ هنا لهذا . ولكني أخذت القميص وبدأت أشتغل .

وكان يجلس إلى البيانو الكبير ويجرّب لحناً ، فقد كان عازف بيانو . وقد تعرّفت عليه عندما أتى إلى المكتبة يبحث عن كتاب ، فسألته : « لماذا لا تقيم كونسرتات؟ » لأنّني كنت قبل نشوب الحرب قد سمعته وهو يعزف عدّة مرّات . وكان مشهوراً .

منذ ذلك اليوم ونحن متعارفان . إنّه يؤكّد أن أصابعه تحتاج إلى جهد لتعود إلى مرونتها الأولى ، فقد جنّدوه في النهاية . يا للعار ! إنّهم عندما يحاربون يستهينون بكلّ شيء ومن يمتنع يرمونه بالرصاص ، أترى ؟ هذه هي أحوالنا .

ولكن حكاية الأصابع ليست السبب الوحيد ، فقد استرد القدرة على استعمالها كما يريد منذ مدّة طويلة .

وليس لي أن أسأله عن السبب ، فإذا سألته تهكم عليّ أو اغتاظ ، فتصنعت عدم الاهتمام وأنّني أعتبر أن السبب لا يهمني في شيء .

ولكنني أعتقد أنّني عرفته إنما يصعب عليّ التعبير عنه،

فلم أدرس موسيقى . ذات مرّة أتى أحد أصحابه إليه — وهو لا يخالط إلاّ القليل من الناس — وراحا يتحادثان ، وكان حديثهما يهمّني فتابعته . قال لصاحبه : لست أفهمكم ، لماذا لا تبقون في مخابئكم وتسكتون ، إنّكم تخافون من السكوت ، هذا كلّ ما في الأمر ، ولذلك تقفون وتخطبون مردّدين الكلام الذي علّموكم إيّاه ، وكأن حرباً لم تنشب وكأن شيئاً لم يحدث . إن ما تفعلونه شبيه تماماً بما لو أقمتم على حافة مدينة منسوفة أرجوحة هوائيّة وقلتم : تفضلوا ، اركبوا وتأرجحوا !

كان صاحبه هذا كاتباً فضحك على هذا الكلام ، ولكنه هو لم يكن يحمله محمل الضحك ، قال : الناس يذهبون إلى الكونسرت لينسوا محنتهم ساعة ، وهذا شيء لا يمكننا أن نستعيبه ، ولكن زجاجة من النبيذ تؤدي إلى النتيجة نفسها ، إلاّ أن ثمنها في السوق السوداء أغلى من ثمن تذكرة الكونسرت . أمّا الموسيقى فما أشبهها بفجر العاهرات .

ولا ينبغي لك أن تنفر من تعبيراته ، فإنّه يطلقها هكذا طبيعيّاً على قدر نغمتها . ونحن نفهمها بالتقريب ، أليس كذلك ؟

وبينما كنت أخيط قميصه أخذ يجرّب اللحن نفسه ويكرّره ، وكان يقطعه أحياناً ويعود إلى أوّله ، وكنت أرتاع كلّما قطعه لأن ذلك كان يحدث بغتة ، وكنت أعتقد أنّه

يجيد عزف اللحن، وأظنّ أنّه لا يمكن تأديته على نحو أفضل . فلماذا لا ينتهي به إلى النهاية ؟

أخذت ألاحظه سرّاً دون أن يتمكّن من الانتباه إليّ ، فرأيت أنّه لا يقوى على احتمال الحال : كان يحفظ النغمة الأخيرة ويصغي إليها .

لهذا قرّرت أن أرحل إلى هنا ، وسيصعب عليّ صعوبة هائلة أن أشرح لك القصد من رحلتي . ولست أُحبّ أن تظن أنّني أتقوّل عليه وأظلمه ، ليتك تعلم كم أُحبّ في هذه اللحظة أن أعود إليه ! نعم ، أن نذهب إليه معاً ، أنت وأنا ، يمكنك أن تأتي معي ، فسوف تحبّه ، وسيكون بينكما تفاهم وتعاطف .

فأنت تشبهه . ربّما لا يرى آخر هذا الشبه ، ولكني أراه . فلا تُشِحْ ببصرك . طبعاً هو أكبر منك سنّاً ، وله طيات في وجهه ، ويضغط على نواجذه كثيراً . كذلك شعره يختلف ، فيه ما شاب ، وإن لم يكن كثيراً . ولكنّه فيما مضى ، أعني قبل ذلك الزمن الذي أصبح فيه جنديّاً وتحطم فيه كلّ شيء ، بل وقبله ، لا بدّ أنّه كان في شكلك . هذا مؤكد .

وهو الآن يبدو أحياناً في شكلك . ثمّ ... ثمّ ... ألا تحسّ برداً ؟ لو كنت علمت أنّني سألقاك هنا لأتيت

بأمتعة أخرى معي ، فليس معي شيء لك .

نعم ، عندما كان جالساً إلى البيانو ، لم يفكّر فيّ ، فقد كان متوتّراً منهمكاً في عمله ، ولكني كنت أعلم ما كان سيفعل بعد ذلك ، كان سيأتي ويجلس إليّ بعد برهة ، أعني عندما يتبيّن أنّه لن يتمكّن من إكمال اللحن إلى نهايته ، ثمّ كان سيشعل سيجارة ويتظاهر بأن شيئاً لم يحدث ، ولكني كنت سألاحظ كلّ شيء ، ثمّ كان سيتحدّث معي أو غير ذلك .

فهو لا يحتاج إليّ . هذا ما في الأمر . لا عليك أن ترتاع ، ولكن لا ينبغي أن يوهم الإنسان نفسه ، طبعاً يمكنني أن أغيّر له أساور قميصه ، وأحياناً يكون متعباً فيأتي إليّ ، ولكنه عندما يجلس إلى البيانو لا أكون بالنسبة إليه موجودة في الدنيا ، بل على العكس قد يكون وجودي مقلقاً له .

فهل تصدقني إن قلت لك إنّني كثيراً ما أغضب منه لهذا السبب ؟ ولكني لا أعني أنّني غاضبة منه الآن ، بل وأعترف بأنّني كنت أجانب العدل في ذلك ، وقد غضبت منك منذ برهة ، بالرغم من أنّه لم يكن قد مضى على تعارفنا إلاّ وقت قصير . فأنا كذلك ، وليس لك في ذلك ذنب .

وماذا لو عزف القطعة إلى نهايتها على النحو الذي يستصوبه؟ ماذا يحدث ؟

لا أستطيع أن أصوّر لك مدى فزعي ، كنت أخشى أن يختفي كلّ شيء ويضيع لو رحت أفكّر فيه . الحجرة ، الأريكة ، القميص وأنا أيضاً .

وتعلّقت بالقميص . أمّا هو فيستمرّ في العزف ولا يهتمّ بشيء .

كنت أريد أن أتناقش معه في موضوع ، لا من قبيل موضوعات الكرنب والمشاكل التي أتناقش فيها مع ماما ، فمثل هذه الموضوعات لا مكان لها في مناقشة معه ، ولكن في موضوع أكثر أهميّة ، فهناك موضوعات أكثر أهميّة .

وبدلاً من أن أفعل ذلك ، رحلت . لم يكن تصرّفي هذا سهلاً ، ولا أعرف هل أصبت أم أخطأت ، ولست أعرف ما سأفعل فيما بعد . وعليّ أن أرى بمفردي ، كيف أقوم على أموري وأحسن التصرّف فيها . كان ينبغي لي أن أنتبه بقدر أكبر ، فقد كان الموضوع في نهاية المطاف موضوعه هو .

ولعلّه ينتهي من عزف اللحن إلى نهايته وأنا قاعدة هنا » .

وأنصتت هنّة طويلاً ونسيت تماماً أنّها ليست وحدها . وأعادتها إلى نفسها ريح مفاجئة هبّت من ناحية البلد على البيت ، وكان الفتى لا يزال جالساً أمامها ، وبدا عليه كأنّه يتعب في الإبقاء على عينيه مفتوحتين .

وفكّرت هنّة في خجل : المسكين ، لِمَ قصصت عليه

كلّ هذا ؟ إنّه لا يفهمه ، ويبذل جهداً في الإنصات إليّ ، ليصنع فيّ جميلاً . يا لي من شخص مضحك !

وقالت : « عليك أن تذهب الآن إلى فراشك . وعلينا أيضاً أن نوفر في استهلاك الشمعة فقد ظلّت مشتعلة مدّة طويلة جدّاً . تعالَ ! ليس عندي من البياضات ما يكفي إلاّ سريرواحد ، ولكن لنتصرّف » . وذهبت بالنور إلى الحجرة الجانبيّة وتبعها الفتى ناعساً .

وقالت : « ارقد الآن ، سأغسل الفناجين الآن حتى لا يكون عليّ عمل شيء في الصباح الباكر » .

وخلع الفتى الفوطة من وسطه واجتهد في تطبيقها بدقّة حسب طيّاتها المعلّمة ، واندهشت هنّة لذلك وقالت في نفسها : يا له من فتى منظم !

وقالت له : « دع الفوطة ، أو ألقها على كرسي . سأطبقها أنا » . واندسّ الفتى في الفراش وذهبت هي بالشمعة إلى المطبخ لتغسل الآنية .

وبينما هي منهمكة في ذلك بدأت العاصفة ، فانتفضت ونظرت بعد الرعد الأوّل إلى الباب المفتوح الموصل إلى حجرة النوم فلم تجد هناك شيئاً يتحرّك .

وقالت في نفسها : الأصوب أن أنتظر حتى تنتهي العاصفة وهو لا يفكّر أنّني أخاف منه . ثمّ خلعت ملابسها .

كان الفتى نائماً عندما بلغت هنّة الفراش . ولا أعرف ما إذا كانت هنّة توقعت هذا أو توقعت شيئاً آخر . وقالت في نفسها : ليس هذا غريباً ، فقد كان متعباً ، وهذا أوّل يوم له على الأرض ، وقد خبر فيه الكثير . كان يرقد على جانبه ويتنفّس هادئاً ، ولم يكن صدره وذراعاه تحت الغطاء لأن الجوّ كان حارّاً بالنسبة له .

ووضعت هنّة يدها حول الشمعة حتّى لا يوقظه ضوءُها وتأمّلت فيه متأثّرة ، وأسفت لأنّها لم تقبّله متمنية له ليلة هادئة ونوماً مريحاً .

لعلّه كان يتوقّع مني ذلك ؟ أو لعلّه كان ينتظر أن أصلّي معه صلاة ما قبل النوم ؟

وأطفأت النور وهي تبتسم ورقدت في الفراش بجواره . كان المكان كافياً ولم يستيقظ . وفي الخارج كان المطر ينهمر ، ونامت هنّة على الفور .

ولا ينبغي أن ندهش عندما نعلم أن الفتى كان قد انصرف في الصباح التالي ، كذلك هنّة لم تدهش . وقد ذكرت من قبل أن هذه القصص تنتهي غالباً نهاية حزينة أو تنتهي على الأقل نهاية غير مرضية . ولو كنت أنا الذي اختلقتها ، لصعب عليّ أن أضع لها نهاية تترك القارىء في شكّ من أمرها ، فالحديث عن هنّة والفتى لا يحتاج إلى كلمات كثيرة لإنهائه :

كان من الممكن أن نقول إنّها تمكنت من الحصول عند الصيادين بطريق البدل على بعض ثعابين السمك ، هذا شيء مثلاً . أو نقول إنّها كتبت خطاباً إلى أمّها ، ونتبع أيسر السُّبل فنذكر نصّ الخطاب ونعتبره خاتمة . أمّا عازف البيانو فسيكون من الصعب ابتداع مصير له ، فالقارىء يجب أن يعرف مثلاً هل وُفّق في عزف اللحن إلى نهايته . ولكن من يعلم ذلك ؟ ربّما استمع إليه البعض في هذه الأثناء يعزف في صالة الكونسرتات . وحتّى إذا صحّ هذا يبقى سؤال وهو : هل عرف شيئاً عمّا حدث لهنّة ؟ فإذا كان الردّ بالإيجاب : فهل كان لذلك أثر ما على عزفه ؟ ولكنّي كما قلت لم أبتدع هذه القصة ، بل أقصّ ما أعرف .

في الصباح التالي خرجت هنّة إلى باب الكوخ وكان الجوّ فيه رطوبة من اليوم السابق ، ولكن العاصفة كانت قد انتهت منذ مدّة طويلة وامتدت الأرض منتعشة نظيفة تحت الشمس . وهناك عن قرب قعد ثعلب أمام جحر فيران ، فلمّا رأى هنّة قال في نفسه : لتقف ما شاءت ؛ وأشاح عنها ولم يلتفت إليها ، وانهمك في مهمّته .

وتنفّست هنّة نفساً عميقاً . وخطر ببالها : آه ، لقد بكيت بالأمس ! ولمع البحر الفضي من بين جذوع أشجار البلوط القائمة على السفح .

وأرادت هنّة أن تقول شيئاً ولكنّها لم تتمّ الفكرة إلى آخرها لأنّها لاحت لها بديهيّة : عندما يأتي في المرّة القادمة فسأعرف بوسيلة أو بأخرى كيف أتصرّف .

كان البحر قد تجعّد تجاعيد رقيقة جداً ، وأخذت أمواج ضئيلة تلامس الشاطىء في رقّة شديدة دون أن تترك أثراً ، الواحدة وراء الأخرى .

ومن الممكن أن نضيف شيئاً إلى القصة دون أن نتورّط في كذب ، فنقول إن النساء اللاتي يعشن خبرة من هذا النوع يمكنهن أن يستفدن منها فائدة أكبر ، يمكنهن مثلاً أن يتمنين أن يُرزقن طفلاً يشبه فتى البحر هذا ، فإذا بذلن شيئاً من الجهد تحققت أمنيتهن ، فهذا بلا شك أفضل بكثير من مجرد الجلوس على صخرة والاسترسال في إنشاد أغنية الحنين من حين لآخر في المساء .

ويحضرني الآن قول مأثور قرأته في موضع ما ذات مرّة ، وأعتقد أنّه يرجع إلى اليونان الأقدمين ، ولكني لا أعرف قائله : البحر يغسل محن البشر جميعها .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

إجازة في مالوركا

بقلم كريستيان غايسلر

من المؤسف أن وجهه كان شاحباً .

كان في حوالي الستين من عمره ، أصفر اللون : وربّما دلّ هذا على مرض في القصبة أو المرارة — أو لعلّها المعدة ؟

ولكن الأوفق ألاّ نتحدّث عن ذلك .

الحياة تستمر .

لهذا السبب ضحك عندما دخل أحد زبائنه مكتبه وسأله عن حاله — عن وضعه — وفي ما إذا كانت المعدة هي السبب .

« شكراً ، ممتاز » قال الدكتور شتاين ضاحكاً .

الدكتور شتاين : صغير ، أسود الشعر ، شاحب اللون ، غير نحيل ، كلاّ ، هذا لا يجوز قوله ، مترهّل : جوف انتُزع منه محتواه . لا وجه وراثي له ولا « رأس » ولا عيون نسريّة كأسياد الشمال — بل بالعكس : تطلّع الدكتور

شتاين إلى كلّ واحد بعيون دافئة رقيقة ، وما لم تتفوّه به ألسنة بعض الناس بصورة دائمة ، ظهر في عيني الدكتور شتاين : « أرجو عفوك — عفواً » . هذا ما كان في عينيه وفي قلقه الكامن فيهما أيضاً . ولكن لأن أصحاب الأعمال لا يرغبون بالنظر إلى العيون بقي كلّ هذا خافياً عليهم .

تعامل المحامي الدكتور سيغفريد شتاين بالدرجة الأولى مع رجال الأعمال . وهذا ما حصل : لمّا هرب في أوّل أيلول سنة ١٩٤٥ من موجة القتل التي قام بها شعبه « الآري » ولمّا عاد لمزاولة مهنته بعد أن قضى نقاهة دامت أربعة أشهر عند صديق له في سويسرا — لم يعد إلى بيته القديم إذ كان كلّ شيء مخرباً ، بل إلى منزل عند بوابة النصر — في ذلك الوقت قصده الكثير من الذين كانت لهم ديون على الدولة التي لم تدفع لهم ثمن الأشياء التي استولت عليها ، هؤلاء كانوا أقلّ انهياراً منه لأن أكثرهم كانوا قد استقرّوا من جديد إذا صحّ هذا التعبير . قصدوه وأقاموا الدعوى وضحكوا ونظروا غير مكترثين إلى عينيه اللتين لم يهدّهما القلق بل على العكس من هذا فقد جعله القلق يحافظ على ضحكته المتألّقة محافظته على لغته ويديه .

ضاحكاً ينهار العالم ، هذا ما قاله أحياناً متطلّعاً إلى يديه . وكم كان مسلّياً له عندما اعتاد ، كمحام شاب ، الوقوف

خارجاً عند المساء قبيل المرافعة أمام مرآة واجهة ما يتفحص حركة يده المليئة بالمعنى ومتطلّعاً إلى الخاتم الصغير اللامع الذي ورثه .

وبعد أيّام سرق الخاتم أحدهم لم يعرفه ولم تتح له الفرصة لأن يحبه . ولعلّ الخاتم لم يأتِ بالسعادة لصاحبه الجديد .

السعادة ؟

تطلّع إلى يده . وكثيراً ما لاحظها ترتجف وهي ممدودة ، وهذا قليلاً ما أدهشه كمن يرى عنكبوتاً تموت ، يرى رجفان أرجلها النحيلة ، وبينه وبين يده كانت المسافة لا نهائيّة كالمسافة بين الأمل والذاكرة ، هذه المسافة التي تسمى الصدفة — بالصدفة يد — بالصدفة يدي — بالصدفة أنا — بالصدفة لا أزال حيّاً . والحياة تستمرّ .

ما العجب في رجفان اليد ؟

وبدلاً من أن يتعجّب من هذا الوضع كان يمدُّ يده إلى الأشياء الموضوعة على الطاولة ، ويضغط بدون عجلة بإحدى أصابعه الخمس على زرّ بلاستيكي كعادته ، فتأتي فتاة شقراء بالزبون الثاني من غرفة الانتظار .

« وقعة شهيّة يا دكتور : كيف الحال — كيف الوضع ؟ »

« شكراً ، ممتاز » .

وكان المرء يشعر براحته عنده تماماً كشعور الأصدقاء

حين يلتقون . وعندما قدم لزائره سيكاراً خيّم الحزن « عليّ أن أكون حذراً ، مؤسف . أتدري يا دكتور ، إن إنساناً مثلي غارقاً في الأعمال الماليّة متعرّض أكثر من سواه إلى السكتة القلبيّة — أقول لك يا دكتور إنّه من واجب الإنسان أن يبقى واعياً ، واعياً كالملاكم وعفيفاً كيسوعي . على الإنسان أن يضحي » .

« إنّي مقتنع وأنت تعرف لماذا » . تبسم الدكتور شتاين بصبر كبير واستمرّ : « آمل أنّك لا تمانع إذا ما دخنت سيكاراً ، لأنّي الحمد لله . . . »

« ولكن أرجوك : شيء مفهوم ! »

« لأنّي الحمد لله لا أشكو من شيء . . . »

بدأ الحديث عن العمل ولوحظ أن وجه الزبون قد احمرّ أكثر من اللازم .

« عدم المؤاخذة يا عزيزي الدكتور ، ولكن قبل إزالة هذه العقبة بعونك وبعون الله : — القضية صعبة قضية مينيّي — كلّ الحجج لدينا ، بلا ريب — الصندوق فيه شيء ، ولكن — نعم يا دكتور ، لا تؤاخذني . . . » ورفع الزبون المسكين ذراعيه كأنّه يشكو من حادث ألمّ به . « أعرف أنّك التزمت القضيّة — ولكن بصراحة : هل ستصمد ؟ إنّك تبدو شاحباً ويداك . . . »

« ما قصة يديّ ؟ »

« يداك ترتجفان » .

رفع الدكتور شتاين يديه إلى الضوء المنبعث من النافذة .

« هذا دليل الحساسية والحيوية » قال بلهجة متزنة ، وعندها ابتسم .

« وهل يحتاج المحامي الهام لأكثر من هذا ؟ »

« أعصاباً ، يا دكتور » .

« أليس هذا متوفّراً عندي ؟ وإلاّ هل كان باستطاعتي البقاء هنا ؟ »

« عفواً — هل من شيء آخر ؟ المرض يؤخّر العمل ، وفي وضعنا سيرَ الدعوى بنجاح . إنّك تبدو شاحباً . أعتقد أن المعدة سبب ذلك — عدم المؤاخذة يا دكتور » .

لم يكن باستطاعة الدكتور شتاين إزالة الارتباك من زبائنه : فاتكأ وقال عندئذ بعد أن تمرّن على اللهجة المناسبة بطريقة غير مسموعة : « لا تنسَ أن اسمي شتاين » (حجر) .

« ربّما لا أفهم تماماً ما تقصد » .

فرح الدكتور شتاين لهذا إذ صار لديه المجال لأن يتمالك نفسه . « إن معدتي تهضم حتّى الحجارة . ولو لم يكن هذا صحيحاً لكنت في مستشفى المجانين من زمان . إنّك تدرك ما أعني » .

« بصراحة ، كلاّ » .

« عفوك ! إذا ما تمكن الإنسان من هضم نفسه بالذات فليس هناك من خطر عليه . إن من يفعل هذا يا صديقي تصير قضية مينيتي لديه بيضة مع عسل ! »

« حسناً يا دكتور ! » أنهى الزبون النكتة بضحكة امتنان .

« ممتاز ! نكتتك — وأموالي ! — سنربح يا دكتور ! »

هذه هي اللهجة التي كان ينشرح لها صدر الدكتور شتاين . لقد وضع ثقته بها وعليها اتكل . لقد كان يوحي بالثقة لأنها ، كما يقال ، تخلق « الجو » الملائم . آه ، الجو . عواطف غالية . لقد عرف الدكتور شتاين تماماً أن ما من شيء يساوي في الحياة اليوميّة أكثر من قصيدة . كلا ، « الثقة » تعني : نحن نقوم بالعمل يا عزيزي الدكتور ، نحن سوية ، أنت وأنا ، أنا بمعونتك — وغالباً ما تذكر الدكتور شتاين بيتاً من الشعر أو قصيدة وعرف : أنّها كانت مهملة ، غير دارجة وضد العصر .

لولا هذا الشحوب لاستشار الدكتور شتاين أحد الأطباء ؛ أغلق باب مكتبه وراح يشتري مرهماً مدّعياً أنّه لزوجته ، وشيّعته الفتاتان الجالستان على الصندوق بابتسامة . هكذا المحامي وإلاّ فلا . إنّهما على حقّ .

في تلك الأمسية كان الدكتور شتاين لم يزل في الحمّام

حين اضطجعت زوجته في فراشها . لقد عرف تماماً كيف يجتنب الأسئلة غير المريحة وخاصة حين كان يشعر أنّه وحده يعرف حقيقة الأشياء .

وقف أمام المرآة وفرك وجهه بحذر مجتنباً رؤيته . ولِمْ رؤيته ؟ أليس من الأحسن أن يجتنب ما اجتنبه الآخرون ؟ المساواة للجميع. قال الدكتور شتاين لنفسه ملاحظاً ابتسامته بشيء من الفرح . لو تمكن أن يبتسم لابتسامته لما كان يتنازل لأحد عن تلك اللحظة التي نادراً ما تحصل . ولكنه اقتصر على تلك الابتسامة البسيطة وأحسّ في نفس الوقت بمفاجأة حارّة : كيف حرّك المرهم الدم في جلده وحسّن وجهه خاصة حول العينين وشمالاً ويساراً عند زوايا الفم الفاضحة للمرض . ومن دون وعي راح يهمدر أغنية قديمة : « أتطلع إليك بسرور ولا أشبع . . . » ولأنّه لم يتذكّر بقيّة الأغنية ردّد البيت الأوّل مرّتين ، وبغتة توقّف وتأمّل عميقاً : الله وحده يعرف كيف يعود الإنسان إلى أشياء كهذه — فرويد يعرف ، قال في نفسه ، فقد كان واسع الاطلاع ، وابتسم واستمرّ في الغناء لأنّه تذكّر أين سمعها : من يغني أغنية عيد الميلاد في غير وقتها لا يعيش طويلاً . ولكنه حذّر نفسه من أن هذا الاعتقاد ليس سوى خرافة بدون معنى . على كلّ فهو قد انتهى من الغناء .

وقبل دخوله غرفة النوم غسل يديه ، ولكي يزيل رائحة المرهم تسلّل إلى المطبخ لابساً جواربه ليأكل بصلة مفلفلة وقطعة من الخبز .

واتجه بسرعة إلى باب المنزل وقفله مرّتين كما هي العادة كلّ مساء .

ومن ثمّ اضطجع بجانب زوجته .

وفي الخارج كانت الحافلات الكهربائيّة تمرّ بصورة منتظمة . وفي المكتب دقّت الساعة القديمة الصغيرة للمرّة الخامسة دقات خفيفة . وفي الداخل كان القلب ينبض : نبضة من قلب الدكتور شتاين وأخرى من قلب زوجته ، وكلّ منهما سمع نبضة الآخر كما سمعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولكن الآن ينبض القلب بسبب آخر ، بسبب آخر منذ سنوات ، منذ تلك السنة . رقدت الزوجة بهدوء ، إنّها زوجة طيّبة .

وحتى نقول الحقيقة تماماً : كانت زوجة شتاين حقوقيّة ؛ وفي بداية زواجها السعيد اشتغلت مع زوجها بالعمل . غير أن السنين أخيراً ، ألف سنة من الخوف أنهكتها وأرهقتها — وهكذا صارت هادئة ، هادئة منذ سنوات ، بدون تذمّر وبصبر كبير ، اضطجعت هنا وأصغت إلى زوجها .

« يا له من مطر : إنّه مطر أسود » .

وأمسكت بيده . « ليس أسود ، إنّه مطر فقط » .

« كما في الماضي » .

« لا تفكري به » .

« هل النوافذ مغلقة ؟ » أبداً نفس السؤال .

« نعم . لا تهتمي لذلك » .

« لقد دخلوا من الباب . لم يكن عندنا آنذاك قفل مزدوج . أليس كذلك ؟ ولكن قبل ذلك — قبل ذلك رموا حجارة من النافذة . يلعن الشيطان ، يلعن الشيطان ؛ هل تسمع ؟ »

« لا تتذكري هذا . فالآن كلّ شيء على ما يرام . كان ذلك في الماضي ، والآن تغير كلّ شيء » .

كان الدكتور شتاين أبعد الناس عن الشكّ بهذا القول ، ولكن — يا إلهي — في الليل ينطلق الشك . وبصوت يكاد لا يُسمع : « سبعة أعوام مخبأة في ظلمات البيوت ، في الدهاليز ، في الإصطبل ، وأخيراً في بيت قائم في الحديقة على طرف المدينة . أما زلت تذكرين زهور ميّال الشمس ؟ وعندما جاء الرجل بلباسه العسكري والخوف الذي اعترانا مع أنّه سألنا فقط إذا كان باستطاعته الحصول على زهرة ميّال الشمس . كانت الشمس آنذاك عفنة . واعتقدنا أنّه يبحث عني . ولكنه راح » .

« كلّهم راحوا . يجب أن تنام . كلّ شيء انتهى .

كلّ شيء متغير الآن » .

وهنا سحب الدكتور شتاين يده من زوجته . وبصورة واعية شبك ذراعيه على صدره كي يقول لها، لزوجته ، ذلك الشيء الذي لم يعد باستطاعته إخفاؤه . ولكن كيف يبدأ ؟ أحست زوجته بما يجول في داخله . فجمدت نفسها وأغلقت عينيها في الظلام وسمعت المطر صامتةً وبلا حركة . ومضت فترة من الزمن على هذه الحال . وفجأة لاح أمامه أمل ضئيل :

« هل نمت ؟ »

« كلاّ » ..

ومضى وقت آخر . وعندئذ راح يتحدّث بصورة متقطعة :

« المطر – تماماً كما في الماضي . وأنت بجانبي – تماماً كما في الماضي . وأيضاً مرتا : اختبئوا – تماماً كما مضى » .

« ما هذا الحكي ! »

« كنت عند الطبيب » .

« وماذا قال ؟ »

« سرطان » .

« يا يسوع ! »

« يجب أن يبقى هذا سرّاً » .

« ما تقول ؟ »

« عادة قديمة . هدئي من روعك » .

غير أن الزوجة أشعلت الضوء وانحنت فوق زوجها .

« ما باستطاعتنا عمله ؟ » لم يتطلّع إليها وبقيت ذراعاه متصلبتين على صدره كمشبك حديدي ، « ما من أحد يرغب في السماع بالموت » ، قال بصوت منخفض .

« ولكن ما رأي الطبيب ؟ أما من أمل ؟ »

« ربّما ستّة أشهر ، وربّما أقلّ . المعدة ، يا مرتا » .

« المعدة » ، ردّدت هذه الكلمة برتابة ، بخوف ونفور ، وراحت تبكي ووجهها على اللحاف ، متعبة وبلا حركة .

ولكي يثبت عينيه على شيء أخذ أيضاً قسماً من اللحاف وتابع كلامه بنفس وبصوت يشبهان قوّة السحر الخرساء :

« ما من أحد يجب أن يكتشف هذا . فالإنسان يخاف ممّن في طريق الموت . الحياة تستمرّ — كما في الماضي ، أما زلت تذكرين ؟ عندما بحثوا عني . « الحياة تستمر » ، هكذا قالوا وضحكوا » .

« لا تقل هذا مرّة أخرى ! »

« لن أردّد هذا القول ، ولكن أرجوك يا مرتا أن تساعديني . أصغي : بدأت العمل فقط من وقت قصير . لهذا ليس لديّ شيء أورثك إيّاه عندما أموت . حتّى الآن لا شيء يا مرتا ! ولكن عاجلاً ! كان عندي زبون يقول : « سنربح القضيّة يا دكتور » . وضحك . إنّك تعرفين كيف

يضحكون : بثقة وباعتزاز ! وهكذا بإمكاني أن أضحك أيضاً . هذا شيء بسيط إذا ما قدر الإنسان عليه . وأنت تستطيعين ذلك — فلا يتمكّن الإنسان من معرفة ما عند الآخر . صدقيني إنّهم يتركون المحامي عندما يدعهم يشعرون بذلك ! لهذا السبب فقط ، أتفهمين ؟ الحياة تستمرّ » .

« لقد وعدتني ألا تكرّر هذا القول » .

« عفواً ، لقد صار الحديث عن هذا عادة » .

وهكذا بقيا في الفراش حتّى سمعا في الظلام خارجاً باباً ينغلق بقوّة . فتطلّع الدكتور شتاين باتجاه الصوت وأصغى .

« أليس صحيحاً — أنّه لم يكن الباب الذي من جهة الشارع ؟ »

« ماذا يجب أن أفعل ؟ » فكّرت الزوجة .

« الباب الذي من جهة الشارع مغلق ؛ فما رأيك يا مرتا ؟ »

وهنا أدارت زوجته وجهها إلى الحائط .

« في الحقيقة أن هذا البيت بارد — ستبردين في قميص النوم هذا . . . » قال الدكتور شتاين ومال صوب الحائط .

« انتظر » ، قالت زوجته ونهضت .

« ولكن ستبردين ! »

وصارت السيدة شتاين في الممر وراء الباب . لهذا ناداها

منتصباً في فراشه الأبيض : « ولكن ليس هذا ضرورياً ! لا تبردي ! أؤكّد لك أن هذا ليس ضرورياً ! »

لقد كان من الذلّ أن يكذب ، ولكنه كذب لأن خوفه كان عظيماً وهو مسنّ لدرجة أنّه لم يعد بإمكانه ضبط نفسه .

أمّا بالنسبة للباب فقد حدث نفس الشيء مرّات متعدّدة في الفترة الأخيرة . لأن الشقة التي في الطابق الثاني — شتاين سكن الطابق الأرضي — سكنها سيّد أعزب يملك سيارة حمراء بدون كاراج في البيت ، ومع هذا فقد كان راضياً في مسكنه بالحياة كما هي .

كان لهذا الرجل أصحاب زرق العيون ، رجال مثله جاؤوا إليه يتبادلون الذكريات على كأس من النبيذ في الليل ، ذكريات عن الأيّام الحافلة بالنجاح — ذكريات — معلنة ومضمرة — تحمل ذات النغم : الطفولة — لقد كانت أيّام ! وباستطاعة الإنسان أن يتصوّر بسهولة الأحاسيس في حالة كهذه حتّى إن واحدهم كان يردّد أغنية عند ذهابه ، أغنية لم تقدر على إخفاء تأثره الظاهر في وقع جزمته على الدرج ، وغالباً ما بقي السيّد شتاين وزوجته مستيقظين وسمعا الأغنية . ولكن حين يكون الزائر امرأة يصير الجوّ أكثر هدوءاً . وبقي الباب الخارجي حتّى الصباح غير مقفل . وهذا ما جعل الدكتور شتاين أرقاً لأنّه منذ سبعة أعوام وهو يهتمّ بإقفال

الباب .. وحالة كهذه تلتهم صاحبها كالصدأ .

ذكرنا سابقاً أن السيدة شتاين ذات قدرة على الصبر . ففي تلك الليلة ذهبت إلى سفل البيت وأضاءته ووجدته بارداً ومن ثمّ اتجهت إلى الباب وقفلته بدقّة . ولما عادت إلى زوجها راح يتلمّس قدميها : ومن دون كلمة حاول أن يدفئهما بيدين لم تكونا أكثر حرارة من رجلي امرأته .

أثبت الطبيب ما حمله الدكتور شتاين في سرّه منذ زمن بعيد ألا وهو وجود خلايا متورّمة في جسده من دون أن يعيرها أيّ اهتمام . ورأى الدكتور شتاين هذه الخلايا تشبه الطحلب أو الفطر الذي يميل ساق الشجرة أرضاً ، والطبيب لم يجد داعياً لأن يغير هذه الصورة، ذلك لأن واجبه الإنساني يدعوه لأن يهيىء مرضاه لقبول الموت عندما يكون الموت أكيداً . فبكونه طبيباً اعتبر الموت شيئاً طبيعيّاً ، ولكنّه ، كإنسان يتعامل مع البشر ، لم يكن واقعيّاً فرأى كلّ ما هو طبيعي حقّاً أيضاً .

وانقضت الأسابيع .

وحلّ الخريف .

وفي خلال هذه المدّة صار الدكتور شتاين معروفاً لدى بائعات المرهم ، كما أن قضيّة مينيّي سارت على ما يرام أكثر ممّا توقع . وقبل الانتهاء من القضيّة بأيّام حدث ما

يسمّى بفوز العقل ، فلم يبقَ سوى إجراءات ثانويّة بالنسبة للقضيّة : تواقيع وأختام وربّما كأس من الزكت في حلقة تضمّ أهل المعرفة — أشياء ثانويّة تستحقّ على بلادتها ابتسامة . وتذكر الدكتور شتاين أن الابتسامة من حقّ السعداء ؛ ووجد الفرصة سانحة للتسكّع في دفء شمس أيلول الشاحبة على بعض الجسور التي تؤدي إلى داخل المدينة . لاحظ التغير في لون الأوراق وفرح لرؤيته طيور البط مع صغارها تصطاد الضفادع غير الحذرة بين أعشاب الضفة الكثيفة . الصيد شيء جميل — لو مارسته من قبل — أمّا الآن فكلّ شيء متأخّر . وبشيء من الحزن تطلّع عبر الجسر إلى رجلين عند النهر ينتظران بصبر . أيّ شيء ينتظران ؟ النجاح ، قال في نفسه ، النجاح — كم هما هادئان ! تبسم وأحسّ كم هو جميل أن يموت الإنسان في الخريف .

ولكن في إحدى الليالي أحسّ بوجع لا يطاق . وحتّى يتجنّب جذب انتباه الآخرين لم يدعُ سيارة الإسعاف بل ركضت زوجته لتأتي بسيارة تاكسي . وعندما ترك البيت منهاراً على زوجته والسائق نسي أن يلتفت إليه كما يفعل الإنسان الذي يفارق للمرّة الأخيرة . صارت عيناه من الأوجاع أكثر رطوبة من أي وقت مضى . وما كاد يصل الشارع ويدخل السيارة حتّى فاض منه الدم والخراء . لهذا دفعت زوجته

ثلاثة أضعاف التعريفة فغضّ السائق نظره وسكت .

ومع الوقت خفّفت الإبر التي لا تحصى من أوجاعه وجعلتها محمولة ولكن من غير أن يعود قادراً على الاحتفاظ بالابتسامة . ويائساً وبعناد كبير أصرّ على أن يحرّك يديه كأنّهما لم تصبحا بلا حياة تقريباً ، بيضاوين ورطبتين من الخوف — هاتان اليدان .

وبالإضافة إلى هذا حاول الدكتور شتاين جهده ألاّ يزعج زبائنه بخبر موته ، كما أن زوجته عملت ما باستطاعتها لتحقيق هذه الرغبة . لم تكد سنوات الاعتقال تنقضي ، لقد صار كلّ شيء عادة ، إن الدكتور شتاين على حقّ . لهذا ظهرت الأشياء سهلة بالنسبة لزوجة شتاين . راحت تستمع من وراء المكتب لهذا الزبون وتنصح ذاك كي تخفي قلقها على زوجها الذي يموت كما أخفت في الماضي خوفها على حياته . البودرة وأحمر الشفاه وقليل من المزاح — هذا كلّه كان القناع الذي تعلّق به الآخرون فلم يروا ما وراءه .

« مساء الخير يا دكتور ! كيف الأحوال — كيف . . . آه ! عفواً ! سيدتي المحترمة ! أهو أنتِ ؟ »

وكان باستطاعة السيدة شتاين أن تبتسم كفتاة صغيرة .

« نعم ، هو أنا ، أرجو ألاّ يزعجك هذا . إنّي أنوب عن زوجي حوالي يومين ، وهو يسلّم عليك . أنا نفسي حقوقيّة

كما تعرف على الأرجح . أرجوك ، اجلس » .

« شكراً . ما أصاب زوجك ؟ »

« أصابه ؛ لا شيء » .

« عفوك ، سيدتي ، ما من أحد يرغب في أن يتحدث عن – لنقل : عن أشياء غير سارّة ، ولكن . . . »

ضحكت السيدة شتاين بلباقة . « هل أصابك شيء ، أيّها السيّد المدير ؟ »

« أنا ؟ »

« لا شيء في الحقيقة . تلوح وكأنّي آذيتك . عليك بالراحة ولو مرّة ، صدقني . خذ زوجي مثلاً . والآن ، بعد نجاحه في قضيّة مينيني ، عزم أوّل البارحة على قضاء بعض الأيّام في مالوركا ! ما رأيك أيّها السيّد المدير ! هنا ، أترى ، لقد وصلتني اليوم البطاقة الأولى منه ، أليس جميلاً هناك . . . »

وكان عليها أن تضحك في النهاية ، وهذا ما عرفته السيّدة شتاين تماماً ، وكان عليها أن تجيب على أسئلة تنقصها المعرفة الكاملة عنها ، لهذا كانت تجتنبها بلباقة حتّى تأخذ في ما بعد ، في الليل ، معلومات من زوجها عنها – من دون أن تبكي ، إذا كان هذا باستطاعتها .

وحدث الشيء نفسه ليلة بعد ليلة : الغرفة المعتمة والمنعزلة

ورقمها ؛ الفراش وأرجله العالية ؛ وعلى الوسادة رأسه الأصفر .

« لو تفتحين النافذة ، يا مرتا . إن هذا يزعجك . أعرف أن هذا لا يطاق » .

عانى الدكتور شتاين صعوبة لا توصف في الكلام ، ولكنّه غالباً ما لاحظ أنّه لم يعد بإمكان زوجته احتمال ذلك . لو كانت لديه القوّة الكافية لرفع رأسها بيديه كيما تراه .

« مرتا – أليس صحيحاً أنّي سافرت إلى مالوركا ؟ . . »

« أتحسد نفسك ؟ »

« والآن ؟ من يبكي الآن ؟ »

ولم يبقَ للتعزية وقت طويل .

« لماذا جئت يا مرتا إن كنت غير قادرة على ضبط نفسك؟ دعيني ألقِ نظرة على الملفات – ما القضية ؟ بسرعة ! مينيّي ؟ أهناك من خطأ ؟ »

« تنقص التواقيع فقط . ليس الآن – في ما بعد – أرجوك ! »

« في ما بعد ! كم أنت متفائلة ! »

سكتا لحظتين يتأمّلان بمعنى كلمة : تفاؤل . غير أن الأوجاع أطبقت من جديد وجعلت كلّ شيء لغواً . فعلى الإنسان أن يستفيد من الحالات المتقطعة التي فيها يغيب الألم .

« قربي – أعطيني الملفات ، اسمعي : ستنوبين عني في الآخر كما فعلت حتى الآن . وما من أحد يجب أن يقف على حقيقة الأمر وإلا ستكون لدى الخصم حجة : لم يكن قادراً على التفكير الصحيح – إنه مريض حتى الموت – وكل شيء سيبدأ من جديد – هذا ممكن . صدقيني يا مرتا ! هذا ممكن ! ما من أحد يجب أن يعرف . . . سيضحكون – ويضحكون ! أليس صحيحاً يا مرتا أنك قادرة على الضحك؟ – تعالي ! تعالي – أرجوك – جربي أن تضحكي ! الآخرون يضحكون أيضاً – الآخرون » .

بالفعل ! وحضر مشروب الزكت .

مدح السيد طوال النهار كل من ساعده . « فلولا الدكتور لما كانت هذه الحفلة الصغيرة – نجاح لامع ! نجاحه بدون شك . ولكن هل لي بكلمة أيتها السيدة ؟ »

تناولت السيدة شتاين الكأس وأصغت إلى السيد .

« . . . على كل ، نعم – امرأة حقوقية – هذه الابتسامة ما أعذبها ! أعني – أريد أن أشرب نخبك » .

ودار الحديث بصورة عابرة حول مواضيع فكرية : الحضارة – لو كان الوقت الكافي متيسراً ! وحاول بوجهه الأحمر الملآن إظهار شيء من الحزن . غير أن الكبرياء ! « آه ، أرجو ألا تسيئي فهمي : للحضارة – أقول دائماً

يجب أن يبقى للحضارة مكان ولو صغير. هذا ما أراه بصفتي ألمانيّـاً ... »

وأخيراً تذكّر فيلماً في باريس – يا للعار ! نعم ، الديموقراطيّة – لقد ظهر بالزاك في الفيلم كاتباً سينمائيّـاً موهوباً .

جاء أحد الخدم إلى السيّدة شتاين وقال لها إنّها مطلوبة على الهاتف .

لقد كان طريقها وهي عائدة إلى السيد الضاحك أطول من جميع الطرق التي يسير عليها الإنسان وحيداً . وعندما رأى السيّد الزوجة شتاين تعود ، اتجه صوبها متردّداً وسألها بلهجة قلقة : « هل أصابك شيء أيّتها السيدة المحترمة ؟ فأنت شاحبة تماماً ! »

« صحيح ؟ كلا ، هذا من الضوء ، فأنا في حالة جيدة . وزوجي يحييك ! »

« زوجك ؟ »

« إنّه في حالة جيّدة . هو يقول إنّه ممتاز » .

والتفت السيّد مشرقاً إلى حلقة الذين ساعدوه : « هكذا ، أيّها السادة ! إن الدكتور زوج حقيقي . فهو يخابر زوجته من مالوركا هاتفيّـاً . هذا الاحترام الفائق ! هل لي أن أشرب نخب هذا الشعور الجميل ، نخب زوجك ، أيّتها السيدة ؟ »

وهتف الآخرون : « برافو » مرّتين . وفي الوسط وقفت السيدة شتاين لتقول بصوت عال ومرتجف قليلاً : « نخب الدكتور شتاين ، زوجي ! »

ومات المحامي الدكتور سيغفريد شتاين من أوجاعه العميقة — وحيداً ، بين الجدران البيضاء — دون ضوء ، وخلف النوافذ المغلقة — من أوجاع لا توصف . وعلى شهادة الموت كتب : يرقد بأمان ، لأن المهم ألاّ يزعج الإنسان أحداً .

وبعد مضي يومين على الدفن تسلّمت السيّدة شتاين من مؤسّسة ماليّة ٢٣٠٧٥٠ ماركاً ألمانيّاً بعنوان : إلى السيّد الدكتور سيغفريد شتاين في قضيّة مينبيّ .

تملّكها الخوف عندما قرأت هذا العنوان ، غير أنّها أحسّت حالاً برغبة من يحاول إخفاء خبر سعيد . تذكرت زوجها الذي خبّأته سنوات عديدة — في الأول لأنّه كان لم يزل في قيد الحياة — وأخيراً لأن الحياة تركته — وفي النهاية كان عليه أن يأخذ إجازة ليموت .

إجازة في مالوركا .

ترجمة : فؤاد رفقة

مسيرة بلا جدوى

قصة بقلم : جرد جايزر

سألتني البائعة : « هل هو كلب كبير الحجم ثقيل الوزن ؟ » فأجبتها متسائلاً : « أيّ كلب ؟ »

عندئذ تركت البائعة ذات العينين الحالمتين والثغر المفتوح قليلاً والصوت الخفيض ، منفضة الريش برفق من يدها ، وتطلّعت إليّ . كان الحانوت يحتوي في نفس الوقت على طيور معدّة للبيع ، راحت تقفز بلا هوادة في أقفاصها الكثيرة ، حائرة مبلبلة ، وأصواتها ضائعة تنتحب . وكانت هفهفة الأجنحة وخفيفها ، والخدش بصوته الجاف ، والصرصرة والزقزقة تملأ الدكان بصخب أجشّ عنيد في حدته . وبين لحظة وأخرى كنت أسرح بفكري . قلت مستدركاً : « آه . . . أجل ! » وأردفت : « إنّه كلب كبير جداً ، ثقيل جداً . . . »

فكّرت البائعة بعض الشيء ثمّ قالت : « لا بدّ أن

أبحث في مخزننا . فهل لك أن تنتظر ؟ . . »

قلت : « تفضلي » . كنت أوّل عميل تطأ قدماه الدكان ، فقد كان الوقت لا يزال مبكراً ، والآن ظللت فيه وحدي . وعلى منضدة الحانوت كانت المنفضة موضوعة كما تركتها البائعة . قطعة متقنة الصنع ، عصا سحريّة تبعث على المرح ، عود فاتح الصفرة وريش أشعث فاقع الألوان . كنت سعيداً إذ تعين على البائعة أن تذهب وتترك لي فترة استراحة . فلم أكن طيلة فترة غيابها بحاجة لأن أستحثّ أفكاري . راحة معتوهة ، لا حاجة بها لأن تعوق اختفاء الأفكار . واستطعت بذلك طأطأة رأسي إلى الأمام . عود أصفر ، وريش ملوّن كريش الببغاء . وولى الوعي الأدبار بخطوات تكاد أن تكون منتظمة في تتابعها . لم أستحوذ على الصور التي تواردت على مخيلتي . لم أستدعها . ولم أكن أيضاً قادراً على طردها . فقد أتت وذهبت ، ثمّ أتت محجبة مرّة أخرى . ولم يكن هناك ما يبعث على الشكوى سوى أن الطيور لم تهدأ . وربّما لم تكن الطيور غير هادئة على الإطلاق . ربّما كان ذلك هو أسلوب حياتها ، فتحتّم عليها أن تعيش هكذا : تقفز من مكان لآخر ، دائماً نفس القفزة ، من عارضة إلى أخرى ، تقفز بميل إلى أعلى ، أو بانحراف إلى أسفل ، وتقاطع أو تقابل بعضها البعض ، وهي ذاهبة آيبة . تنفرد أجنحتها بعض

الشيء ثمّ ترتخي من جديد . هكذا كانت تعيش في أقفاصها . واستثارت في نفسي رتابة تلك الحركات التي تكاد أن تتسم بالآلية ، شعور الغثيان .

لم أستطع أن أنام خلال الليلة السابقة ، التي قضيتها في رحلة بالقطار . وأمضيت ما قبلها ليلتين تحت تأثير العقاقير المخدرة . وكذا رقدت مستيقظاً أثناء الليلة التي نزلت فيها بفندق « فيومز » . رقدت مستيقظاً في مخدع مكسو بفرش خشن . وبالرغم من أنّي كنت قد وصلت مرهقاً ، إلاّ أنّي أجبرت نفسي على أن أظلّ راقداً ، وحتّى لا أهيم على وجهي ، أو أبحث عن أي شيء أنشغل به . مخدع مكسو بفرش خشن . تغلّب الشكّ عليّ بضع ساعات ، ولكنه لم يظلّ على حاله عندما لاح الفجر . فعند مقتبل الصبح تبين لي بصورة حاسمة أنّه لم يكن هنالك اختيار ، وأنّه كان لا بدّ أن أفعل ذلك حتّى أجد النوم من جديد ، وربّما لكي أصبح . كان لا بدّ أن أفعل ذلك .

وهكذا كلّف الأمر جهوداً للصمود وانتظار النهار . إلاّ أنّه عندما دبّت الحياة في الفندق ، وارتفع الصخب في الممرّات ، وطنّت المصاعد الكهربائيّة ، وقلت لنفسي إن الوقت لم يعد مبكراً للغاية ، وإنّه في استطاعتي أن أعدّ نفسي للخروج ، كنت بحاجة إلى جهد كبير لأنهض وأتحرّك في

الغرفة ، أخذت أخلط بين الأشياء وأنسى في كلّ لحظة ما كنت أريد أن أفعل . وبمجرّد أن ارتديت ملابسي غادرت الفندق . ولم يخطر لي أنّه كان عليّ أن أحتسي شيئاً من القهوة إلاّ بعد أن مضيت لبضع خطوات في الشارع . واستحوذت عليّ حاجة ملحّة إلى القهوة الساخنة . ولكنّي قلت لنفسي : لا ، لا توقف .

إذن فقد بدأت مسيرتي وانتبهت إلى جانبي في الشارع . ولاحظت أنّي خرجت في وقت لا يزال مبكراً . فلا زالت تنطوي هنا وهناك حصيرة شباك إلى أعلى أو يتحرّك شخص في خلفية أحد الدكاكين . وانفتح باب إلاّ أن المرأة التي فتحته راحت تسدّ المدخل في نفس الوقت بمكنسة وضعتها بعرضه . وفي دهليز الدار صوت خشن لفرشاة تنظيف تحكّ ، وسائل يرغي ويتدفّق من نصف الظلمة على الدرجات . كانت السماء متحجّبة بغلالة في لون الحليب ، والهواء غير متجدّد : ففي ذلك الصباح المبكر كاد الجوّ أن يكون حارّاً رطباً تحتبس فيه الأنفاس .

مضيت تحت طريق « البواكي » المسقوف ، بحوانيته الضيقة ذات النوافذ الصغيرة ، الراجعة بعمق إلى الوراء ، حيث تباع العاديات القديمة والذهب والساعات ، وكانت مغلقة بالعوارض الشبكيّة . وعندما انتهى الطريق المسقوف

تابعت سيري نحو محلات بيع الفواكه والخضروات ، التي كانت يوزن فيها ويباع . ومررت بالصناديق والسلال التي كانت تفوح منها بقوّة رائحة المشمش ، والشمرة ، وجذور الكرفس اللفتي . وقابلتني في طريقي حوانيت بيع السمك ومحلات الجزارة ومحلات الأحذية ونوافذ عرض الملبوسات والمنسوجات المطرّزة . ولم أكن قد بلغت بعد الدكان الذي أريد . وهكذا مضيت عبر ميدان « ميدارد » بما يحيط به من معالم عتيقة ، وهو المكان الوحيد الذي يتبيّن منه مدى تعمير فندق « فيومز » ، ووقعت عيني على القرميد الذي كان يتلألأ بسطحه الملوّن اللامع وتنسيقه الزخرفي فوق سطح كنيسة القديس « ميدارد » ، كما رأيت نافورة الأسماك ذات الحزوز المستطيلة المنقوش عليها سرطان البحر الصغير ، وصناديق نبات « إبرة الراعي » تطلّ فوق حوض النافورة بمائه الصافي ، الذي طليت جدرانه الداخليّة باللون الأزرق الجيري . وبينما كنت أمرّ بتلك الناحية طرقت أذني أصوات قرع الأجراس بوزن وإيقاع ، وكانت الساعة الثامنة صباحاً ، والنواقيس تقول : غنّ وصلّ . واسلك طريق الحقّ وأدّ ما عليك من واجب . . .

سرت في الطريق الحقّ ، وقطعت الميدان تحت أصوات الأجراس المتقطّعة ، والآن أتى حانوت الناصية بزهوره ، ثمّ أتت اللافتة . لا ، لم أترقب الخط على هذه الصورة .

لقد كانت الحروف الأولى من الاسم ذهبيّة على أرضيّة سوداء لامعة ، بحيث يمكن قراءتها من مكانها تحت النوافذ المربعة العالية ذات الطراز القديم ، وكذا خط الكتابة المزخرف ذو أسلوب عتيق يتفق وشركة ذائعة الصيت مثل : « أولاد بوناني » . كتب اسم « أولاد بوناني » وعن يمينه ويساره رتبت الأوسمة ولوحات التكريم التي حاز عليها هذا المتجر الشهير خلال عشر سنوات ، وكلّها من نوع قديم الطراز . وشركة « أولاد بوناني » حائزة على أحسن شهرة في صنع السكاكين والمقصات وأدوات الجراحة . إن الحروف الأولى من اسمه محفورة بخطه المزخرف على حد السلاح ، علامة على جودته . وشركة « أولاد بوناني » في كلّ مكان . أيضاً على شفرة السلاح الذي استعمله « روجر » . لقد ابتاعه « روجر » من الشركة المنتجة . وقف « روجر » كما أقف الآن واختار الشفرة من وراء لوح الزجاج . كانت الشفرات مفروشة فوق المخمل على هيئة مروحة . جهاز حساس ، سكين لأيدٍ لطيفة ، وشفرات منحنية أو مسنّنة أو على شكل منجل . والمخمل القرمزي ، إن لونه دموي قاسٍ ، لا يفصح عن شيء . هناك كانت ترقد أداة « روجر » . كنت أعرفها ، تلك الشفرة المسحوبة بدقة . وقفت في المكان الذي وقف فيه « روجر » من قبل ، وأنفاسي يصعب التقاطها باطّراد .

وتزايد العذاب الذي أجهدني كي أسحب أنفاسي . ووقفت طويلاً هنا . ولكن لا يمكن أن أكون وقفت هناك طويلاً ، فقد كان قرع الأجراس الموزون يعبر بي وينساب مختفياً في تقطعاته التي ضغطت على السمع مردّدة : أدّ ما عليك من واجب . أنا بصدد أدائه . وأصررت على ألاّ تنحاش عني أنفاسي . ألتقط نفساً . واحتجت إلى كلّ ما لديّ من قوى حتى أواصل التقاط نفسي .

غنّ وصلّ واسلك طريق الصواب . لم أغنّ . كنت آنذاك لا أعوّل كثيراً على الصلاة ، ولا أجد أيّة جدوى في مثل هذه الكلمات المعدة سلفاً . لم توجد الكلمات التي كان يمكن أن أردّدها ، وافتقرت إلى تصور الذات التي كان في الإمكان أن أوجه إليها صلاتي ، وما كان سيتوجب أن أتضرّع به إليها ، فقد صار كلّ شيء إلى سوء . ولكنه خطر لي هنا ، أمام نافذة دكان حدادة السكاكين ، أن الكلمة نصت فقط على « الصلاة » . ليس أكثر . الصلاة على نحو مطلق ، و « صلِّ » فعل لازم لا اتجاه له ، ولا مفعول به منصوب . تسلّطت عليّ هذه الفكرة وأضاءت لي معالم الطريق ، فقد كنت لا أعرف فيما عدا ذلك كيف أستطيع أن أتخلّص من حانوت السكاكين ، كيف أمسك بشيء يخلصني من المتجر الذي ابتاع « روجر » منه ، وخطوت إلى الوراء ،

بينما صدمت بعض المارّين وأنا أحاول أن أستدير . إذن فقد عدت إلى كنيسة القديس « ميدارد » وخطوت إلى الداخل حيث الرطوبة والإحساس بالأمن تحت سقفها ذي الارتفاع الكبير ، والقرميد الذي يتلألأ . وهناك ، في تلك الرطوبة وذلك الغور الذي لا يبدو من أعماقه سوى بضع نقط ضوء بنّية تلمع ، وضعت وجهي على المقعد الذي أمامي . وأحسست لأول مرّة أن وجهي قد صار عجوزاً ، وأنّه لا بدّ أن يحتوي على الكثير من التجاعيد . شعرت بذلك على خدّي الذي كان بالقرب من يدي . ولما كان قد خطر لي من جديد، كما لو كنت نسيت تفاصيل ذلك ، أو كما لو كنت أعرف أنّها لا تتعلّق بي . خطر لي ما فعله « روجر » . ونظراً لوجودي في هذه العتمة التي تفوح برائحة طيّبة ، وربّما كانت لا تخلو من شيء من العطونة ، ونظراً لعدم خطور شيء على بالي ، بدأت أتمّم ببضع كلمات، واستعدت ذكرى حفظها وتعلّمها . وأجهدت نفسي في جمع التوسلات التي لم أنطق بها إلاّ لأجد شيئاً — أيّ شيء — أقوله وأحرّك به شفتيّ ، وحتى تكون هناك صلاة ، ولكن ليس من أجل أن يستجاب لي دعاء ، لا ، ليس من أجل ذلك . فمن يصلّي ويعلم لماذا يصلّي ، ثمّ يفعل ذلك من أجل أن يستجاب دعاؤه ، فإنّه بذلك لم يعد يصلّي ، أو هو لم يصلّ بعد . ومن يستطيع أن يحسم

ذلك ؟ — وصلّيت إذن بكلمات ، رحت أبتلع معناها . إلاّ أنّي عندما نطقت بالتضرّع الآتي ، وسمعته بمجرّد نطقه : « واغفر لنا خطايانا » — ثمّ بلغت الجملة التي تليها : « كما نغفر نحن أيضاً » — اختنقت الكلمة في حلقي . صمتُّ وانغلقت على نفسي ، وابتلعت عذاباً مريراً ، بينما كانت قواي قد انهارت . لم أرد أن أستمر ، وهكذا كففت عن ذلك ورحت أنتظر شيئاً ، إلاّ أنّه لم يحدث . وأحسست بالخشب الذي نخره السوس في يديّ اللتين رقدتا الآن إلى جوار صدغي على حافة الأريكة الخشبيّة . وكانت يداي باردتين مع أن الصباح في الخارج يكاد أن يكون حارّاً رطباً . مكثت طويلاً . وعندما كنت أنتظر وأظلّ أعلم دائماً ومن جديد أنّه عليّ أن أفعل ذلك إن كان لا مفرّ من أن أواصل الحياة ، من أجل بضع ضرورات تجبرني على العيش : كان لا بدّ أن أفعل ذلك .

غادرت كنيسة القديس « ميدارد » واتجهت مرّة أخرى نحو الناصية ثمّ مررت بمتجر الزهور ، ومرّة أخرى بالسكاكين دون أن ألتفت إلى جانبي . وحالاً كان هو الحانوت الذي يلي الدكان القادم . والآن جلست في مكاني إذ تعين على البائعة أن تفتش في المخزن . جلست على مقعد مستدير منخفض ذي كسوة جلديّة ، وكان يشبه مقاعد « البارات » . فقط لم يكن له أرجلها الطويلة ، وكلّما نسيت نفسي انزلق منّي

رأسي وتدلّى على صدري بحيث كنت أنتفض من الجزع عندما بدأت أترنّح فوق المقعد المتخفض . ظلت البائعة تبحث طويلاً . ولم يكن ذلك ليضايقني لو لم توجد الطيور .

وأخيراً عدت أسمع صوت البائعة . فقد أتت من الباب الخلفي للحانوت بعينيها المتسائلتين وفمها المفتوح قليلاً والذي ينمّ عن شيء من التكلّف والبلاهة ، ثمّ قالت : « هذه هي السلعة الوحيدة . فليس لدينا ما هو أثقل من ذلك » .

قلت لها : « أريني سلعتك . علّك لا تكونين قد أحضرت هذه المرّة لعبة أطفال من جديد » .

ولم تكن لعبة في هذه المرّة حقّاً : « هل أستطيع أن أجربها هنا ؟ »

فردّت البائعة : « لا ، أرجوك ، ليس هنا . إنّها سلعة لا تباع عندنا عادة . . . لا ، ليس على المائدة ، فهي لا تحتملها » . هكذا قالت لي بشفتيها المفتوحتين قليلاً ، وبعينيها المتسائلتين المتطلّعتين إليّ .

فأجبت قائلاً : « حسناً إذن فلأدفع » . ووضعت النقود أمامها ، فقالت : « شكراً ، ألست بحاجة إلى إيصال ؟ »

— « لا ، شكراً ، لست بحاجة إلى إيصال » .

— « ولكنه يحسن أن ألفّ لك السوط » .

— « لا داعي ، فهو سيُستعمل حالاً » .

ولففت الحزام الثقيل المجدول على يدي ، بحيث تكوّنت منه حزمة لولبيّة ، جعلت أضغطها إلى بعضها البعض ، وقلت في نفسي للوهلة الأولى ربّما استطعت أن أضعها بأكملها في أحد الجيوب الداخليّة ، إلاّ أن الجيب لم يتسع لها . وهكذا وضعتها تحت سترتي وسندتها بإبطي . كانت شديدة البروز . غير أنّه كان في استطاعتي أن أسير بها هكذا لو لزم الأمر ، طالما لا أعقد أزرار السترة . وعلى أيّ حال فالطريق لم يعد طويلاً .

كنت أعرف الشارع ، ولكني لم أدخل هذه البناية الكبيرة المليئة بالمكاتب على الإطلاق . قلت لنفسي عندما شاهدت هذه البناية : إنّه يسكن في بيت من زجاج . ولم يفلت زمام الوعي هذه المرّة . وأصبحت أرى الآن بوضوح وأفكر في ترابط . صحية وزجاج ومعدات للأجراس وهواء مكيف ، كلّ هذا في هذه الدار . وإلى جوارها بناء يجري العمل فيه على قدم وساق ، فهناك تقام دار أخرى شاهقة . ويتصاعد منها ضجيج آلات الخلط . إلاّ أنّي لم أتوقّف . لم ينقطع الدخول والخروج عند مدخل العمارة . ومضيت بين أفواج الخارجين وذهبت مع تيار أناس كانوا يريدون الدخول إلى بهو المدخل . ودلفت إلى المصعد الدوار وتركته يصعد بي . قرأت أرقام الطوابق ، التي ظهرت مزدوجة ، مرّة بين

الطوابق في البناية ، والأخرى عندما كان يبلغ إطار المصعد ارتفاع الدهليز . وعند الرقم الصحيح خرجت متجهاً إلى اليمين ، ورأيت أمامي الأبواب الأربعة التي تعنيني ، ثمّ اللوحة التي تحمل اسمه ، ذلك الاسم الملعون الذي سمعته لأول مرّة من فم « روجر ». كانت ثلاثة أبواب مغلقة ، والرابع نصف مفتوح وكأن أحداً في انتظاري . يا له من اسم ملعون .

« في الطريق الصواب » . إذن لم يكن بي حاجة إلى أن أدقّ الجرس . ولم أضطرّ إلى تسجيل زيارتي . لست أدري ، هل كان ذلك مرتبطاً بالعمل ، أم كان بعض عمال التصليح في البناية ، أم ذهب الموظفون لتناول طعام الفطور ، وربّما ذهب أحد الأشخاص منهم إلى البريد ، لست أدري . ولم يستغرق كلّ شيء أكثر من دقيقتين أو ثلاث . إن دقيقتين أو ثلاث دقائق زمن قصير إذا فكرنا فيها بعد فواتها . ولكن دقيقتين أو ثلاثاً حمل كبير إذا مرّت ونحن في انتظار شيء .

كان الصخب يملأ الحجرات قادماً من مكان البناء المجاور . فقد كانت نافذة الدهليز مفتوحة . ولا بدّ أنّه كانت توجد نوافذ مفتوحة في الحجرة الأولى من ناحيتي . أمّا الضوضاء الطاحنة الصارخة فكان رجع صداها ينعكس على الجدران الملساء التي يمكن غسلها ، والأرضيّة الخشبيّة اللامعة . وهكذا دلفت عبر باب تالٍ ، مردود هو الآخر ، وكان اسمه الملعون

يعتليه كذلك ، وتحت الاسم عبارة : تسجيل الزيارات . دخلت دون أن أطرق الباب أو أن يبدر مني أي علامة تدلّ على الاستئذان . ورأيت في الداخل مكتباً بكرسي دوار ، حُرّك إلى أحد جانبيه . وكانت بضعة ملفات موضوعة على سطح المنضدة ، وصفحة من الورق موضوعة في الآلة الكاتبة . وهنا أيضاً كان الهواء راكداً بالرغم من النوافذ المفتوحة . وتدفقت إلى الداخل مع الصخب والعجيج رائحة الملاط . وابتلعت الضوضاء وقع خطوي ، فلم يكن بي حاجة إلى أن أخطو بصوت منخفض ، حتى لو كنت أريد ألاّ يسمعني أحد . وربّما لم يكن في وسعي أن أتكلّم . أمّا نفَسي فكنت ألتقطه وكأنّي صعدت لتوّي عدداً لا نهاية له من الدرجات ، مع أنّي جئت في « المصعد الدوار » . ولكنه لم يكن ضرورياً أن أتحدّث . وشعرت بأن السوط الذي ابتعته كان ثقيل الوزن . وانزلق طرفه المجدول على الأرض .

كانت هذه حجرة سكرتاريته ، التي عبرتها . وكان الباب السميك المنجد ، المؤدي إلى غرفة المدير ، مفتوحاً بدوره . ورأيته من خلال الباب . لم أعرفه من وجهه ، إلاّ أنّي شاهدته الآن جالساً . ذلك الذي أفسد « روجر » حتى جعله لا يقوى بعد على الحياة .

كان جالساً هناك . كان حيّاً . لم يكن يضيره شيء .

لا شيء . وكلّ ما يتصل بمظهره الخارجي كان يدلّ على أنّه يتمتّع بصحة قويّة قادرة على المقاومة . لا شكّ أن فكرة عدم الرغبة في الحياة ، لأي سبب ، كانت ستبدو له غريبة ومفاجئة . هكذا عاش . جلس في مكانه حيّاً إذن ، يعيش في معاملاته المالية بين جهاز التلفون وآلة الإملاء . وكانت أمامه إحدى المراسلات حيث طوى لتوّه إحدى الصفحات ، طوى الصفحة الأولى متأنياً كي يدرس الصفحة التالية . إذن فقد وضع الصفحة رقم « ١ » إلى جواره برفق ، في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه يدي ببطء دون أن أشعر بها . وضع إذن الصفحة رقم « ١ » إلى جواره وبدأ يتابع القراءة من أعلى صفحة « ٢ » بينما تحرّكت يده أثناء تفكيره تحت رباط عنقه حيث كان قميصه مفتوحاً ، وراح يرفع قميصه ويفك ياقته بحذر ، مع أنّه لم يكن ليستطيع أن يعلم أن أحداً يراقبه . وفي نفس الوقت راح يهوي ذراعه بعض الشيء ويطوي أكمام قميصه إلى أعلى . بدا فمه وكأنّه يتهجأ . كان يقرأ كمن يريد أن يعرف النص بدقّة ، لأنّه يبحث ويدون الحسابات . والآن مرّ بإصبعه على شفته السفلى ، فرطبها بريقه وضرب بها على الورقة ليخلصها من الصفحة التي تليها . ضرب عليها بإصبعه ولكنه تردّد في طيّ الصحيفة . وبدا الارتياح على أسارير وجهه . صباح الخير . إنّه لصباح طيّب . فلا شكّ

أن اليوم طيّب بالنسبة له .

ودفعة واحدة لم يصبح شيء ممكناً بعد ذلك . لم أعد أشكّ في أنّه لا بدّ أن أفعلها ، ولكني أحسست دفعة واحدة بيدي التي كنت قد عدت فأخفيتها . ولاحظت يدي ، التي كانت شيئاً مستقلاً بذاته ، نفس الأمر الذي لاحظته . لست أدري من أو ماذا الذي كنت قد فكّرت في مقابلته حتى لحظات قليلة مضت . والآن ، هو جالس هنا . جالس هنا ببساطة . وليس لي أيّ تعامل معه .

عندما فكّرت في مسيرتي قبل أن أشرع فيها ، كنت أعلم أنّه ربّما سيصعب عليّ أن أرفع يدي بالضربة الأولى . ولكنه تقدير خاطىء ، فقد كان في مقدور يدي أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها . كان في مقدورها أن تحمل العبء عني . ولكني كنت أعلم ، أو أعتقد أنّي أعلم ، لو كنت قد بدأت الضربة الأولى كان من الصعب عليّ أن أتوقّف بعدها . وقد كان الاحتمال قويّاً بأنّي لن أستطيع أن أتوقّف ، مع أنّي كنت أفكّر في ذلك أيضاً قبلها : ليس إلى درجة الموت . نعم ، ليس إلى درجة الموت ، وإلاّ حقّقت له بذلك امتيازاً .

ولكنّه الآن لم يعنني . الآن ، بينما لا أحتاج إلى سوى خطوة واحدة ، جلس شخص وراح يقرأ . شخص لم يكن في مقدوره أن يفهمني . وبلا تفاهم لم أستطع أن

أقدم عليها .

استمرّ الضجيج بحدّة وصخب في الخارج ، ولما كنت قد كففت عن الحركة ، فقد كان من غير الممكن أن يكون قد سمعني . فقط أحسّ بشيء غير واضح ، بوجود حاضر . وراح يرفع إصبعه ، ويتحرّك على مقعده ، يتحرّك ملهماً بالأفكار ، وبلّل إصبعه مرّة أخرى كي يطوي إحدى الصفحات ، وفي نفس الوقت صاح باسم في اتجاهي ، دون أن يرفع رأسه .

لا بدّ أنّه يعني سكرتيرته . وربّما كانت قد ذهبت لتحضر طعام الإفطار له أو لها أو له ولها . وعندما نادى هكذا قلت لنفسي : لقد انتهيت . لقد انتهى كلّ شيء قبل أن يبدأ .

قلت ذلك لنفسي بلا صوت . وعندما لم يجبه أحد لا بدّ أن يلاحظ شيئاً ، فقد راح ينادي للمرة الثانية ، بينما رفع نظره وهو ينادي هذه المرة . ورآني .

لم أكن أعرف وجهه . ولا أدري إن كان قد تعرّف عليّ من مظهري ، أو علم أنّي جئت من أجل «روجر» . ولكنه لا بدّ أن يكون قد عرفني أو أن تكون نظراتي حدّثته بذلك . وربّما خطر له «روجر» مرّة واحدة أخرى عندما رآني . فقد دفع مقعده إلى أقصى الخلف ونهض بينما دفع مقعده بركبتيه إلى الوراء تجاه الجدار أو بالأحرى إلى جوار

الخزانة الحديديّة التي كانت تقوم هناك . وطالما كان يتراجع هكذا فقد كان ليس بيدي إلاّ أن أتبعه . ورحت أتبعه إلى أن اصطدمت بالمكتب . ولما وقفت هناك إذ منعني المكتب من متابعة تقدّمي وضعت الشيء الذي كان معي ، وكأنّه بال ٍ . وهناك بقي مطروحاً على الورقة رقم « ٣ » بين الجرس والتليفون الموضوع على المكتب .

إنّني لا أعرف لماذا وضعت السوط هناك . أنا لا أريد بذلك أن أقول إنّني أردت أخذه ورميه في الشارع وفي القناة أيضاً . وعلمت أنّه حالما يمسك بنفسه ويقتنع بذهابي أو بأنّه ليس هناك من لاحظ ما حدث ، سيأخذ السوط إليه ويرمي به في أحد الأدراج ، ويقفل عليه ، ويتأكّد أن الأمر قد مرّ على خير .

لم ينادِ أحداً ، ولم يرن الجرس مرّة واحدة ، ولم يتتبعني أحد . وخرجت من البناية الكبيرة وزاولني في الطريق شعور بفراغ داخلي ، يكاد أن يكون خيبة أمل لما حدث . لقد تحرّرت من الخداع . فالخدائع تحمي الدم وتزوده بالبواعث ، بالبواعث التي لم يعد لديّ منها شيء . لقد عدت كمن يعود من مسرحيّة غنائيّة بعد أن يُلغى العرض فجأة .

كان في استطاعتي أن أقفل بعد ذلك عائداً إلى الفندق حيث غرفتي التي لا زالت تنتظرني ومخدعي الذي ربّما لم يُعدّ

بعد . كان باستطاعتي أن أضطجع بإنهاكي الشديد الذي باغتني من جديد . ولكني رأيت أثناء سيري كنيسة القديس « ميدارد » ودلفت إليها مرّة أخرى ، إذ انني لم أكن قد فرغت من الصلاة أثناء ذهابي في المرّة الأولى فلم أستطع الاحتمال آنذاك ولم أكن قادراً على تكميل ذلك المقطع من الدعاء . ولم أجد الآن ما يعيقني عن الاستمرار . أردت أن أحاول ذلك على الأقل ، وعندما حاولت تقدمت في تكميلها ، مع أنني لم أصفح عن أحد . كنت قد بدأت مرّة أخرى ، وقبل أن أروح في النوم ، أن أذهب ببساطة في النوم على مقاعد تلك المغارة المظلمة ، ورأسي مضطجع إلى ذلك المقطع من الدعاء ، اجتزتها بالجملة التالية : « ونحن أيضاً » — وواصلت كلامي دون ما عائق فهي لم تعد تعنيني . ولم أكفّ إلاّ بعد الدعاء الذي يلي ما يلي هذا التوسّل ، ثمّ زفرت بصعوبة لم تخلُ من التخفيف عن النفس ، ولو أنني أحسست بالفراغ عند : « ولكن خلصنا من الشرّ » .

ترجمة : مجدي يوسف

وجهه الفرح

بقلم بول شاليك

لم تبتسم عندما عبرت الشارع ، كانت تلبس معطفاً بلون الغبار وعلى شعرها المتموّج قبعة التمريض البيضاء . كانت لفتوّتها قادرة على أن تبتسم، ولكنها لم تفعل . اتجهت صوبه متفحصة إيّاه ، فشعر أنّها فهمت ، أنّها أدركت سبب وقوفه هناك .

« كيف ، ألم تصحّ العمليّة ؟ » سألته قبل أن تصل إليه .

هزّ رأسه القصير الشعر وضحك : « حتّى الآن ، لا . ولكن سنحقّق ما نريد » .

« إلى أين تريد الذهاب ؟ »

« إلى البيت » .

« نعم » ، قالت هذا من غير أن تبتسم . « حسناً ، أفهم ، ولكن إلى أين ، إلى البيت ؟ »

« عفواً » أجابها ، « إلى المحطة ، ولكن . . . » ودلّ

بعصاه إلى أسفل ، وضرب ساقه ، وبدا لأوّل وهلة أن ما من شيء حيث كانت رجله سابقاً ، لا لحم ولا عظام وضرب بالعصا مرّة ثانية شيئاً ما صلباً ، لقد كان هذا رفيعاً يرن كالحطب ممّا يدلّ على أنّه فارغ . « مستحيل بهذه الحالة . ما يجب أن أفعل ؟ لا أقدر على المسير » .

« أعرف » قالت ثانية . « أمن زمان ؟ »

« من زمان ؟ ما تقصدين ؟ »

« أقصد من أيّام الحرب ، من الاعتقال » .

« آه ، منذ أربع سنوات » ، قال هذا كمن يقول أربعة عشر يوماً ، أربعة عشر يوماً عطلة ، أو نصف ساعة . « منذ أربع سنوات » ، وابتسم . « مضى الوقت بسرعة ، ما عدت أفكّر الآن بالقضيّة » .

« وهذا أحسن . سيفرحون عندما تعود إلى البيت ، أليس كذلك ؟ »

« هم ؟ لا أعرف » .

« كيف ؟ بالطبع سيفرحون » .

« أمتأكدة أنّهم ما زالوا في قيد الحياة ؟ » وابتسم كعادته .

« آه ، عفواً ، بالطبع لست متأكدة » .

« لماذا ؟ أمّي ؟ أتعرفين ، مرّة سمعتها تصرخ لي . . . »

« عندما كنت طفلاً ، أو . . . ؟ » سألته الممرضة .

« في الاعتقال ، ومنذ ذلك الحين أعرف أنّه كان حلماً ، ولكن منذ ذلك الحين — أتعرفين ، في نفس اللحظة كانت القنابل المرعبة ، بدون شكّ ، تسقط » .

« حتّى ولو كنت تحلم ؟ . . . »

« حتّى ولو بالحلم . فأنا أصدّق الأحلام . وأنتِ ؟ »

« لا . من أين أنت ؟ »

« من كربرزدورف . أتعرفين موقعها ؟ »

« لم يحدث شيء هناك ، أنا متأكّدة ، لم تسقط أيّة قنبلة هناك ، أعرف هذا بالتأكيد » .

« ولكن أمّي . . . »

« سافر إلى البيت أوّلاً ، وسترى » .

« ولكن كيف بهذه الحالة ؟ »

« سنتدبّر الأمر » . التقطت كيسه البحري الموضوع على الحائط وجرّته وراءها حتّى المدخل . كان الكيس ثقيلاً بسبب الوسخ ، وكان طويلاً ويابساً ، لهذا جرّته بدلاً من أن تحمله .

« اقعد هناك » ، قالت له ، « وراء العمود ، فهنا أحسن » .

« حسناً » أجابها وذهب إلى حيث الكيس البحري ، وبدا من حركته أن موضع رجله اليسرى فارغ ، لا لحم

ولا عظام ، وظهر من رجل بنطلونه الممزّق قطعة خشبيّة مستديرة ومتآكلة . وضع كيسه وهزّه حتّى استقام ، وفتحه وأدخل أنفه فيه . ومن ثمّ سكّره بشدّ خيوطه وقعد وراء العمود .

لم يعد يفكّر بالشاب الذي وعده بالبقاء معه وبإعانته على حمل الكيس حتّى المحطة ، بل راح يفكّر الآن بالممرضة وبالكيس وبأنّه سيكون بعد قليل في القطار وكيف سيسأل عن أمّه معارفه أوّلاً قبل وصوله البيت .

وقفت الفتاة ذات القبعة البيضاء وسط الشارع ولوّحت بيدها وصرخت : « أرجوك ، قف » . غير أن السيارات لم تتوقّف ، ثلاث سيارات مرّت دون توقّف ، بل ضاعف السائقون سرعتهم عند اقترابهم منها . ومن سيارة جيب مسرعة صرخ عسكري : « ما في وقت » . وفجأة زادت خيول العربة سرعتها ؛ ولما مرّت العربة لاحظت أنّها كانت فارغة ، لم يحد السائق الهرم متراً واحداً عن طريقه ممّا أجبر الفتاة على القفز جانباً ، ولو تأخرت لحظة واحدة لقضي عليها . سيارات صغيرة لامعة ، سيارات شحن مقعقعة ، غبار ، تزمير ، هزّ رؤوس ، وأيضاً فتيات يدخّن ببزاتهن العسكريّة . صار للممرضة تجاعيد بين عينيها ، أمّا هو فقد انتظر في الزاوية بوجه بشوش وانحنى فوق الكيس يتنفس ويتذكر .

« وقت الظهيرة غير مناسب » قالت له ، « لنذهب أوّلاً ونأكل » .

« حسناً » . وأخذت الكيس وشدّته من جانبيه ودحرجته أمامها كطفل سمين .

« بإمكانك جرّه » قال لها .

« هل أُسرع ؟ »

« لم يسألني هذا أحد من قبل . شكراً . لا ، باستطاعتي اللحاق بكِ » .

دخلت بيتاً من خلال حديقة ، بينما هو عرج خلفها ؛ وفي قاعة كبيرة ذات جدران مكلّسة قرقعت الصحون ، وخلف نافذة المطبخ وقفت امرأة عجوز لابسة قبّعة (طاقية) بيضاء وناولت الأوعية المهبّلة ، بينما جلس الرجال إلى الموائد وأكلوا صامتين . جلبت الفتاة من النافذة طنجرة كبيرة ، وليترين ، ثلاثة ، وأشارت إليه بالجلوس بين العمال وقالت :

« جوعك كبير . سأجلب لك مرّة أخرى عندما تنتهي » . ومن ثمّ دخلت غرفة مجاورة فيها الكثير من الأوعية المغسولة . أمّا الكيس فقد تركته خارجاً أمام الباب المفتوح ، وقد كان باستطاعته رؤيته بينما كان يأكل الشورباء المدْهنة بالملعقة ، وتطلّع حوله بحرارة وعدّ أربعة عشر رجلاً ينحنون فوق

صحون كبيرة ويشرقون عالياً . بعضهم تطلّع إليه ، بغضب ، بمرارة ، لماذا ؟ لقد مضى كلّ شيء الآن ، لقد عاد إلى البيت . أمّا أكثرهم فلم يلتفتوا إليه ، ولكنهم بدوا بحالة شاذة ، جديين متمرمرين وبعضهم متعذّباً من غير أن يعرف سبباً لذلك ، فقد كان الوحيد بينهم الذي يحمل وجهاً بشوشاً ، وجهاً شاحباً ، ضعيفاً وفرحاً ، وجهاً يعلوه رأس قصير الشعر ، وكان للجميع شعر طويل ، ولم يكن لأحد منهم كيس عند الباب ، كما أنّهم لبسوا البزات أو الكنزات الصوفيّة غير الموسخة بالوحول ، وكلّهم أكلوا ، فلماذا لم يكونوا مثله سعداء ؟ وتطلّع إلى نافذة المطبخ ، فتقدّمت منه الفتاة وسألته إن كان يريد شيئاً .

« شكراً » ، فهو لم يكن اليوم جائعاً كثيراً ، خاصة اليوم ، فقد كان وجهه مشرقاً ولم يكن بحاجة اليوم للطعام .

« شكراً ، هذا يكفي » .

« إذن سنذهب » . قالت هذا وتناولت الكيس من أمام الباب وكأنّه طفل ناصح . وعندما لحقها لم ينسَ مراقبة فتحة الكيس المعقودة . وتخبّأ وراء العمود في حين أنّها ذهبت ثانية إلى الشارع ووقفت وحاولت إيقاف سيارة ما .

وأشارت بيدها لكلّ سيارة تمرّ ، أشارت باستمرار ، باليسار تارة وباليمين تارة أخرى لكلّ سيارة تمر ، ومضى

نصف ساعة ، ساعة ، وعند مرور كلّ سيارة لا تتوقّف كان يحسّ بالبرودة في وجهه البشوش ، بالبرودة المحجوبة ، ومن ثمّ بالعرق وبالقشعريرة ، وبان هذا كلّه على وجهه ، وبعد مضي ساعة تلاشى كلّ مرح فيه ، كأنّه نسيه بسبب الكهولة ولم يبقَ منه سوى أثر لا يُذكر . إن وجهه لم يزل مكانه ومع هذا لم يحسّ به تماماً .

وظهرت من بعيد سيارة لنقل المرضى .

« إذا لم يأخذك معه سأدبّره » . كانت التجاعيد بين عينيها عميقة وحمراء .

« حضّرْ حالك » ، قالت هذا واتجهت إلى البوابة وجرّت الكيس وأشارت بالتوقف في اللحظة الملائمة . ووقفت السيارة .

« الوقت ضيق ، أيتّها الممرضة » ، ومدّ رأسه من نافذة العربة .

« هذا غير صحيح » قالت محتدّة ، « هذا غير صحيح . انقله إلى المحطة ، أرجوك . انقله إلى المحطة وإلاّ رفعت تقريراً بحقّك » .

« يجب أن أذهب أوّلاً إلى المستشفى » أجابها السائق .

« متى يسافر قطارك ؟ » سألته .

« لست أدري ، سيسافر قطار في وقت ما ، فدائماً

يوجد قطار للسفر ، سألحق بالقطار أيتها الممرّضة » .

« عجّل وافتح الباب » . قالت هذا بضنوت الآمر .

وانصاع السائق للأمر . رجع إلى الوراء وفتح النقّالة كي يمكنه من أن يمدّ ساقه عليها . وبغضب أغلق الباب وراءه في حين مدّ الآخر ساقه الخشبيّة على الغطاء . وفتح النافذة بسرعة قائلاً :

« شكراً أيتها الممرّضة . سأزورك مرّة ما عندما أجيء إلى هذه المنطقة ثانية ، شكراً » .

أعطته علبة من السكائر ، وانطلقت العربة . وهنا ابتسمت بارتياح ابتسامة قصيرة ، ابتسمت ولوّحت بيدها حتّى بان صندوق العربة الأبيض من بعيد بلون داكن وأخيراً كبقعة سوداء . وأحسّ ثانية بوجهه المرح حتّى ولو لم يكن كعادته ، وأحسّ أنّه تعذّب قليلاً وراء العمود . لم يتطلّع خارجاً من النافذة ، لم يتطلّع إلى البيوت ، إلى الخراب عندما مرّوا في المدينة . وخبأ وجهه حتّى أذنيه في الكيس المفتوح ورفع رأسه كدجاجة تشرب وتنشّق الرائحة الزكيّة بلذّة وببطء ، وانحنى أخيراً إلى الأمام .

توقّفت العربة في ساحة المستشفى واختفى السائق دون كلمة . لو أنّه لا يتعوق ، فكّر في نفسه ، وأدخل يده في الكيس وسحب منه شيئاً ووضع صابونة صفراء تحت أنفه وحفّها عليه ، قذفها عالياً وتركها تقع في يده ، قذفها عالياً من جديد والتقطها ثانية ، وحفّها ثانية على أنفه كمن يتفحص

سيكاراً . سيفرحون ، قال لنفسه وهو يتحسّس رائحة الصابون المنعشة وسحب قطعة بعد قطعة ، عدّها ، تفحص رائحتها ووزنها ولونها وصلابتها ووضعها على ركبته . سيفرحون ، فكّر في سرّه .

اشتدّت حرارة الشمس على سطح العربة ، والسائق لم يعد . وصارت العربة حارة في الداخل ، ففتح بابها وألقى نظرة على الساحة : زفت مائع حفّره الزمن ، وسكينة عميقة . ومسح بكمّه العرق عن جبينه ببطء وفرك عينيه . ما من نسمة واحدة ، وفي هدوء ما بعد الظهيرة الميت دقّت ساعة المستشفى ثلاث مرّات ، دقات ثلاث عالية ومرتجفة ، دقات ترتجف من الخوف في الهواء الذي لا حياة فيه . ولعب بالصابونات وبنى منها عربة قطار وبيوتاً ، وعمل من قطعة رجالاً صغاراً بلا هيأة ، ومن ثمّ وجهاً ذكّره بوجه أمّه ، وعند الساعة الثالثة والنصف شعر أن الصابونة فقدت الكثير من رائحتها السابقة . وعند الخامسة وضع في يديه المفتوحتين جميع قطع الصابون العشر وقرّبها من أنفه وشمّها ونشق بصورة عصبيّة وتمنى لو يستردّ فرحه السابق الذي أراد حمله إلى البيت كي يدب السعادة في قلوبهم . غير أن هذا مستحيل مهما أجهد رئته . فالرائحة الحلوة تلاشت واختفت .

لقد نسي أنّه منذ أسابيع يحمل الصابونة التي تضوع

باستمرار – غير أن رائحتها صارت ضعيفة مع الزمن لدرجة أنّها لم تعد تصله . هذا ما لم يتمكّن من إدراكه . لعلّ سبب ذلك هو أنا ، قال في نفسه ، وألقى الصابونة بعناية في الكيس الذي شدّ خيوطه .

وفكّر ثانية بالشاب الذي وعده بمرافقته حتّى المحطة وبمساعدته ؛ وتذكّر بلا غضب أنّه حمل له الكيس حتّى الشارع وعندئذٍ اختفى فجأة من غير أن يتفوّه بكلمة واحدة ، وفكّر في نفسه أن الأمر كان أيسر لو أخذه معه كما وعده .

وما كادت الخامسة تنقضي حتّى سحب لفافة من علبة الدخان وراح يدخن . وكان حتّى الآن يتجنبها خوفاً من أن «ينزع» رائحة الصابون؛ لقد أراد أن يحتفظ بالعلبة كاملة حتّى وصوله إلى البيت ، فعندما يكون المرء غائباً ، غائباً في مكان ما ، عليه أن يجلب معه شيئاً ، هدية صغيرة ، صابونة أو علبة دخان، أو أيّ شيء . راح يدخن ويرمي الأعقاب خارجاً من باب العربة .

مالت الشمس متأجّجة ، وما من أحد أطلّ من ساحة المستشفى لنقله . لقد صار منسيّاً . لقد نسي السائق أن وجهاً متألّقاً صعد معه بغية الوصول إلى المحطة .

تهدّلت زوايا فمه بينما كان يدخن ذاهلاً . وكان قد رمى العقب الرابع خارجاً . سقط الأوّل على مسافة خمسة أمتار من العربة والثاني على مسافة مترين والأخير على الرفراف .

وعندما أشعل السادسة من الخامسة أحسّ بتراخٍ شديد وراء جبهته وعينيه وبشيء يضغط وجهه وينتفه . لقد بدا متغيراً وأقرب ما يكون إلى العمال الذين شاهدهم ينحنون فوق الأوعية الكبيرة يلعقونها . ومن لفافة إلى أخرى حتى تكاثرت التجاعيد في وجهه وتحت عينيه وعلى الجبهة والأنف ، وبين الحاجبين ، إنّها تجاعيد حادّة جعلته يبدو هرماً كئيباً . وبعد ساعة ، لما ترك العقب الأخير يتدحرج داخل العربة ، اتكأ على ظهره وراح يحدّث نفسه :

« قريباً تغيب الشمس ، ثمّ لا شيء . كذلك ماتت كلّ رغبة عندي . لقد انتهى كلّ شيء . ولكن من الأحسن ألاّ نفكّر بهذا » . عندئذٍ اتخذ وضعاً مريحاً وأغمض عينيه كي ينام ، غير أنّه لم يغفُ ، إذ سمع أحداً يتقدّم من ساحة المستشفى منادياً من بعيد :

« الآن نتحرّك . باستطاعتنا أن نسافر » .

ودّ لو يسأل : إلى أين ؟ ولكنه عاد وقال في نفسه إن السائق لن يفهمه ، بل ربّما هزأ به وشكّ بجدّيته . لهذا لم يقل شيئاً .

« هل أطلت عليك ؟ » سأله السائق .

« لا بأس » أجابه مبتسماً .

« تبدو تعباً أيّها الرفيق . ولا شكّ أنّك ستشعر بالراحة

عندما تصل إلى البيت » .

« نعم » قال له ، « فعلى هذا كلّ الاعتماد . كم الساعة ؟ » لم يسمع السائق هذا السؤال أو لعلّه تجاهله . خرج بالسيارة من البوابة ؛ أمّا هو فقد صار سيّين عنده إن نُقل إلى المحطة أم لا . وكم ودّ لو أنّه لم يتحرّك ، لو بقي في العربة جالساً وعاد فيها من حيث أتت ، هذا عندما فتح السائق الباب وساعده بالخروج ودلّه على جدول مواعيد السفر كي لا يضيع الوقت بالبحث بساق واحدة .

« لا خوف عليّ » ، قال له ، « شكراً » ، ومدّ يده إلى السائق مودّعاً ومضى يعرج .

« يا فلان ، هل هذا كيسك الذي هنا ؟ »

وقف والتفت . « آه ، هكذا » ، قال في نفسه وضرب بالعصا ساقه الخشبيّة .

« ابقَ حيث أنت . سآتيك به حتّى الموقف » .

وقبل الحاجز سأله السائق : « هل هناك من يحمله لك عند القطار ؟ »

« شكراً » ، قال له ، « هناك أمّي » ، ورفع كتفيه وتركهما تسقطان وعرف أنّه فقد وجهه الضحوك إلى الأبد .

ترجمة : فؤاد رفقة

أوندينه تذهب

بقلم أنجبورج باخمن

أيّها الناس ! أيّتها الكائنات الهائلة !

أيّتها الكائنات الهائلة التي تحمل اسم هانس ! هذا الاسم الذي لا يمكن أن أنساه أبداً .

كنت كلّما اجتزت المكان المجرّد من الشجر بالغابة وتفتّحت الأغصان ، وهوت العيدان بالماء من ذراعي ، ولعقت الأوراق القطرات من شعري ، لقيت واحداً اسمه هانس .

نعم ، لقد تعلّمت هذا المنطق ، أن واحداً يسمّى هانس وأنّكم جميعاً تسمّون كذلك ، الواحد مثل الآخر ، ولكنكم واحد . هناك دائماً واحد فقط يحمل هذا الاسم ولا أستطيع أن أنساه ، حتى ولو نسيتكم جميعاً ، نسيتكم كلّ النسيان ، كما أحببتكم كلّ الحبّ . وإذا غسلت المياه الكثيرة العظيمة

ـ الأمطار والأنهار والبحار ـ قبلاتكم وبذوركم وولّت بها إلى بعيد ، يظلّ الاسم موجوداً هنا ، ينمو تحت الماء ، لأنّي لا أستطيع أن أكفّ عن مناداته : هانس ، هانس . . .

أيّها الفظعاء ذوو الأيدي الجامدة القلقة ، والأظافر القصيرة الشاحبة ، الأظافر المهشمة المسودة الحواف ، والأساور البيضاء حول الرسغين ، والبلوقرات المهلهلة الوبر ، والحلل الرماديّة المتشابهة ، والجاكيتات الجلديّة الغليظة ، والقمصان الصيفيّة الفضفاضة ! ولكن دعوني أيّها الفظعاء أكون أكثر دقّة ، وأجعلكم الآن حقراء ، لأنّني لن أعود إليكم ، ولن أتبع إشاراتكم ، ولن أقبل دعوتكم إلى قدح من النبيذ أو إلى رحلة أو زيارة مسرح . لن أعود أبداً ، لن أقول نعم مرّة أخرى ولن أرفع الكلفة بيننا وأقول أنت ونعم . هذه الكلمات لن توجد بيننا مرّة أخرى ، ولعلي أقول لكم لماذا . لأنّكم تعرفون الأسئلة ، وهي جميعها تبدأ بـ « لماذا ؟ » . وليست هناك أسئلة في حياتي . أنا أُحبّ الماء ، وأُحبّ شفوفيته الكثيفة والخضرة في الماء والكائنات التي لا تتكلّم (وأنا كذلك سأصبح بعد قليل مثلها ولا أتكلّم !) ، وأحبّ شعري بينها ، فيه ، في الماء العادل ، في المرآة غير العابثة التي تمنعني من أن أراكم على نحو مختلف . إنّها الحد المبتل بيني وبيني . . .

ليس لي منكم أولاد ، لأنـّي لم أعرف أسئلة ولا طلباً ولا حيطة ولا نيـّة ولا مستقبلاً ، ولم أعرف كيف يتخذ الإنسان مكاناً في حياة أخرى . لم أحتج إلى وسيلة للمعيشة ولا إلى حلف ولا إلى تأكيد ، لم أحتج إلاّ إلى هواء ، هواء الليل ، هواء السواحل ، هواء الحدود لكي أتنفـّس وأقول كلمات جديدة وأقبل قبلاً جديدة ، لاعتراف لا ينتهي إلى نهاية : نعم ، نعم . وعندما أتممت اعترافي ، كنت محكوماً عليّ بالحبّ ؛ وكنت إذا خلصت يوماً من الحبّ ، اضطررت أن أعود إلى الماء ، إلى هذا العنصر الذي لا يبني فيه إنسان عشـّاً ، ولا يمدّ فيه سقفاً على عمد، ويتغطى بكسوة . الكون في لا مكان والبقاء في لا مكان . الغطس ، الاستراحة ، التحرّك دون إبداء جهد ، ثمّ التذكـّر يوماً ما ، والطفو واجتياز مكان غير ذي شجر ، ورؤيته ومناداة « هانس » . والابتداء من البداية .

« مساء الخير » .

« مساء الخير » .

« ما مقدار بعدي عنك ؟ »

« بعيد ، بعيد » .

« والمسافة إليّ بعيدة أيضاً » .

إنـّها العودة إلى الغلطة نفسها ، إلى ارتكاب الغلطة الّتي

يتميّز بها الإنسان . وماذا يجدي أن يكون الإنسان قد غسل بكلّ المياه ، مياه الدانوب ومياه الراين والتيبر والنيل ومياه البحار الثلجيّة الصافية ، ومياه باطن المحيط المدادية ومياه البرك السحريّة ؟ نساء البشر العنيفات يشحذن ألسنتهنّ ويبرقن بأعينهن ، ويرقن بضع دموع تؤدي عملها . ولكن الرجال يصمتون إزاء ذلك . هم يمسحون على رؤوس زوجاتهم وأولادهم بإخلاص ، ويفتحون الجرائد ، ويراجعون الفواتير أو يفتحون المذياع عالياً ويسمعون رغم ذلك نغمة الصَّدَف وتقير الريح ، ومرّة أخرى ، بعد ذلك ، عندما تظلم الدنيا في البيوت يقومون سرّاً ويفتحون الباب ، وينصتون نحو نهاية الطريق ، نحو الحديقة ، نحو نهاية السكك فيسمعونها واضحة جدّاً : نغمة الألم ، النداء المقبل من بعيد ، الموسيقى الأشباحيّة . تعالَ ! تعالَ ! أقول تعالَ !

أيّها الفظعاء مع نسائكم !

ألم تقل : إنّه الجحيم ؟ ولماذا أبقى عندها ؟ هذا شيء لن يفهمه أحد . ألم تقل : زوجتي ، نعم ، إنّها إنسان عجيب ، نعم ، إنّها تحتاج إليّ ، ولا تعرف كيف تعيش بدوني ؟ — ألم تقل هذا ! ألم تضحك وتقل في كبر : لن آخذ هذا مأخذ الجد ، لن آخذ مثل هذه الأمور مأخذ الجد . ألم تقل : ينبغي أن يسير الأمر دائماً على هذا النحو ، وألاّ يكون الآخر ،

لأنّه لا نفاذ له . أيّها الفظعاء بعباراتكم ! يا من تبحثون عن مصطلحات النساء التي تعوزكم ليستدير العالم .. يا من تجعلون النساء عشيقات أو زوجات لكم ، أو صاحبات ليوم واحد ، أو لنهاية الأسبوع ، أو لطول العمر ، وتجعلون أنفسكم رجالاً لهن . (هذا شيء جدير بأن نصحو له من غفوتنا !) . أنتم بغيرتكم على نسائكم وبتقديركم المتكبر وبطغيانكم وبسعيكم إلى حماية النساء ، وبأموالكم الاقتصادية وأحاديثكم عن التقريرات ، وتأكيداتكم وتمسككم بحقوقكم تجاه الخارج وعناقاتكم التي تقدرون عليها حائرين أو تبعثرونها حائرين . لقد أدهشني أنكم تعطون نساءكم مالاً لشراء الحاجات والملابس ولرحلة التصييف ، وأنكم تدعونهن (تدعونهن وتدفعون ، طبعاً) . إنكم تشترون وتكلفون من يشتري لكم . لا بدّ أن أضحك منكم وأندهش ، هانس ، هانس ، لا بدّ أن أضحك منكم وأندهش أيّها الطلبة الصغار وأيّها العمال المجدّون ، يا من تتخذون نساء ليشاركنكم في العمل ، فتعملون معاً ، كلّ واحد يزداد نباهة في كلية أخرى ، كلّ واحد يتقدّم في مصنع آخر ، فتجتهدون وتقتصدون وتستعدون للمستقبل . نعم ، إنكم تتخذون النساء لهذا أيضاً ، ليزدن المستقبل صلابة ، وليلدن أولاداً ، هنالك تصبحون حلماء عندما يسرن في رهبة وسعادة والأولاد في

بطونهن ، أو تمنعون نساءكم من الحمل وتريدون ألاّ يقلقكم أولاد وتعجلون السير إلى الشيخوخة بشباب اقتصدتموه . ما أجدر هذا بأن نتيقظ له يقظة عظيمة ! يا أيّها الخادعون ويا أيّها المخدوعون . لا تحاولوا هذا معي . ليس معي !

أنتم بربات إلهامكم وحيواناتكم الأليفة وقريناتكم العالمات الفاهمات اللاتي تسمحون لهن بالكلام . . . لقد حرّك ضحكي المياه منذ زمن طويل ، ضحكي المكركر الذي قلّدتموه أحياناً وأنتم مرعوبون في الليل ، لأنكم علمتم دائماً أنّه للإضحاك والإرهاب ، وانكم كافون ولم تكونوا موافقين . ولهذا فالأفضل ألاّ يقوم الإنسان في الليل وألاّ يسير في الطريق إلى نهايته وألاّ ينصت في الفناء ولا في الحديقة ، فلن يكون هناك سوى اعتراف بأن الإنسان على نحو أكثر من كلّ شيء آخر ، تحت إمرة نغمة الألم ، النبرة ، الإغراء ، وأنّه يلتمس الخيانة الكبرى . لم تكونوا قطّ موافقين على أنفسكم ، ولا على بيوتكم ولا على كلّ ما هو ثابت . كنتم تفرحون في سرّكم لكلّ طوبة تقع ، لكلّ شيء يوشك أن يتهدّم ، وكنتم تحبّون التفكير في الفشل وفي الهرب والعار والوحدة لأنّها قد تخلّصكم من كلّ ما هو قائم . كنتم تحبّون التفكير في هذا كلّ الحبّ . وعندما كنت أقدم ، عندما كانت نسمة من الريح تعلن مقدمي ، كنتم تهبّون واقفين وكنتم

تعلمون أن الساعة حانت ، العار ، النبذ ، التلف ، المبهم . نداء إلى النهاية . إلى النهاية ، أيّها الفظعاء ، لقد أحببتكم لأنّكم كنتم تعرفون معنى النداء ، ولأنّكم كنتم تقبلون أن يتجه إليكم النداء ، ولأنكم لم تكونوا قط راضين عن أنفسكم . وأنا ، متى كنت راضية عن نفسي ؟ عندما كنتم تبقون وحدكم ، وحدكم تماماً ، وعندما كانت أفكاركم لا تفكّر في شيء مفيد ، شيء نافع ، وعندما كان المصباح يغذي الحجرة ، كانت ساحة خالية تنشأ ، وكان المكان رطباً مدخناً ، وعندما كنتم تغنّون هناك ، تائهين ، تائهين إلى الأبد ، تائهين من الفكر ، كان وقتي قد حان . كنت أستطيع أن أدخل بنظرة تطالب : فكّر ! كن ! تكلّم ! — لم يحدث أنّي فهمتكم عندما كنتم توقنون من أن الآخرين يفهمونكم . قلت : لست أفهمك ، لست أفهمك ، لا أستطيع أن أفهمك ! وظللتم مدّة طويلة عظيمة لا تُفهمون ولا تَفهمون لماذا هذا وذاك ، لماذا حدود وسياسة وجرائد وبنوك وبورصة وتجارة وما إلى ذلك ؟

لأنّني فهمت السياسة الدقيقة ، أفكاركم وآراءكم ، فهمتها تماماً وفهمت أكثر منها . ولهذا لم أفهم . فهمت المؤتمرات فهماً كاملاً ، تهديداتكم ، براهينكم وتوارياتكم ، حتى لم تعد مفهومة . ولقد كان هذا هو ما حرّككم ؛ عدم

فهم كلّ هذا . كانت هذه هي فكرتكم الحقيقيّة العظيمة الخفيّة عن العالم ، وأنا أخرجت بالسحر منكم فكرتكم العظيمة ، فكرتكم غير العمليّة ، التي بدا فيها الزمان والموت وعلت نيرانهما وأحرقت كلّ شيء ، النظام المغطى بالجرائم ، الليل ، الذي أسيء استخدامه فاتّخذ للنوم . زوجاتكم اللاتي مرضن من وجودكم وأولادكم الذين حكمتم عليهم بالمستقبل ، لم يعلموكم الموت ، بل قرّبوه إلى أفهامكم على نحو ضئيل . أمّا أنا فعلمتكم بنظرة ، عندما كان كلّ شيء كاملاً وصافياً ومجنوناً — قلت لكم : الموت فيه . و : الزمن عليه . وفي الحال : اذهب أيّها الموت ! و : اسكن أيّها الزمان . هذا ما قلته لكم . وأنت يا حبيبي تكلّمت بصوت متباطىء ، صادقاً تماماً ، وخالصاً ، بريئاً من كلّ شيء ، وأخرجت فكرك الحزين ، الحزين ، العظيم الذي يشبه فكر الرجال جميعاً ، والذي يتصف بأنّه غير صالح لأي استخدام . ولما كنت غير معدّة لاستخدام ما ولما كنتم لا تعلمون لكم استخداماً كان كلّ شيء بيننا على ما يرام . كنّا نحبّ بعضنا البعض . كان فكرنا من نوع واحد .

عرفت رجلاً كان اسمه هانس ، وكان يختلف عن الآخرين جميعاً . كذلك عرفت رجلاً غيره ، كان أيضاً يختلف عن الآخرين جميعاً . ثمّ عرفت واحداً ، كان

يختلف تماماً عن الآخرين جميعاً ، وكان اسمه هانس ، وكنت أحبّه . وقابلته في الساحة الخالية وذهبنا بلا اتّجاه ، في أرض الدانوب ، كان يركب معي دراجة ضخمة ، كان ذلك في الغابة السوداء ، تحت أشجار الظل ، في بولفارات باريس ، وشرب معي بيرنود . كنت أحبّه ، ووقفنا في محطة سكك حديديّة في الشمال ، وذهب القطار قبل منتصف الليل . لم ألوح ، وصنعت بيدي حركة للنهاية . للنهاية التي لا تجد نهاية . فلم تأتِ نهاية قطّ ! وللإنسان أن يأتي بالحركة ما شاء . وهي حركة ليست حزينة ، لا تملأ أجواء المحطات والشوارع البعيدة ، أقلّ من التلويحة المخيبة للآمال والتي ينتهي بها الكثير . اذهب أيتّها الموت واسكن أيتّها الزمان . لا فائدة من السمر ، من الدموع ، من تشابك الأيدي ، من الأيْمان ، التوسلات . لا شيء من هذا كلّه . الوصيّة هي : أن يترك الإنسان نفسه ، حتّى تكفي العيون العيون ، حتّى يكفي الأخضر ، حتّى يكفي أخف شيء . هكذا تكون طاعة القانون لا طاعة الإحساس . طاعة الوحدة ، الوحدة التي لا يتبعني إليها أحد .

هل تفهم هذا ؟ لن أقتسم وإيّاك وحدتك ، لأن وحدتي هنا ، منذ زمن طويل ، وإلى زمن بعيد . أنا لم أُصنع لأقاسمكم همومكم . لا ، ليست هذه الهموم ! وكيف لي أن أعترف

بها دون أن أخون قانوني ؟ كيف يمكنني أن أصدق أهمية ألاعيبكم ؟ كيف أصدقكم ، ما دمت أصدقكم فعلاً ، وأصدق كلّ التصديق أنّكم أكثر من تصريحاتكم الضعيفة السخيفة ، وتصرفاتكم الحقيرة ، ووسوساتكم الغبيّة . اعتقدت دائماً أنّكم أكثر ، فارس ، رب ، غير بعيد من الروح ، جدير بأسمى الأسماء الملكيّة . فعندما لا يخطر ببالك شيء خاص بحياتك ، يكون حديثك صدقاً ، ولا يكون صدقاً إلاّ في هذه الحالة فقط . حينذاك تفيض المياه كلّها فوق الشطآن وتعلو الأنهار ، وتزدهر ورود الماء بالمئات وتغرق في الحال ، ويصبح البحر زفرة قويّة فيضرب ويضرب ويجري وينهمر ناحية الأرض حتّى تتساقط قطراته بيضاء الزبد .

أيّها الخونة ! كنتم عندما لا يسعفكم شيء ، يسعفكم التحقير . فتعرفون فجأة ما يجعلكم تشتبهون فيّ ، الماء ، الحجاب، وما لا يمكن تثبيته . فجأة أصبحت خطراً عرفتموه في وقته ، ولعنتموني وندمتم على كلّ شيء في الحال ، ندمتم وأنتم على مقاعد الكنائس ، وأنتم أمام زوجاتكم أو أولادكم أو الرأي العام . كنتم شجعاناً أمام سلطاتكم العالية ، العالية ، وندمتم عليّ ودعمتم ما كان فيكم قلِقاً مضطرباً . وكنتم في أمان . وأقمتم الهياكل بسرعة وضحيتم بي . هل ساغ لكم طعم دمي ؟ هل كان فيه شيء من طعم دم أنثى

الوعل ودم الحوت الأبيض ؟ ومن صمتهما ؟

طوبَى لكم ! تجدون من يحبّكم كثيراً ويسامحكم كثيراً . ولكن لا تنسوا أنّكم ناديتموني إلى العالم ، وأنّكم حلمتم بي ، بالأخرى ، بالآخر ، بفكركم لا بشكلكم ، بالمجهولة ، الّتي تغنّي في أفراحكم نداء الشكوى ، وتأتي على أقدام مبتلة وتخافون أن تموتوا من قبلتها ، كما ترغبون في الموت ولا تموتون أبداً : بلا نظام وعلى ذكاء رفيع .

لماذا لا أقول هذا وأكرهكم فيه قبل أن أنصرف ؟ فأنا ذاهبة .

فقد رأيتكم مرّة ثانية ، وسمعتكم تتكلّمون لغة لا يصح أن تتكلّموا بها معي . ذاكرتي لا إنسانيّة ، كان حتماً عليّ أن أفكّر في كلّ شيء ، في كلّ خيانة ، في كلّ سفالة . لقد رأيتكم مرّة ثانية في الأماكن نفسها . ولاحت لي الأماكن الّتي كانت ذات مرّة نقيّة ، لاحت لي أماكن عار . ماذا فعلتم ! لقد سكتُّ ولم أقل كلمة واحدة . عليكم أن تقولوها أنتم لأنفسكم . لقد نثرت على الأماكن حفنة ماء حتّى تخضر كالمقابر . حتّى تظلّ نقيّة صافية .

ولكني لا أستطيع أن أذهب هكذا . لهذا دعوني أقول لكم مرّة أخرى خيراً عنكم ، حتّى لا يكون فراقنا هكذا . حتّى لا يكون فراق .

كان كلامكم رغم هذا خيراً ، وهيامكم ، وحماستكم ، وصرفكم النظر عن الحقيقة كاملة ، حتى تقال الحقيقة نصفاً فقط ، حتى يسقط نور على نصف العالم الذي تستطيعون الإبصار به في حماستكم . لقد كنتم شجعاناً ، وكنتم شجعاناً حيال الآخرين – وكنتم جبناء أيضاً طبعاً وغالباً شجعاناً حتى لا تبدون جبناء . عندما كنتم ترون المصيبة قادمة من النزاع ، كنتم تتنازعون رغم ذلك وتتمسكون بكلمتكم رغم أنها لا تأتيكم بكسب . تنازعتم لأجل الملك وتنازعتم ضد الملك ، ولأجل التخلي عن العنف ولأجل الأسلحة ، لأجل الجديد ومن أجل القديم ، ومن أجل الأنهار ومن أجل تنظيم الأنهار ، من أجل القسم وضد القسم . وأنتم تعلمون أنكم تتحمسون ضد صمتكم ومع ذلك تستمرون في التحمس والهياج . وهذا شيء قد يُمتدح .

ينبغي أن تمتدح رقتكم في أجسادكم الثقيلة . ويلوح من عظيم الرقة ما تقومون به من صنيع أو عمل حليم . رقتكم أكثر بكثير من كل شيء رقيق تأتي به نساؤكم ، عندما تعدون وعداً أو تستمعون إلى شخص وتفهمون . أجسامكم الثقيلة تجلس هنا ، ولكنكم عديمو الوزن ، وحزن منكم أو ابتسامة يمكن أن يكونا بحيث يظل حتى اشتباه أصدقائكم المجرد من السند لحظة بلا غذاء .

ينبغي أن تمتدح أيديكم عندما تأخذون في أيديكم أشياء قابلة للكسر ، فتحفظونها وتُبقون عليها ، وعندما تحملون الأثقال وتبعدون العراقيل من الطريق . كذلك تحسنون معالجة أجسام الناس والحيوان ، وتحسنون قطع دابر الألم باحتراس . أشياء محدودة هكذا تأتي من أيديكم ، ولكن منها يأتي خير يدلّ عليكم .

وممّا يستحقّ الإعجاب أيضاً حركتكم عندما تنحنون على المحركات والآلات ، فتصنعونها وتفهمونها وتشرحونها حتّى تتحوّل من فرط شروحكم إلى سرّ : ألم تقل إنّها تقوم على هذا المبدإ وتلك القوّة ؟ ألم يكن قولك هذا حسناً وجميلاً ؟ لن يوجد من يستطيع أن يتحدّث على هذا النحو نفسه عن التيارات والقوى ، عن المغناطيسات والميكانيكيات وبذور الأشياء كلّها .

لن يستطيع إنسان أن يتحدّث مرّة أخرى على هذا النحو عن العناصر ، وعن الكون وعن الكواكب كلّها .

لم يحدث أن تكلّم إنسان على هذا النحو عن الأرض وشكلها وعصورها . كان كلّ شيء في أحاديثك واضحاً جدّاً : البلورات ، البراكين ، الأرمدة ، الثلج والحمم الباطنيّة .

لم يحدث أن تكلّم إنسان على هذا النحو عن الناس ،

عن الظروف التي يحيون في ظلّها ، عن المتسلطات عليهم ، عن نعمهم ، عن أفكارهم ، عن الناس فوق هذه الأرض وفوق أرض سبقت وفوق أرض سوف تأتي مستقبلاً . وكان من الصواب أنّك تحدّثت على هذا النحو وأكثرت من التدبّر .

لم يحدث قطّ أن كان هناك فوق الأشياء هذا القدر الكبير من السحر ، إلاّ عندما كنت تتكلّم ، ولم يحدث قطّ أن كانت الكلمات وليدة مثل هذا التدبّر . كانت اللغة تستطيع أن تسمو لفضلك ، أو تقوى . لقد صنعت كلّ شيء بالكلمات والجمل ، وتفاهمت معها أو حوّرتها واستحدثت أسماء جديدة لأشياء كانت لها أسماء قديمة : أمّا الأشياء التي لم تكن تفهم لا الأسماء المستقيمة ولا الأسماء المعوجّة فقد أوشكت على الابتعاد .

لم يكن هناك من يجيد العزف هكذا ، أيّها الفظعاء ! لقد اخترعتم كلّ الألعاب ، الألعاب بالأعداد وبالكلمات ، ألعاب الأحلام وألعاب الحبّ .

لم يحدث أن تكلّم إنسان هكذا عن نفسه . هذا شيء يوشك أن يكون صدقاً . صدقاً قاتلاً . لقد انحنيت على الماء ، وأوشكت على التخلّي . العالم أظلم ، ولا أستطيع أن أضع عقد الأصداف . لن يكون هناك ساحة خالية . أنت تختلف

عن الآخرين . أنا تحت الماء . أنا تحت الماء .

ثمّ يطلع أحدهم إلى أعلى ويكره الماء والخضرة ولا يفهم ،
ولن يفهم أبداً . كما لم أفهم أنا قطّ .

أكاد أن أخرس .
أو أكاد أيضاً
أن أستمرّ
في استماع صوت النداء .
تعالَ . تعالَ مرّة فقط .
تعالَ .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

مارك واحد

بقلم رولف شريزر

إن المحاسب في مستشفى ما لا يتقاضى أجراً كبيراً حتى ولو كان عنده ثلاثة أطفال . والدراهم التي يقبضها من شبّاك الدفع لا تُدفع له عن طيبة خاطر كمن يدفع لتاجر صاحب بضاعة جيّدة وأشياء جذّابة ، ولكن بتنهدة تنقذف أمامه . ولأنّه يعمل في مكتب المستشفى يعرف جيّداً كم ترغب الإدارة في التوفير وكيف أنّها تستجدي بجميع الوسائل لتتمكّن من معالجة مرضاها وأنّها تبذل كلّ جهد من دون أن تستطيع الحصول على الدراهم الكافية لشراء بعض الأدوية الغالية المفيدة التي لا غنى عنها . وبالإضافة إلى ذلك كان على المحاسب مواجهة أزمة أخرى وهي العيش في هذه الرائحة التي تنبعث من الأدوية ووسط البرانس البيضاء التي تسبّب أوجاعاً من جهة كي تخفّفها من جهة أخرى ، والتي تركض

ساكنة في الممرّات الطويلة كمن يخاف أن يوقظ الموت .

تعوّدت السيدة أنجه أن تضحك لزوجها. كلّما جاء إلى البيت من مكتبه ، ولكن ليس بصوت عال كمن يتلذّذ في سماع نفسه يضحك ، بل بصمت ، بالعينين أكثر ممّا هو بالفم . وكانت تهتم بصحتها وتزيّن نفسها أحياناً ، وتبدو دائماً في المساء منطلقة بعد نهار تقضيه مع ضجة أطفالها وإزعاجهم ؛ كما أنّها كانت تخجل كلّما أخذت منه معاشه ووزّعته في مغلفات كتب على كلّ منها الغرض الذي من أجله تُصرف الدراهم . ويوم الأحد أهدى إليها المحاسب يوحنا خمسة ماركات أطلعها من جيبه وطرحها في الهواء قائلاً : « خذي » . وأخذت الخمسة ماركات ونظرت إليه . لم تصدّق عينيها لأوّل وهلة كما أن الخوف بدا لحظة على زوايا فم زوجها الذي ضحك في النهاية .

« الماركات للعيد السنوي » ، همس بأذنها . « إنّها للأطفال . كلّ الأطفال يحصلون على دراهم في العيد » .

« نعم » أجابته بصوت منخفض .

« لقد بعت شيئاً فحصلت على هذه الخمسة ماركات » .

والحقيقة هي أنّه أخذها من الصندوق في الساعة الأخيرة من يوم السبت ولكن عليه ألاّ يدع زوجته تلاحظ ذلك ، وتعرف أيضاً أنّه سيبيع دمه يوم الاثنين . كان عليه أن يبيع

دمه يوم الاثنين وهذا ما اتفق عليه ، كان عليه أن يبيع دمه ليقبض خمسة ماركات . كان باستطاعته الانتظار حتّى يوم الاثنين ، غير أن العيد ينتهي الأحد ويجب أن يعطي أطفاله خرجيّة . لقد باع دمه يوم الاثنين ومن المؤكّد أن فكرة بيع دمه لم تكن لتخطر على باله لولا العيد .

لم تسأله زوجته عن الذي باعه . فقد كانت ذكيّة ، وأحسّت بالكبرياء التي كثيراً ما غيّرت حياتها بضع ساعات ، وكأنّها بعد حساب طويل اكتشفت أنّها غنيّة ، غنيّة بلا حدود . وقفت مغمضة العينين تتخيّل أنّها غنيّة وقبضت على القطعة الفضيّة .

لما تركت البيت مع أطفالها تمدّد على الصوفا والجريدة بيده . عرفت أنّه الآن فخور بنفسه وسعيد ولهذا يخفي حاله وراء الجريدة . لقد أحبّت يوحنا كثيراً ، أحبّت ضعفه ، ورغبته في أن يكون سعيداً ، ولكن بصورة خاصة ضعفه . أحبّته كما تحبّ الأم تقريباً ، كما تحبّ أطفالها الذين يعذّبونها بعصيانهم ، وأيضاً أحبته عندما تأخذ معاشه وتوزعه في الأكياس الصغيرة المعدّة لذلك . والآن قدّم لها يوحنا مفاجأة ، مفاجأة لم تدرك أسبابها بعد .

باستطاعة الأطفال الآن الحصول على ما يشتهون ، باستطاعتهم إعطاء الفقراء ممّا لديهم ، باستطاعتهم الدوران

على خيول ومقاعد هزّازة في حديقة الملاهي ، ولعق العسل الاصطناعي ، وباستطاعة الأم أن تقوّس وتشتري لكلّ واحد قبّعة قشيّة ذات حروف عريضة . وفي هذه الأثناء ، أثناء بحث الأطفال عن أشياء جديدة في المكان الصغير وانبعاث الأنغام المرتجفة من الآلات والقضاء على الشيطان بواسطة كراكوز ، عاد الخوف إليها من جديد كذلك الخوف الذي رأته على فم يوحنا لما أخذت الخمسة ماركات ، كما أن الخوف اعترّاها لتبذير الدراهم بشتّى الألعاب بينما يعيشون في البيت على الزبدة ، خاصّة والصغير بحاجة إلى حذاء ، ولكنها عندما حاولت نسيان الخوف أحسّت أن ما يخيفها ليس التبذير بل شيء آخر مجهول ، شيء من الصعب إدراكه ، شيء يحيط بها من كلّ جهة ، من الجهة التي يلعب فيها الأطفال ، من الجهة التي ربما يغتبط فيها الأب لأن الأطفال وزوجها لم يدركوا المعنى الحقيقي للدراهم التي يصرفونها ، هي وحدها تدرك معنى هذا ، كان هناك شيء آخر يأكلون منه ، إنّه جزء منها ذلك الشيء الذي يبعزقونه ويرمونه في الريح في حديقة الملاهي وعلى الحلويات . هزّت رأسها ومرّت بيدها على صدغها . وحدّقت طويلاً إلى رجل يلبس سترة سوداء وسخة ، محروق الوجه وقوي العضلات ، ولكنها لم تشعر أنّها تحدّق إليه ، ولمّا شعرت بهذا بسبب حركة صدرت من الرجل أدارت

رأسها ومضت .

وزّعت على الأطفال ما تبقّى من الدراهم ، كلّ حسب عمره وجدارته ، ونصحتهم كيف يتصرّفون بها ، ومن ثمّ تحدّثت إلى بائع الأسماك الذي يبيعها كلّ يوم جمعة أرخص الأنواع ، وشمّت رائحة السمك المنبعثة منه .

تكلّم الرجل معها متفتفاً وفرك يديه العريضتين ورفع كتفيه ومدّد ساقيه الضخمتين . وسمعت السيدة أنجه نفسها أنّها تضحك وتجيب بلهجة منشرحة ومحيرة ، بلهجة فتاة صغيرة ، بلهجة ترتفع تدريجاً كأن عليها أن تتسلّق مرتفعاً بكلّ ما لديها من قوّة . وبينما كانت تمازح الرجل متنشقة رائحة السمك وتصغي وتجيب عاد أطفالها بأيدٍ فارغة من الدراهم . وقفوا على مسافة خطوة من الأمّ وتطلّعوا إلى الداخل كأنّهم لم يكترثوا لوجودها وبرموا قبضاتهم الصغيرة في جيوبهم .

وهنا ناداهم بائع السمك بصوت مرتجف وأعطى الصغير ماركاً واحداً . « والآن ادعُ إخوتك لشيء ، أيّها الصغير » .

ورأت السيدة أنجه قطعة النقود في اليد الصغيرة ، فخطفتها بسرعة وعصبيّة من يد صغيرها قائلة : « سأحتفظ بها لك . سوف توفرها . لقد صرفت الآن الكثير من الدراهم » .

مرّة أخرى سمعت صوتها وكأنه صوت امرأة سواها ،

وخجلت من بائع السمك الذي ربّما اكتشف بخلها ، وخجلت أيضاً من وجه صغيرها الحزين والمليء بخيبة الأمل . « هل أنا خائفة ؟ » سألت نفسها « أيّ شيء أخاف ؟ »

وبسرعة من يؤنّبه ضميره على خطإٍ ارتكبه ردّت قطعة النقود إليه ، وابتعد الصغير راكضاً بينما أخذ البائع يضحك : لقد كرهت البائع بشدّة ، وتركته واقفاً وركضت وراء ابنها .

أضاع الطفل قطعة النقود ، لكنّه لم يهتمّ لذلك ، وتطلّع إلى أمّه دون مبالاة ، إلى أمّه التي راحت تبحث بإصبعها عنها بين العشب بصورة دائريّة . أمّا الصغير لكان بكى لو لم تنازعه أمّه على المارك . وهكذا فرح بحالتها المحزنة عندما شاهدها تفتش .

لم تبحث السيدة أنجه طويلاً . فقد أدركت عبث بحثها ، غير أنّها كانت مرهقة فعنّفت الصغير قائلة : « لو أنّك تركت المارك معي ! »

وفي طريق عودتها تذكرت العشب الميت من الدوس وبحثها عن قطعة النقود فيه كمن يبحث عن سعادة ضائعة ، وسماعها صخب الموسيقى وضحك الأطفال العالي .

وفي الغرفة خانقت زوجها فوصفته بالتبذير وبأنّه يعلم الأطفال التبذير باكراً إذا ما حملوا في العيد دراهم كثيرة .

ولكن يوحنا الذي لم يستطع أن يذكر أنّه لم يسدّد قيمة الدراهم بعدُ حاول الدفاع عن نفسه بكلمات متعثّرة ، فتحدّث عن الأفراح والأصدقاء ، غير أنّه خرس في الحال عندما تكسّرت إرادة زوجته فراحت تشهق شهيقاً لم يدرك مغزاه .

ترجمة : فؤاد رفقة

ظلام وقليل من النور

بقلم يوهنس بوبروفسكي

أقول : إن القمر يظلّ قمراً .

فتقول زوجتي : كما ترى .

فأقول : لا ، ليس كذلك .

فتقول زوجتي : إذن فأطفىء المصباح وضع المخدة على رفّ الشباك .

وننظر من أعلى إلى الشارع الذي يمتدّ في الظلام الدامس ، لا بدّ أن شبكة الغاز أو أنابيب الغاز قد أصابها شيء ، أو ما شابه ذلك ، لأن مصابيح الشارع غير موقدة ، وإضاءة الشارع هنا تعتمد على الغاز ، والآن يمرّ على بيتنا لص المصابيح المشهور ، الذي يحمل في كلّ يد أربعة مصابيح حمراء .

وتقول زوجتي متشكّكة : هل له أن يفعل هذا ؟ وأجيبه أنا ، أنا الذي أكره التشكّك : القمر يظلّ قمراً .

ويكفي هذا اليوم .

وتقول زوجتي : كنت أريد أن أقول شيئاً .

ثمّ نذهب إلى الفراش . ولكن موضوع الظلام يشغلني .

وهاءنذا أرقد وأروح وأجيء بأفكاري . الشارع هادىء بعد حلول الظلام ، إنّه شارع هادىء موازٍ للشارع الرئيسي ، والسيارات تمر عبر الشارع الرئيسي ، على بعد مائة متر ، وهناك يسير الترام والترام العلوي . وكذلك الأوتوبيسات . فيما مضى كانت هنا محلات كثيرة ، أكثر من الشارع الرئيسي ، وكانت محلات رفيعة المستوى . أمّا الآن فلم يبقَ سوى بعض محلات الأثاث ، ومحلات للأشياء القديمة ، تسمّي نفسها متاجر لبيع المنتجات وأربع أو سبع حانات . شارع أصبح ساكناً ، وما كان أكثر الحركة فيه قديماً . الإنسان يروح بأفكاره ويجيء . فماذا به الآن ؟

لا يمكن أن ينفصل الإنسان عن هذا الشارع ، ولكن هناك شقق في البيت بقيت خاوية ، وربّما أتى البعض للسكنى في شقة منها ، ولكني لو كنت أبحث عن سكن فلا أظنّ أنّني كنت اخترت هذه . ولا أريد أن أتحدّث عن المحلات وعن قباء الحزين — الخضروات أو الملفوف — هناك يسكن منذ أسابيع بعض الفنانين ، الذين لا ألتقي بهم نهاراً ، بل ألتقي بهم أحياناً مساء وفي حانة « أرنوس بيجر كلاوزه » . إنّهم

أناس حسّاسون ، لا يغنون . ولهم صلة صداقة بلص المصابيح .

سيشتهزون يوماً ما ، هذا شيء مؤكّد ، وربّما عشت ورأيت هذا بنفسي ، حينذاك سأقول : هذا الرجل ، أنا أعرفه ؛ وأقف أمام لوحة في المتحف ، وأقول : هذا كان يسكن عندي في البدروم .

هذا كلّه لا يدع الإنسان يخلد إلى الراحة . زوجتي تصحو أحياناً . لا بدّ لأنّني تنهدت بصوت عالٍ خطأً .

فإذا صحت ، ظلّت يقظة . دفعة واحدة ، تنفتح العينان وتظلّ يقظة . وتقول زوجتي : هه ، أنت تعرف . ولكن هذا لا يعني أنّها تريد أن تتكلّم . فأحكي لها ما يشغلني في تلك اللحظة .

وأقول متمتعاً : هل الحياة في فنلندة ، كما قال لي صديقي ﺑ . . . حديثاً ، المرحوم زيلانبي ، لو عرفته — فقد قرأت كتاباً له وجدته جيّداً جدّاً — كان المرحوم زيلانبي ، كما قال لي صديقي ﺑ . . . حديثاً ، إذا سافر إلى بيته الصيفي ، يركب ثلاث عربات : عربة له ولعائلته الكبيرة ، وعربة للأمتعة والبياضات وما إلى ذلك ، والعربة الثالثة يملأها بيرة .

وتقول زوجتي : صديقك ﺑ . . . يجلس الآن في حانة « بيجر كلاوزه » ثمّ يغلبها النعاس .

أنا راقد في الفراش ، أنا في البيت ، أما ﺑ ... فهو بلا شك

أمام كوب البيرة ، كذلك لص المصابيح لا بدّ أنّه عاد إلى بيته في هذه الأثناء . أين يضع اللصوص المصابيح التي يسرقونها ؟

طبعاً لا يحدث هنا شيء ، فليس هناك من يسوق سيارته حول الناصية . وعندما يقع السكارى فوق تلّ من الأحجار أو في الحفر التي وضعت فيها الأنابيب — يهتمّ بهم الملائكة الحفظة المجنّحون فيرتقون بهم ويخرجونهم .

الملابس الداخليّة والقميص والبنطلون والشرابات والأحذية والجاكيتة كلّها في مكانها ، والكرافتة على مسند الكرسي . ينبغي إغلاق الباب بهدوء . كأن الإنسان يسعى لدخول التواليت في الدور الأوسط .

لعلّ الدنيا مظلمة في الشارع . ليس هناك ضوء في البيوت العالية والطرق الموصلة للبوابات موصدة . أمّا البيت المقابل ففيه نافذة مفتوحة في الدور الرابع وفي سطح الغسيل تحت الجمالون . الظلام يشمل كلّ شيء . وأرى الآن ، والآن فقط ، بعض النجوم في السماء ، أو ما شابه ذلك أو ربّما الدبّ الأكبر .

ولكن الدنيا لا تضيء بالنجوم . القمر غير موجود .

أبواب حانات البيجر كلاوزه تنفتح إلى الخارج كما هو معروف ، وصديقي ب . . . يجلس هناك ، ولص المصابيح

والفنانون وكذلك نفر من الرجال ، عدد كبير .

يقول أرنو : غداً يا سيّد فنسكه ، الساعة الآن الحادية عشرة وأرجو أن تلتفت إلى الظلام في الخارج ، وبـ . . . يدفع كرسيه قليلاً إلى الجانب . أريد إذن كميتين من علف الدجاج ، حبّة حبّة . وكلام كثير هنا على الموائد . أحاديث .

عندما يتحدّث الناس ، مثلاً محصلو الترام أو الموسيقيون، عن الحلاقين ، فلا أُحبّ أن أتكلّم : آراء في التاريخ وآمال في الخلود . إنّهم يتحدّثون كما يخطر ببالهم ، دون احتياط على أيّة حال . وهكذا لا يكون هناك مستمعون ، لأنّهم سيتكلّمون أيضاً ، كلّ واحد يتكلّم ، وسيرتفع الصخب ، على ما أعتقد ، ولِمَ لا ؟ لقد ارتفع الصخب منذ مدّة هنا .

اقتلع شعرة من شعرك وقصّ ما أحسست به وان تقتلعها ثمّ تحدّث عن شيء لم يتمّ بسرعة ولن ينتهي بسرعة .

في الشارع الذي أسكن به ، يسكن البروفسور شبيروخ ، هذا ما قاله أحد السادة الجالسين إلى المائدة المستديرة الكبيرة . لا أعرف ، ربّما يعرفه أحدكم . إنّه رجل هرم يمتلك خمسة وعشرين ألف كتاب . كان يمتلك فيما مضى خمسة وعشرين ألف كتاب . حرقت أثناء الحرب . كان في ذلك الوقت أستاذ اللاتينيّة في المدرسة الثانويّة . كان يعرف كلّ ما في اللاتينيّة ، كلّ حرف متحرّك عند الأدباء

الكلاسيكيّين ، يعرف أن هذه الكلمة تكرّرت ثلاث مرّات عند القديس أنطونيوس ، وما إلى ذلك .

وهاءنذا أسمع ما يقوله هؤلاء الرجال .

كما قلت بالضبط : المكان والموضع في كلّ طبعة من الطبعات المختلفة ، ولكن ينبغي أن نسأله مباشرة ، وإن كان لا يعطي شيئاً عن طريق خاطر ، حتّى ولا معلوماته ، ولا يكتب شيئاً ، إلاّ القصائد ، التي ألّفها هو نفسه باللاتينيّة ، والتي تشتمل على كلّ الكلمات التي ترد عند هوراسيوس ولكن في تركيبات جديدة مختلفة . هذا ما قد يقوله المرء . كذلك الكتب لم يستخدمها حسب تقديري . فقد زرته عندما بلغ الخامسة والسبعين . فيما مضى عندما كنت في فصله كنت أعتبر في نظره من التلاميذ الأشرار ، ولم يكن يحتملني إلاّ لنفوذ والدي ، أمّا الآن فأنا في نظره أحسن الأخيار لأنّني الوحيد الذي يسكن قريباً منه . كان لديه في عيد ميلاده الخامس والسبعين هذا ضيوف كثيرون ، ودار الحديث حول البحريّة أيّام القيصر — كان نسيب شبيروخ ضابطاً في البحريّة — ثمّ تبادل الحاضرون أبياتاً سفيهة من الشعر اللاتيني . كان كلٌّ يعرفها ، ونظرت أنا في هذه الأثناء في كتاب يحكي عمّا عاناه البروتستانت في عصر الإصلاح ، ولا يذكر شيئاً عمّا عاناه الكاثوليك . كان الكتاب كتاباً قديماً يحزن من

يقرأه ويغضبه أشدّ الغضب ، ونهض شبيروخ وأخذه مني وقال : ليس هذا شيئاً ، الجزء الأول ضائع ، ولا بدّ من أن يظلّ بعيداً حتى أكمله ؛ ولم ينظر إلى الكتاب ، وكنت قد رأيت في الكتاب ملاحظات مدوّنة فيه بخطّ اليد ، كتبها أحفاد قسيس ذكر فيه ، وحكوا أشياء أكثر سوءاً ممّا احتواه الكتاب . وكانت هناك قصيدة رثاء على داخل الغلاف دوّنت بالرسم أكثر منها بالكتابة . وأغلق الكتاب عندما أخذه مني .

لقد تحدّثت عن الحرب وعن الخسائر الكبيرة — هل تعني الكتب ؟

خمسة وعشرون ألف كتاب ، هه ، هذه كميّة هائلة .

وقال الرجل الذي حكى الحكاية ، على قدر ما أذكر ، إن الكتب لم تُستعمل ، ثمّ بدأ آخر يتحدّث ، فيقول : لقد خسرت خسارة شبيهة بهذه ، فقد احترقت مجموعة طوابع البريد التي كنت أملكها ، في عام أربعة وأربعين . ولم أكن قد تمتّعت بها إلاّ قليلاً ، إلاّ في أثناء العطلة ، كانت محفوظة في ألبوم أتيت به من حرب فرنسا ، أعتقد أن الأفضل هو أن أحكي القصة بتفصيل أكثر ، عندما كنّا نتقدّم صادفنا مجموعة من المدنيّين واللاجئين ، غالبيتهم من كبار السن ، كانوا يقعدون على حافة الطريق . وكنّا

على عجل ، ولكني اكتشفت بينهم رجلاً يجلس مستنداً إلى شجرة ويضع ألبوماً على ركبتيه . ولم أكن في ذلك الوقت أفهم كثيراً في موضوع طوابع البريد ، ولكني كنت أفهم ما مكنني من الحكم على المجموعة التي يحملها بأنّها مجموعة قيّمة . وقد حملتها فيما بعد إلى خبير لتثمينها وأكد حكمي . ولم يكن في استطاعة الرجل أن ينقذ مجموعته من الدمار ، وحاولت أن أوضح له هذا ، ولكنه لم يفهمني .

بلا شك . ولكنك تجيد الفرنسيّة . كنت أنا أيضاً مشتركاً في هذا الزحف ، كان عجيباً .

قص الحكاية .

الحقيقة أنّني أريد أن أكتبها ، وأود أن أسجل نصها على شريط تسجيل ، فكل تفصيلاتها حاضرة في ذهني . أعتقد أن الأفضل أن أقسمها إلى مشاهد منفصلة ، أولاً هذا . ثمّ بعد ذلك نجمع العناصر ، المنظر ، شيء من تاريخ الثقافة . . .

عظيم جداً ، سأدونّها هكذا : أولاً الموقف . . .

ولكن لماذا ؟ الأفضل أن أقدم في الأوّل نقطة تبدو كأنّها عفويّة ، أو كأنّها انطباع بصري ، طريقة كطريقة صندوق الدنيا ، أولاً تكتشف تفصيلاً ، ثمّ تكتشف تفصيلات أخرى ، إلى أن يتفرج المنظر الشامل كلّه .

منظر القيصر الشامل .

تماماً . اسمها هكذا فعلاً . أما زلت تعرف هذا ؟

ولكن الكتاب ، أظن أن هرمن يريد أن يكتبه ، هل ينبغي أن يحكي الحكاية بنفسه ؟

كما قلت : مناظر منفصلة على هذا النحو مثلاً : شارع مرصوف ليس به أشجار . بجواره قناة عرضها خمسة عشر متراً ، وماء راكد في مكان منبسط تسير إليه سيارة النقل ، السيارة تسبق سحابة من الغبار بطيئة تحيط الآن بمطعم على الناحية الأخرى من الشارع بحيث لا تظهر سوى أطراف أشجار الحدائق في السماء البيضاء . وبعد ذلك مباشرة بضعة بيوت صغيرة مبنية إلى الخلف . السيارة تقف وترتجف رجفة قويّة ، وتتداخل سحابة الغبار بعضها في بعض ثمّ ترتمي على الشارع بعد أن تتحرّك حركات شبيهة بحركات القطط . وتعلو الأصوات تحت خيمة عربة النقل ، وهذا شيء لا بدّ بطبيعة الحال أن يُكتب كما ينبغي ؛ مثلاً : واحد يسأل : هل لديك غطاء حلّي ؟ والآخر يجيب : لا ؛ كان بعربة النقل إذن بشر .

هذا الرجل هناك ، أظن ، أعني الرجل الذي يحكي ، هو من بروسيا الشرقيّة ، إن كنت قد أحسنت الاستماع إلى طريقة كلامه . في برلين كثيرون من بروسيا الشرقيّة .

هؤلاء الناس ينزلون الآن من العربة ، بهذه العبارة يستأنف الرجل قصته ، والوقت هو عام ٤٠ في فرنسا ، ويقفون في الشارع ظُهراً ، في قرية تبعد عدّة كيلومترات عن كاليه ، ويأخذ الملازم بارت الخريطة ويقربها من النظارة ويقول وهو ينظر إلى المياه العكرة نظرة مريرة : لا بد أن هذه هي القناة — مرسومة بخط عريض — مثل بحر المانش — ولا تزيد عن أن تكون قناة رفيعة قذرة . لقد كتبوا في الجرائد كلّها طولاً وعرضاً عن الذي عبرها . هكذا الفرنسيون .

هه ، شيء مضحك . كثيراً ما يتحدّث الناس عن الحرب ، كانوا شباباً في قوّتهم ، ولم يفكّر أحد في الإصابة بالبواسير . على فكرة ، أنا أراقب منذ مدّة ذبابة ، زحفت إلى منتصف ارتفاع كوب بـ . . . ، ببطء ولكن بهمّة ، وكأنّها من أهل المكان ، ثمّ وقفت برهة في المكان نفسه ، وكانت من قبل هادئة لا تتعجل تدور بجهد حول بقايا بيرة قرب القرص الذي وضع عليه الكوب — آه ، لكن القصة لم تنتهِ بعد .

يقول الرجل : الجندي « شايف » الذي أصله من كولن ، يجلس على السلّم ، يا للسماء ، تكلّم ، استمر ، فلن يثير هذا القناة — هذه القناة ، فهي كما ينبغي ، لها أسرارها : طمي وكلاب ميتة وإطارات دراجات ، أمّا الأخرى فلن

تصنع بكم شيئاً ، انظروا إلى الشاطىء على الناحية الأخرى، إنّه أبيض بلون الجير ومرتفع جدّاً فخذوه .

يقول الملازم : يا شايف تعالَ ، نريد أن نعسكر هنا ، ونسجل دخول القوات الألمانيّة في هذا العش ، ما اسمه ؟

ويجيب شايف : كولونيا ؛ ثمّ ينهض . هناك بيت مهدم ، وقطعة من واجهة بها نافذة فارغة ترفرف فيها قطعة من ستارة .

يقول الملازم بارت : ماء الكولونيا . الإنسان يحس بنفسه فرنسيّاً تماماً . يا شايف ، كيف تكون هذه الفرنسيّة ؟

لا بدّ أن تكتب هذه القصة ، يا هرمن ، فأنا أعتقد أنّها ستكون جميلة فعلاً .

والعنوان عندي : الله في فرنسا .

هذا العنوان موجود من قبل ؟

فعلاً .

ولكني أعتقد أن الناس لا يصغون إلى هؤلاء الأدباء أبداً ، بل يفضلون الفنانين . أو هذا الرجل هناك . وهو أيضاً من بروسيا الشرقيّة ، وفي برلين كثير من أهل بروسيا الشرقيّة .

عندما كنّا في وطننا البارد .

لا ، ليس هذا . أين أنت الآن ؟

هنا . بدأت عام ٤٧ في فيزل ، في فرع الأحذية ،

وفي اجتماع أهالي المنطقة . . .

لا ، ليس هذا .

لا بدّ أن يتمّ الإنسان كلامه إذا بدأه ، أقول : في اجتماع أهل المنطقة ، كسرت زوجتي ساقها في وسط الجزء اللطيف من الموضع ، وقد شفيت الساق ولم تشفَ في آن واحد ، وأنا أقول لها : سنسافر إلى مرج لونيبورج ، فهناك راعٍ ، ولكن الراعي لم ينظر إلى ساقها ، بل ظلّ ينظر إلى الحذاء الطبّي ، الذي اشتريته لها ، وراح يتكلّم عن صانع الحذاء دون أن يعرفه . ماذا أقول لك ؟ عدنا وبدأت أتعامل مع صانع الأحذية ، ابن البلد يشتري من ابن بلده ، هل سمعتم شيئاً من هذا القبيل من قبل ؟

شيء لطيف ، هذا الذي يقوله الناس . ولكن لا يمكن أن يكون كلّ شيء من هذا النوع .

وقال لص المصابيح : لا تعبأ .

فقصّوا عليه أن أستاذ فن المسرح الطويل الشعر يذهب كلّ صباح بالدراجة إلى الجامعة وأن الطلبة يذهبون إليها بالسيارات . بالدراجة . ما معنى هذا ؟ هذا شيء مضحك .

ويقول لص المصابيح : لا يهمّ .

وهكذا لا يقصّ الجميع كلاماً فارغاً . لص المصابيح مثلاً وهذا الرجل هنا .

أتيت لتوي من المقابر .

الآن من المقابر ؟ نعم منذ مدّة قصيرة . فليقص القصة .

عربة الموتى تأتي ، الرجال يحملون النعش إلى القاعة ، ولكن لا يوجد بها إنسان ، مقفولة ، ورقة على الباب ، رحلة للموظفين . كنت هناك لشيء آخر . وكان سباب ، ولا فائدة . وكنت معهم عندما عادوا بنعشهم ، وفي الحانة كان يخرج أحدهم دائماً ، وكان الأولاد يأتون دائماً — نعش ، هذا شيء لا يرونه كلّ يوم . فأسألهم : كيف يغلقون الباب هكذا ؟

هذا ما يحكيه الرجل الجالس عند باب حانة البيجز كلاوزه ، الحانة الرابعة التي يدخلها اليوم ، كما يقول هو نفسه . إنّه يتكلّم جيّداً . كذلك أنا لا أجد تعليلاً لإغلاقهم الباب ، هذا أمر يشبه ما حدث للغاز. هذه الإدارات المختصة بالتموين . لا بدّ أن نقول هذا للرجل ، باعتباره إنساناً .

وأخرج أنا ، فإذا هو قد انصرف .

وكان أرنو قد استوقفني من أجل ب . . . ، الذي نعس على المائدة . إنّه إنسان طيّب ، ب . . . هذا .

إذن فأنا أخرج ، والرجل انصرف ، والشارع مظلم :

خمس خطوات إلى البيت . وفي طريق موصل إلى بوابة أرى مصابيح قائمة ، على السلّم السفلي ، لم تكن قد لفتت

نظري ، وما زالت موقدة .

والشارع المظلم . بدون مصابيح فوق تلال الأحجار والتراب المكوم على حافة الحفر . الشارع الذي أنظر إلى نهايته عابراً على الواجهات السوداء العالية عبوراً . لقد خمد الآن إلى هذا الحد . هذا شيء يثير في الإنسان الرعب ، ولكن ما زال هناك سكان . ثمّ الحانات . والفنانون . كدت أنسى محلات الأثاث . فأنا أسكن هنا منذ مدّة طويلة . قديماً كانت الحال غير الآن ، بلا شك ، ولكني أعرف كلّ شيء هنا ، السلّم مثلاً . لا أخطىء درجة واحدة من درجات السلّم في الظلام ، وليست هناك بسطة من بسطات السلّم إلاّ وتعرفها قدماي فتدوران تلقائيّاً إلى صف الدرج التالي . في الظلام . فلا أحتاج إلى نور .

والآن الجاكيتة والحذاء والشرابات والبنطلون والقميص والملابس الداخليّة . أضعها كلّها في أماكنها القديمة . وأنا أقف تماماً على ساق واحدة . ولكن الأفكار تلفّ وتدور .

بسبب الظلام وبسبب النور .

أنابيب الغاز . المصابيح الحمراء . القمر . الذي اختفى . فما عدا هذا يشتغل بالكهرباء ، فالواحد منّا ليس مهملاً : تضغط على الزرار للفتح وتضغط على الزرار للقفل ، انتهينا . والنجوم التي رأيتها من قبل فوق الشارع الطويل .

زوجتي تنام هادئة . وأتصوّر على الأقلّ أنّها ستصحو وتظلّ يقظة . وأتصوّر ما قد يكون لديّ من أمور أحكيها لها . إن الدنيا ظلام ، في الخارج . وإن هناك قليلاً من النجوم فوق ، لا تضيء ، على الأقل لا يصل ضوءها إلى هنا . فماذا بالله لو لم تكن موجودة !

ماذا ، قل .

الظلام لن يزيد ظلاماً .

بلا شكّ .

هناك فوق — هناك ربّما كان شيء آخر . ليست الدنيا الآن أكثر إضاءة فلن تزيد إذن ظلاماً . سيصبح الحال غير الحال ولكني لا أعرف : كيف .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

جلسة خاصة

بقلم بول هونر فلد

جلس جميعهم ، وكان ما يدعو للدهشة أن الغائبين قليلون بالرغم من وقوع الحرب العالميّة والسنوات السيّئة . غير أن الاثنين اللذين تغيّبا قضي عليهما ، ربّما في روسيا أو في إفريقيا (أحدهما مات بصورة طبيعيّة من السلّ في مصحّ دافس) ، إن الاثنين قد انمسحا من الحلقات الاجتماعيّة ، وبحركة من أيدي الحاضرين اختفى ذكرهما في هواء الغرفة المشبع بالدخان . عبارات مثل : « المسكين افالد بالرمن الصغير ! » انتهت بضحكات مشبعة بالذكريات العاطفية ، وهكذا صار موت « افالد بالرمن الصغير » يرد للتفكهة .

ولمّا انفتح الباب وتأرجحت لوحة متأكّلة انكتب عليها « جلسة خاصة » ، ولما جاءت الخادمة المتجسمة بالبيرة على صينيّة رطبة ، تمكّن المرء من سماع صفير الباخرة البطيء

المحزن من خلال الضباب عدّة مرّات . كان الضباب كثيفاً لدرجة أنّه جعل يوماً من أيّام تشرين الثاني بعد الظهر معتماً . ومن خلال النافذة كان باستطاعة الإنسان رؤية الأضواء في الشارع وكيف أن الهواء تحوّل حول المصابيح الكهربائيّة إلى ما يشبه الحليب . وتسرّب الضباب إلى غرفة الجلوس من خلال النافذة واختلط بدخان السكائر ممّا جعل الهواء أثقل من ذي قبل وأكثر كثافة . أمّا هم فقد تطلّع بعضهم إلى بعض : برؤوسهم الحمراء المتألّقة من الابتهاج ، بأصواتهم المرتفعة ، بأحاسيسهم الدافئة ، هذه الأشياء التي عرفوها منذ خمسة عشر عاماً لآخر مرّة .

وبينهم جلس بيتر لفركون ، غير أنّهم لم يشعروا بحضوره. وهذا يعني : أنّهم بالطبع رأوه كما رأوا كلّ واحد منهم وربتوا على كتفيه كما فعلوا مع كلّ واحد منهم ، حتّى إن هايني لوهكامب صرخ في البداية : « يا بشر ، يا لفركون ، لم أعتقد البتّة أنّك ستأتي . كنت في المدرسة أبداً في عزلة — غير أن الحياة علّمتك أن تكون اجتماعيّاً ، كيف ؟ » وأجاب لفركون : « نعم ، لقد علّمتني الحياة أشياء . . . »

ولكن في الحقيقة أن الحياة لم تعلم لفركون الكثير . « وإلاّ ، يا عزيزي لفركون » قال لنفسه « لما كنت جالساً هنا . لأن وجودك هنا إمّا سيفسّر خطأ وإمّا . . . » ورمى

السيكارة ووقف . « لا ، يجب ألاّ يستمر الوضع هكذا ، لأنّك عندما تتكلّم ، ما الفائدة ؟ . . »

ودخل من قاعة الجلوس إلى قسم بيع المشروبات حيث كانت الخادمة متكئة على البار تتطلّع إليه بعينين زرقاوين كبيرتين وفارغتين، ومرّ من أمامها وخرج من الباب إلى العراء حيث لفّه الضباب البارد وطنين المدينة الصغيرة ؛ وبين وقت وآخر سمع المراكب البخاريّة تصفر من الميناء ؛ وفجأة أحسّ بوجهه ، بخدّيه الأبيضين الباهتين ، بشفتيه الرطبتين ، فأصابه الخوف ، الخوف الذي شعر به ليلاً ونهاراً ذلك الذي حلّ به الحادث .

طلب لفركون مزيداً من الهواء . فالضباب قد لفّه ولم يعد معتاداً على شمّ الهواء عند البحيرة . أو لعلّه الخوف الذي تركه له ذلك الرجل ؟ فمنذ عشرين عاماً وهو يحمل هذا الشعور وتدريجاً كاد يودي بأعصابه . منذ عشرين عاماً وهو يحمل الخوف عن أولئك الذين في الداخل وقد حان الوقت لمن يأخذه عنه . ألم يتحدّثوا باستمرار عن الصداقة ؟

— «والآن» ، تصوّر نفسه يقول : « يا رفاقي الأعزاء القدماء ، لأنّنا نلتقي هنا لأوّل مرّة منذ سنوات ، أُحبّ أن أنقل إليكم رجاء بسيطاً : هل يتفضل أحدكم لحمل رزمة صغيرة عني ما زلت أحملها منذ عشرين سنة عنكم ؟ إنّها

غير كبيرة ، إنّها بالتأكيد ليست أثقل من عُشر ما حمله ذلك . . . ولكن على كلّ حال : لقد صرت أنا أيضاً بسنٍّ لم تعد تسمح لي بحمل أثقال كبيرة » .

لا ، إنّهم لن يفهموا هذا القول . عليه أن يوضح لهم مرّة أخرى كلّ شيء ، وإلاّ فلن يتذكّروا — وحاول لفركون نفض الضباب عنه وبرم نفسه ودخل قاعة الجلوس من قسم المشروبات . « حسناً ، إنّك تعود ، يا لفركون » ، صرخ له هايني لوهكامب عند دخوله من الباب . « جئت في الوقت المناسب » .

« ما القصة ؟ »

نحن نقصّ ، كلّ بدوره ، حكاية عن أيّام المدرسة التي ما زلنا نحمل لها أعذب الذكريات ، وقد حكى كلّ من بروسو وبيترسن قصّته ، سرد بروسو كيف أنّه جعل كولنكامبف — أما زلت تذكر المعلّم الطويل ؟ — يسقط في التجربة التعليميّة ، وتكلّم بيترسن عن النزهة مع كوكو وعن الأرجوحة . إنّك لم تعد قادراً على تذكر القصتين.

« عندي حكاية أُخرى » أجابه لفركون « ولكن أُريد حكايتها فقط في الآخر » .

« كلام فارغ ، يا لفركون ، إنّه دورك ، فابدأ » .

حسناً ، إذن يجب أن تبدأ ، وكان بودّه على الأقلّ

الإبقاء على الأمسية المرحة ، لكنّهم أرادوا شيئاً آخر .

« أظنّ » ، قال ذلك وأشعل سيكارة ، « أظنّ أنّكم ما زلتم تذكرون يوحنا سنكر ؟ »

وكان الجواب قهقهة عالية .

« أيّها الطفل ، يا لفركون » هتف بروسو بصوت عالٍ غرابي ، « لن أنسى في حياتي تلك الحشرة حتى ولو كان ميتاً منذ أمد طويل » .

« عشرون عاماً وثلاثة أيّام » ، قال لفركون مصحّحاً . دفنّاه منذ عشرين سنة » .

« آمل » ، قال لوهكامب الجسيم ، « أنّك لا تريد التحدّث عن دفنه ، كيف ؟ »

ونظر لفركون عالياً ، ورأى كيف يترصده الآخر — هل خدع نفسه ؟ عندئذٍ تطلّع لوهكامب حوله ببراءة واتكأ على المقعد وراح يدخن سيكارة .

« ليس مباشرة » جاوب لفركون . « أوّلاً أريد أن أذكّركم بيوم حدث قبل وفاته بسنة تقريباً . كنّا في الصف السادس . آنذاك — ما زلت أذكر وكأنّه البارحة — كان عندنا كلّ يوم اثنين أوّل ساعتين درس في الرسم عند يوحنا » .

« ما من أحد منّا ينسى هاتين الساعتين » ، أكّد لوهكامب ببطء . « استخدمناهما في عمل الواجبات التي لم

نقم بها في العطلة الأسبوعيّة . . . »

« ليس هذا موضوعي » ، قاطعه لفركون ؛ وعند ذاك حدق إلى لوهكامب الذي اتكأ ثانية وسمّر عينيه أمامه بارتياح . ولكنّه أحسّ أن لوهكامب عرف ما سيتحدث عنه وأنّه لهذا يريد أن يحيده عن الموضوع .

« الرجاء أن تحاولوا تذكّر ساعة معيّنة من ساعات الرسم . وعندما انتهت توقّفنا عن إتمام الواجبات المدرسيّة عنده . من تلك الساعة نوينا أن نقوم بشيء أفضل . . . »

كانوا كلّهم هادئين الآن ، لقد تذكّر جميعهم الآن ؛ لهذا تابع لفركون بسرعة : « حدث ما حدث في يوم من أيام الاثنين بعد الساعة الأولى وأثناء فرصة الخمس دقائق . لقد اعتاد يوحنا أن يذهب إلى مكتبه القريب من قاعة الرسم ويرتاح في فرصة الخمس دقائق الواقعة بين الساعتين . غير أنّه لم يفعل هذا ذلك الصباح — أو بالأحرى لم يفعل حسب عادته : لما دقّ الجرس لم يتحرّك يوحنا ، بل بقي واقفاً عند اللوح الأسود وظهره إلينا والطبشورة في يده . ولكنه لم يرسم . وقف جامداً مكانه عندما دقّ الجرس . وأظنّ أنّك أنت يا بروسو صرخت في النهاية : « دقّ الجرس يا سيّد سنكر » . غير أن يوحنا لم يتحرّك . بعد ذاك صرخت أنت يا لوهكامب ثمّ أنت يا بيترسن ، ثمّ أنت . . . وأنا أيضاً صرخت :

وكان الجرس قد توقّف عن الرنين . وظلّ يوحنا واقفاً بلا حركة ويده جامدة مرفوعة وظهره إلينا . وبدأنا نضحك . وأخيراً صرخ أحدكم ، لست أدري من هو : « يوحنا سكران » . وانفجرت ضجة جحيميّة .

وهنا التفت يوحنا ، فرأينا وجهه الباهت شاحباً أكثر من أيّ وقت مضى ، رأينا عينيه المتسعتين وخلقنا ضجة لم نقم بمثلها من قبل . وأخيراً انحلّ جموده ؛ فصرخ هو الآخر بدوره ، صرخ طالباً الهدوء . وعندما علت ضجّتنا ردّاً على صراخه انسحب إلى مكتبه » .

وصمت لفركون ماسحاً عرقه من جبهته . « ومن تلك الساعة » تابع قوله ، « أصبح يوحنّا سنكر شغلنا الشاغل وقت الرسم » .

« في حياتي لن أنسى تلك الحشرة ، أتعرفون . . . » علّق بروسو ضاحكاً .

فقال لفركون بجزم : « لقد بدأتُ القصة يا بروسو وأُحبّ أن أُنهيها » .

وانحنى لوهكامب . « ولكن دع الآخرين أيضاً يتحدثون يا لفركون ، وهذا ما أردته أنت بنفسك » .

« هذا ما لا أريده الآن — من تلك اللحظة التي لم يسمع فيها يوحنا رنين الجرس مضت ساعات الرسم هباء . قبل

ذاك لم نحترم يوحنا كفاية ومع هذا فقد تركناه لراحته . وهكذا بدأنا في الساعات التي تلت القيام بخربشات تشبه خربشات الأطفال الذين يحاولون بها إرضاء معلّميهم . لا أعتقد أنّنا فعلنا أشياء شاذة ولكنها بدون شك وحشيّة . فأذكر مثلاً أنّها أثلجت بعد مرور أربعة عشر يوماً على الحادث . وكان من واجب يوحنا مراقبة ساحة المدرسة في الفرصة الكبيرة . فعملنا كرات كبيرة من الثلج وتركناها برهة على الأرض حتى تجالّدت وقست ، ثمّ رمينا يوحنا بها ، فأصابت معطفه الأسود وقبعته التي انطرحت على الأرض من غير أن يرفعها أحد . ثمّ أصبنا رأسه فوضع يده على عينيه حيث كانت كرة ثلجيّة قد أصابته ممّا جعل إحدى عينيه مغمضة وحمراء . وبعد ثانيتين — ظهرتا لي دقيقتين — وقف في تقاطع كرات الثلج المتساقطة عليه ، وقف بدون حركة وجامداً تماماً كما فعل قبل أربعة عشر يوماً أمام اللوح الأسود . عندئذٍ هرب إلى مدخل المدرسة واختفى وراء باب منزل ناطور المدرسة . وبعد ذاك وقفنا خلف الباب المغلق وضحكنا . وغاب يوحنا يومين عن المدرسة ، وعندما عاد كان لون جلده لا يزال شاحباً » .

« لو أنّه كان مريضاً فلماذا لم يبقَ في البيت مدّة أطول ؟» سأله بيترسن متحدياً . « لعلّه لم يقدر على ذلك » ، أجابه

لفركون . « لعلّه أراد أن يبرهن على عدم ضرورة بقائه في البيت . ربّما أراد أن يكافح . . . »

« يكافح ؟ » صرخ بروسو . « هذه الحشرة . . . »

« ربّما » عارضه لفركون ، « تأمّل أنّنا سنحلّ عنه . . . »

وهنا أومأ للخادمة وطلب كأساً من البيرة ، وتزايدت الظلمة في الغرفة حتّى كان من الصعب رؤية لوهكامب المقابل له . غير أن لوهكامب عرف مغزى الحديث ، لقد كان لوهكامب خصمه ، وعليه أن يبقيه تحت بصره . واستمرّ لفركون : « ولاح في الأسابيع التالية أن النصر حليف يوحنا ، مع أن تدريسه كان أقرب إلى التدريب منه إلى الرسم . غير أن الحالة لم تسر إلى الأسوأ . ولعلّه تصوّر أن موقفنا منه سينتهي ، وهنا حدث شيء جعل ضجتنا تخرس لحظة . ربّما كان آنذاك أوّل الربيع ، وعلى كلٍّ طلب منا يوحنا رسم عصافير مفردة . وهو نفسه وقف أمام اللوح الأسود وأراد رسم عصفور — وربّما كان العصفور بلبلاً أو شحروراً — ليس هذا المهمّ . المهم أن يكون عصفوراً . غير أن هذا لم يحدث : فكلّ مرّة كان يحاول فيها رسم عنق العصفور الدقيق كانت الطبشورة تقع من يديه المرتجفتين . وبينما كنّا في المرّات السابقة نضجّ أثناء رسمه هدأنا هذه المرّة وكلّنا توتّر لنرى ما إذا كان يوحنا سينجح في رسمته هذه أم لا . وشعر

يوحنا بنظراتنا ، لم أستطع رؤية وجهه ، ولكن كان دمه ولا شكّ قد نشف منه ، وأدار ظهره إلينا وحاول المرة بعد الأخرى رسمته بجرأة الضعيف العنيدة . وكلّ مرّة كانت الطبشورة إمّا تقع وإمّا تظهر الخطوط عوجاء فيمحوها من جديد .

وببطء ، وببطء تام خرجنا كالحيوانات المفترسة عن هدوئنا ورحنا نذكر بصوت منخفض كلمات بذيئة ومخجلة ، ورحنا نضحك ونضرب بأقدامنا على الأرض ، ومن ثمّ نصرخ وندقّ بأيدينا وبالمساطر على المقاعد ، ورحنا ننط ونقفز ونجعر أكثر من أي وقت مضى . ولكن يوحنا وقف على المنبر ملتفتاً إلى أعدائه ، فرأينا عينيه ، وكان من المفروض أن يخرسنا خوفه . ومع هذا لم نسكت ، نحن . . . »

« يكفي ، يا لفركون » ، قاطعه لوهكامب . وفجأة لم يعد لوهكامب الجسيم المرح . وصار وجهه الضاحك القوي متوتّراً وقاسياً . « لا نريد سماع أكثر من هذا ، فهناك آخر يحبّ أن يحكي قصته » .

« لا » ، أجابه لفركون واندهش لعدم ارتجاف صوته ولانخفاضه ولثقته بنفسه . « لا ، سأستمر حتى النهاية . وما من أحد يقدر على إيقافي وخاصة أنت ، يا لوهكامب ، لأن دورك في قصتي سيجيء . وهذا لا يعني أنّي سأظهرك

بمظهر خاص . غير أنّك أنت الذي أقدمت على الخطوة النهائية ، أو بعبارة أوضح : أنت الذي تؤلف الكلمة النهائيّة في هذه القصة — حدث هذا بعد عطلة الخريف الكبيرة التي امتدّت آنذاك حتّى أيلول . ولو ظنّ يوحنا يوماً أن العطلة ستمنحه القوّة أو أنّها ستنسينا الصراع معه ، لو فعل هذا لكان مخطئاً . وبدأت ساعة الرسم في يوم من أيّام الاثنين ؛ ولا بدّ أنّه أحسّ بخطئه منذ الساعة الأولى . وبعد أسابيع ، في نهاية تشرين الأوّل ، أثرناه لدرجة أنّه لم يعد يعرف ما سيفعله . فعندما كانت أصابعه قبل العطلة ترتجف وتهتزّ كان يستخدم عند الضرورة خشبة تساعده على رسم الخطوط الطويلة . وكان في طرف هذه الخشبة مسمار نسي يوحنا اقتلاعه . وارتفعت ضجتنا هذه الساعة ، إن كان هذا ممكناً بعد ، وأنت يا لوهكامب صعدت على المنبر ورحت ترقص أمام يوحنا . وهنا غنيت عالياً وصفقت بيديك ، فصرخ يوحنا بأعلى صوته : « انزل ، يا لوهكامب ! » ومن ثمّ هددك بالخشبة ؛ غير أنّك تابعت رقصك يا لوهكامب بحماسة أكبر ، وكذلك رقصنا نحن معك . وأنت صرخت : « اضربني ، اضربني ، إنّك غير قادر على الضرب حتّى ولو مرّة واحدة » . وهنا صرخ يوحنا بصوت لم أسمعه من أي إنسان من قبل ، بصوت لا يصدر عن أي إنسان لأنّه

لم يعد إنسانيّاً لأنّه كان صادراً عن الخوف الكبير ، لقد صرخ وضرب فأصابك على فخذك الأيمن وغرز المسمار في لحمك ... » .

وبخفة لا تصدّق قفز لوهكامب المتجسم من مقعده وانحنى فوق الطاولة قريباً من لفركون وصرخ : « حتّى اللحم ؟ حتّى العظم غرز المسمار ذاك الكلب اللعين . وبإمكانك رؤية العلامة حتّى الآن ! »

فأجابه لفركون بصوت عالٍ : « هذا ما أردته ، يا لوهكامب . لقد جعرت حين أصابك وأسرعت إلى المدير ونحن أتينا بالمدير الذي كان صغيراً ونشيطاً ، فأصغى لكلّ من أراد أن يقول شيئاً ، ولم يكن سوانا ؛ وأمّا يوحنا فقد وقف على المنبر سانداً رأسه على الخشبة التي يسند عليها المحاضر أشياءه بلا حركة . وأعادنا المدير إلى قاعة الرسم بعد أن وعدنا أنّه سيحمينا في المستقبل من حوادث مشابهة . ولك يا لوهكامب بعث وراء الطبيب » .

وتناول لفركون جرعة من البيرة ، ولكن قبل أن علت أصواتهم ، تابع قوله : « لم يقع نظرنا على يوحنا بعد ذاك : فالمدير قد طرده . كان ذاك اليوم ضبابيّاً ، تماماً كهذا اليوم ، ومشى في نفس الشوارع التي نمشيها نحن اليوم لأنّه كان يسكن قريباً من هنا . وقال لزوجته إنّه مريض ، عندما

سألته عن سبب عودته من المدرسة باكراً . وطلب منها ألاّ تزعجه لأنّه سينام قليلاً . وقال لها إنّه لم يحسّ بهذا التعب من قبل ، ولكن عاجلاً سيزول . وتناول أقراصاً منوّمة مع أنّه عثر على مسدّس في جارور الكومودينا . ولكنّه فضّل أن يموت بصمت لأنّه كره الضجيج الذي لم يستطع إبعاده عن حياته . وبعد يومين كان الدفن ، وكان النهار خريفيّاً جميلاً فوق العادة ، فالشمس الشاحبة أضاءت أوراق الشجر السمراء على حافة طريق المقبرة . كانت السماء منفرجة ولكن غير صافية ومن مكان ما هبط الضباب من جديد ولفّنا .

ونحن القتلة شاركنا في الدفن وسمعنا عن يوحنا سنكر كلمة المدير الذي وصفه بأنّه كان أستاذاً نشيطاً وبأنّه مرض فجأة . . . غير أنّنا نحن عرفنا أكثر من سوانا ، ولكن هل شعرنا بالندامة ؟ »

وهنا ارتجف صوت لفركون . « نعم هناك » ، استمرّ قائلاً ، « لمّا مشيت على قبره أحسست بشيء ما أحسست به من قبل : أحسست بالخوف . تملكني الخوف أشدّ من الخوف الذي تملك يوحنا وقهره . وتطلعت إليكم ، إليك يا لوهكامب وإليك يا بروسو ويا بيترسن لأرى ما إذا كنتم خائفين ، ولكنكم لم تبالوا . هذا ما زلت أذكره حتّى اليوم » .

وأغمض لفركون عينيه لحظة . جميعهم كانوا بلا حركة .
وقال بصوت منخفض وبجهد كبير : « والآن أرجو أن يأخذ عني أحدكم هذا الخوف . نحن جميعاً قتلناه . لهذا ليست التوبة كافية . احملوا عني الخوف ! »

وظلّوا جميعهم صامتين برهة من الزمن . ثمّ راح بعضهم يضحك ، الواحد بعد الآخر ، وأخيراً ضحكوا كلّهم . عندئذٍ صرخ بروسو : « يا بشرى ، يا لفركون ، إن عينيك كعينَي يوحنا ، الحشرة ... »

وحدّق لفركون إلى وجوههم ، ورأى كيف يدخلون السكائر بين شفاههم ، كيف يحتجون ، رأى كيف أنّهم نفضوا حكايته في الضباب بحركات أيديهم . ومن ثمّ تطلّع إلى وجه لوهكامب . أمّا لوهكامب الذي ابتسم وانحنى أمامه فجأة بوجه عابس بينما كان يخرج سيكاره لحظات من فمه ، لوهكامب همس بأذنه : « أنت مجنون يا لفركون » .

وقف لفركون ، وأخذ قبعته ومعطفه من التعليقة وخرج من غرفة النوم إلى حيث الضباب والخوف حوله أكثر من ذي قبل ، وبمشقّة راح يتلمّس طريقه .

ترجمة : فؤاد رفقة



تعريف بالمؤلفين

هاينريش بل

وُلد في كولون عام ١٩١٧ ، التحق بالخدمة الإلزاميّة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وبعدها بالخدمة العسكريّة الإجباريّة ، يعيش منذ سنة ١٩٥١ ككاتب حرّ في كولون . مثل بورشرت ، وبتأثير أكبر ، لأن الخلاص أتيح له من الحرب ، جسّد بل تجربته في الحرب وخيبته من ألمانيا ما بعد الحرب . وهو اليوم من أوسع الكتّاب الأحياء شهرة . قصّته الطويلة « ولم تقل أيّة كلمة » (١٩٥٣) أو قصته « بيت بدون حارس » (١٩٥٤) ، هاتان القصتان تُرجمتا إلى لغات عديدة ، وكذلك مجموعته القصصيّة « أيّها السائح ، هل تعود إلى سبا ؟ » (١٩٥٠) .

فولفجانج بورشرت

وُلد في هامبورغ عام ١٩٢١ وتوفّي وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وبعرض تمثيليته الدراماتيّة « خارجاً أمام الباب » في السنة التي مات فيها صار صوتاً جديداً بجيل الشباب الذي التحق بالحرب إجباريّاً ويجد نفسه الآن خائباً في عالم صحراوي . ويبرز الصراخ والشكوى في القصص القصيرة التي نشرها سنة ١٩٤٧ .

ماكس فون در كرين

وُلد في بيرويت سنة ١٩٢٦ ، عمل منذ ١٩٥١ في مناجم منطقة الرور بادىء الأمر في استخراج الفحم ومن ثمّ رئيساً في فتح الحفر بسبب حادث أصابه عام ١٩٥٤ ، وقد استفاد من عمله هذا تجارب تجسّدت في رواياته وقصصه القصيرة .

له مجموعة قصصيّة تدعى « مقاطعة السفر وقصص أخرى » .

إلزه أيشنجر

وُلدت في فيينّا عام ١٩٢١ ، وفي عام ١٩٥٣ تزوّجت كنتر آيش . درست الطب بعض الفصول ، وفي ١٩٤٩ — ١٩٥٠ اشتغلت كمصححة في دار نشر س . فيشر ، فيينّا ، وكانت قد لفتت الأنظار إليها بقصتها الطويلة « الأمل الأكبر » عام ١٩٤٨ ، هذه القصة التي تعالج بلغة تعبيرية مصير أطفال يهود . وكثيراً ما يشابه أسلوبها القصصي أسلوب كافكا حيث تبرز فيه الحوادث مستمدّة من عالم ما بين اليقظة والحلم ، الواقع وما فوق الواقع . وقد ظهرت مجموعتها القصصيّة الأولى في ألمانيا سنة ١٩٥٣ بعنوان « خطاب تحت المشنقة » .

إلزه لاشجر

وُلدت عام ١٨٩٩ في مدينة « بريسلاو » . وبكّرت بأن صنعت لنفسها — من برلين — اسماً معترفاً به كقصصيّة ومؤلّفة مسرحيات . وفي عام ١٩٢٨ ظهر العرض الأوّل لأولى مسرحياتها : « السيدة « اما » تكافح في الأرض الخلفيّة » . ثمّ أتبعت ذلك في عام ١٩٣١ بمسرحية أخرى عنوانها : « القديسة القادمة من الولايات المتحدة الأمريكيّة » وصدر لها بعد ذلك قصة متوسطة الطول ، تدور أحداثها في اليابان وتدعى : « عيد جيبون » ، وأخرى طويلة — في عام ١٩٣٧ — ذات طابع صيني ، وتحمل عنوان : « المدينة الأرجوانيّة » . وجدير بالذكر أنّها عكفت طيلة ثلاث عشرة سنة على كتابة مسرحيتيها الشعريتين : « كلو تيمنسترا » و « أفيجنيا تعود إلى الوطن » ، وموضوع هاتين المسرحيتين إغريقي . أمّا روايتها المسرحيّة التي تدور حول برلين وعنوانها : « العودة . . . » فأذيعت من محطة شمال غربي ألمانيا بعد أن أخرجها « أرفين بسكاتور » . وقد قامت حتّى الآن بثلاث رحلات طويلة حول العالم كان لها صداها في سعة مؤلّفاتها وعمقها .

هوبرت فيشته

من المؤلّفين الذين برزت أسماؤهم في العامين الأخيرين . وُلد عام ١٩٣٥ ، لهذا ينتسب إلى المؤلفين الشبان . ظهرت مجموعته القصصيّة الأولى « الرحيل إلى توركو » سنة ١٩٦٥ وقصته الطويلة « الميتّم » في ربيع سنة ١٩٦٦ .

هانس إريش نوساك

وُلد في هامبورغ سنة ١٩٠١ ويعيش منذ ١٩٥٦ بالقرب من أوكسبرغ ككاتب حرّ . درس الحقوق والفلسفة ، ومارس وظائف متعدّدة قبل التحاقه عام ١٩٣٣ بشركة الاستيراد الخاصة بأبيه . وبعد سنة ١٩٣٣ مُنع من نشر أيّ شيء ، كما أن جميع إنتاجه قد احترق أثناء غارة جويّة . وينتسب نوساك إلى الكتّاب الذين ، بعد الحرب العالميّة الثانية ، بلغوا تدريجيّاً مرتبة أشهر القصصيّين في الوقت الحاضر . فلغته المتحكّم بها والتي غالباً ما تحتوي على عناصر سيرياليّة تجعله وهو من أبناء الجيل القديم ، في مصاف الكتّاب الشباب ما بين ١٩٣٠ — ١٩٤٤ . غير أنّه يرتبط بالوجوديّة من جهة وبالرومانسية من جهة أخرى ، وهذا بسبب بحثه عن المعنى الميتافيزيقي للوجود الإنساني وباعتقاده بأن « الإنسان لا بيت له » . وأوّل ما ظهر له كانت قصته الطويلة « نِكيا » سنة ١٩٦١ ومن ثمّ « المغيب » وفيها يصف مدينة هامبورغ بعد غارة جويّة . ومن بين ما كتب رواياته : « على أبعد حدّ في تشرين الثاني » (١٩٥٥) و « بعد الثورة الأخيرة » (١٩٦١) .

كريستيان غايسلر

وُلد في هامبورغ عام ١٩٢٨ ، يعيش حاليّاً ككاتب حرّ متنقّلاً بين هامبورغ وإيطاليا ، هذا بعد أن مارس وظائف عديدة ودرس اللاهوت والفلسفة وعلم النفس . ويُعتبر غايسلر ملتزماً سياسيّاً وناقداً يكتب روايات ومسرحيات للتلفزيون وقصصاً قصيرة .

جرد جايزر

شخصيّة تنتمي إلى الأدب الألماني المعاصر بأكثر من مفهوم واحد . وهو — جايزر — وإن كان من مواليد عام ١٩٠٨ ، بمقاطعة « فيرتمبرج » ، إلاّ أنّه لم يُعرف كأديب إلاّ بعد الحرب الأخيرة . درس قبل ذلك فن الرسم وتاريخ الفن ، وعمل مدرّساً منذ عام ١٩٥٣ . وبعد أن صدرت له قصص قصيرة مبكرة عرف النجاح لأوّل مرّة على يد روايته « المقاتلات الصريعة » ، وهي تحكي قصة سرب من الطائرات في طريقه إلى الانهيار . على أنّه لم يكسب جمهوراً كبيراً من القرّاء إلاّ بعد صدور روايته « الحفل الأخير » ، حيث استعرض فيها سنوات ما بعد الحرب الأخيرة في مدينة ألمانيّة صغيرة . و « جايزر » لا يبحث عن مواضيعه الروائيّة إلاّ في الحاضر ، بينما وجد القالب الصالح لصياغتها في لغة صعبة ملخصة ، تمنح قصصه القصيرة على وجه الخصوص بهاء مسرحيّاً يأخذ اللب . وتحتوي مجموعتا « انتبه في دوموكوش » و « عند ممر ناسكوندو » على أحسن ما صدر من أقاصيصه .

بول شاليك

وُلد في فستفالن عام ١٩٢٢ ويعيش حاليّاً في كولون كصحافي وككاتب حرّ . ومن بين ما درس: الفلسفة وفن المسرح ، وصار أخيراً ناقداً مسرحيّاً . وفي رواياته النقديّة يتعرّض لاستخدام القوّة في الماضي السياسي . من مؤلفاته روايته « لو يتمكّن الإنسان من التوقّف عن الكذب » (١٩٥١) و « إنكلبرت راينكي » (١٩٥٩) .

أنجبورج باخمن

وُلدت في كلاكنفورت عام ١٩٢٦ . درست الفلسفة في أنسبرغ وغراس وفيينّا ، عملت في إذاعة فيينّا بين ١٩٥١ — ١٩٥٣ ، تعيش منذ ١٩٥٣ متنقّلة بين روما ونابولي وميونخ وزوريخ وبرلين ، وفي ١٩٥٩ — ١٩٦٠ دُعيت إلى جامعة فرانكفورت لتدريس الشعر فيها . نالت جائزة « جماعة ٤٧ » الأدبيّة عام ١٩٥٣ كما أنّها حازت على جوائز أخرى في الأدب والمسرح والنقد .

لها مجموعات شعريّة وقصص قصيرة ومسرحيات ومقالات .

رولف شريزر

وُلد في نويس راين سنة ١٩١٩ ، يعيش منذ ١٩٥٧ ككاتب حرّ في فستفالن . درس علم اللغة واشتغل بعد الحرب أحياناً كمصحّح في دور النشر. كتب رواية عنيفة عن الحرب وما بعدها كما أنّه مؤلّف مسرحيات.

يوهنس بوبروفسكي

وُلد في تيلست عام ١٩١٧ وتوفّي عام (١٩٦٤ ؟) قبل أن عُرِف اسمه تماماً . بعد اشتراكه بالحرب شغل مركز محاضر في جامعة برلين الشرقيّة . إن شعره الغنائي قليل من حيث الحجم ، ولكنّه على مستوى عالٍ . وتلعب طبيعة أوروبا الشرقيّة دوراً هامّاً في شعره ؛ وهو يعبر عنها بحزن وجوديّ . تجري حوادث روايته « طاحونة لفين » (١٩٦٤) في الجوّ الألماني ـ البولندي ــ وبالرغم من التصاقها بالوسط الطبيعي الشرقي تُعتبر نقداً عميقاً للأحوال المعاصرة . كذلك هي الحالة بالنسبة لمجموعته القصصيّة « عيد الفئران » التي ظهرت عام ١٩٦٥ .

بول هونرفلد

وُلد بالقرب من دسلدورف سنة ١٩٢٦ وتوفّي عام ١٩٦٠ بحادث سيارة . درس الطب واشتغل بعد الحرب في هامبورغ كمحرّر صحفي .

قصص ألمانية حديثة

Dieses Werk wurde in
gemeinschaftlicher Zusammenarbeit der Verlage

Dar SADER, Beyrouth, *Libanon*
und
HORST ERDMANN Verlag, Herrenalb, *Deutschland*
und Basel, *Schweiz*
veröffentlicht

Grundlage dieser Veröffentlichung ist der Band
« Deutsche Erzählungen aus zwei Jahrzehnten »,
herausgegeben von Wolfgang Langenbucher

Diese Auswahl besorgte Sigrid Kahle
unter Mitwirkung von Fuad Rifka

Aus dem Deutschen ins Arabische übersetzt
von Mustafa Maher, Fuad Rifka und Magdi Youssef

MODERNE

DEUTSCHE ERZÄHLUNGEN

Dar SADER, **HORST ERDMANN Verlag,**

Beyrouth *Libanon* **Herrenalb *Deutschland***

1966



الثمن ٣٠٠ ق. ل.